أبو الوفا محمد درويش
(رحمه الله)

الأسماء الحسنى

الطبعة الأولى

١٣٨٠ هـ — ١٩٧٠ م

ملتزمة الطبع والنشر
الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب
والسنة المحمدية — فرع سوهاج

مطبعة السنة المحمدية
١٧ في شريف باشا الكبير - عابدين
تليفون ٩٠٦٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لك الحمد يا ذا الجلال والإكرام ؛ سبحانك يا مبدع الكائنات ، يا من بسطت الأرض ورفعت السموات ، لك الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ؛ لك مقاليد السموات والأرض ؛ ما قدرك الناس حق قدرك ، والأرض جميعاً قبضتك يوم القيامة والسموات مطويات بيمينك .

سبحانك وتعاليت عما يصف الجاهلون ! كتبت للناس فى صفحات الآفاق آيات وجودك ودلائل قدرتك ليقرأ من له عينان ، وأنطقت كل شيء بالتسبيح بحمدك ؛ ليسمع من له أذنان ؛ وأودعت الفطر البشرية غرائز الإقرار بربوبيتك ليذكر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؛ وقطعت بذلك حجج الجاحدين ، وأعذار المعاندين ، وصدق قولك الكريم (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) .

ففاز الذين سبقت لهم منك الحسنى إذ نظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلقت من شيء ، فرأوا بأبصارهم وبصائرهم آثار قدرتك على كل موجود ، وسمعوا بآذان قلوبهم شهادة الكائنات بأنك وحدك بالحق معبود ؛ فآمنوا بك إيماناً أطلق جوارحهم فى مرضاتك ، وقاموا لك قانتين ، وخروا للأذقان ساجدين .

وأما الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون فقد أعرضوا عن الآيات ، وغفلوا عن المثلات ؛ وعموا عن البينات ، ولم ينتفعوا بما يرون أو يسمعون (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فهم المعنيون بقولك الحق (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ؛ ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) .

سبحانك لم يقف فضلك على الناس عند هداية الفطرة والوجدان والعقل ؛ بل أرسلت إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزلت عليهم الكتب ليدبروا الآيات ولعلهم يهتدون ، وأوضحت لهم أسماءك الحسنى ليعرفوك بها ويهتدوا منها إلى ألوهيتك وربوبيتك ووحدانيتك وقدرتك ، وعزتك وحكمتك ، وقدسك وقهرك وعلمك ورحمتك وعظمتك وجبروتك ، وكرمك وسمعك وبصرك ونورك ، حتى إذا لاحت لهم هذه الأنوار وأشرقت عليهم شموس الهداية من آفاق القرآن ، صح إيمانهم بك وثقتهم فيك وتوكلهم عليك ، ودعاؤهم إياك ، وانصرفوا عن المخلوقين جميعاً إليك ، فعبدوك وحدك ، واتقوك وحدك ، واستعانوك وحدك .

أحمدك حمداً أستديم به نعمتك ، وأستدفع به غضبك وأستحق به رحمتك ، وأدخل به جنتك . وأشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ؛ أرسلته بالهدى ودين الحق لتظهره على الدين كله ولتخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، ففتحت به أعيناً عمياً وآذاناً صماً ؛ وقلوباً غلفاً ، وأنقذت من الضلالة أمماً كانت غارقة فى طغيانها وجهالتها ؛ تائهة فى بيداء شركها ووثنيتها ، داعية للمخلوق كما يدعى الخالق ، طالبة من المرزوق ما لا يطلب إلا من الرازق .

أخرجت به من أعماق الظلمات أمماً كانت تدعو من دونك ما لا يضرها ولا ينفعها وتحسب أنهم عندك شفعاء ، قد انغمسوا فى الجهالة الجهلاء ؛ وتاهوا فى الضلالة العمياء وتورطوا فى السوء وارتطموا فى أوحال الفحشاء .

فلما تبلج لهم صبح الهداية متشحاً براية القرآن ولاحت لهم أعلام التوفيق فى طريق العرفان ووضحت لهم المحجة ظاهرة الصوى بادية الأعلام . خلعوا الأنداد وطوحوا بها وحطموا الأوثان وداسوها بالأقدام . وأصبحوا بعد الشرك البغيض المهين : مؤمنين موحدين مخلصين لك الدين . إذا ذكر اسمك وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياتك زادتهم إيماناً وعليك وحدك يتوكلون .

صل اللهم على محمد وعلى آله ما لاحت مظاهر أسمائك الحسنى ، وأشرقت أضواء صفاتك العلا . وما تنفس صبح وتجلى نهار . وما بدا فى الوجود شىء من أسرار الواحد القهار .

* * *

أما بعد فقد طلب إلىّ بعض الأخوة أن أكتب لأسماء الله الحسنى شرحاً موجزاً يوضح معانيها ، ويجلى مبانيها ، ويبين غاياتها ، ويكشف عن مدلولاتها ، حتى تتجلى بهجتها لقلوب المؤمنين ، وتشرق أنوارها على أرواح المخلصين . وصادف هذا الطلب هوى فى فؤادى ، ورغبة ملحة فى قلبى ، وأمنية طالما ناجيت بها نفسى ، وطلبة كنت أطمح إلى تحقيقها من عهد بعيد . ولكنى كنت مثقلا بكثير أشغال ، مرهقا بثقيل أعمال ، فلما انحلت غمراتها ؛ واستروحت النفس نسيم الراحة من أوقارها ؛ وواتت أوقات الفراغ من العمل المضنى ؛ والشغل المرهق ، شرعت أرتاد المادة التى أغترف من معينها ، وأرتشف من نميرها ، ومن معاجم اللغة ودواوينها ، وما يروى الغلة ؛ وينقع الصدى من آيات الكتاب الكريم ، وسنة سيد المرسلين .

ولم أشأ أن أطلع على شىء من شروح الشارحين الذين عرضوا لهذا الأمر من قبلى ، لأنى أعلم أن فى نفس الإنسان دوافع خفية تجنح به إلى تقديس آراء القدامى ، والخضوع لأحكام السابقين ، فلو أنى نظرت فيما كتب الكاتبون ثم نسجت على منوالهم ، وقلت ما قالوا ، لم أكن قد عملت شيئاً ، ولا تركت أثراً ، وكانت قصارى أمرى أن أكون صدى لأصوات الأولين ، أو مرآة تعكس صور آرائهم وأشكال أحكامهم ، أو ببغاء تردد ألفاظهم وتحكى أقوالهم .

ذلك إلى أن كل ما يقرؤه القارىء أو يسمعه السامع يندس فى عقله الباطن ويكمن فيه إلى حين ، حتى إذا نسيه فاض على ألسنة لسانه أو عذبة قلمه فى غفلة منه ، وهو يحسب أنه من ثمرات عقله أو نتاج تفكيره . لذلك آثرت أن أكون حراً من كل قيد ؛ وأن أرخى لتفكيرى كل عنانه ليجرى طليقا فى سبيل بحثه لا يقيده إلا نصوص الكتاب

والسنة ، وما انطوت عليه جوانح المعاجم من معان لألفاظ اللغة العربية التى أنزل الله بها كتابه ، واختار من صفوة أبنائها نبيه الكريم وجعله أفصح من نطق بها .

ثم توجهت إلى الله تعالى توجه من يعلم أنه لايخطو خطوة إلا بتوفيق منه وعون ، وسألته مخلصاً أن يهيىء لى من أمرى رشداً ؛ وأن يهدينى صراطاً مستقيما ، وأن يلهمنى الصواب فى كل ما أكتب ، وأن يسدد قلمى حتى يصيب من الهدى ما إليه قصدت ؛ وأن يحقق الأمل الذى جنحت إليه النفس ، وصبا القلب . وما توفيقى إلا بالله .

هذا ولست أسأل القراء الكرام أن يغضوا أبصارهم عن الهفوات والزلات أو يسكتوا عن الأغلاط والسقطات ، فهذه سنة درج عليها الأولون ، ولست أحبها منهم ولا أرضاها لهم . فشأنها أن تبقى الخطأ بغير إصلاح ، وأن تخدع بعض القارئين الذين لم يستكملوا ثقافتهم بعد ، والذين هم فى سبيلهم إلى استكمالها : فتصور لهم الخطأ فى صورة الصواب وتبرز لهم الباطل فى معرض الحق — ولا سيما حين يثقون بالكاتب ويعولون على ما يكتب وقد لبث العلم أجيالا وهو يشكو الضنى ويعانى الوصب من جراء الصفح عن عثرات الأقلام ، وزلات الأفهام . وغير الناس أحقابا وهم يقدسون كل كلام مسطور فى كتاب ، ولو كان بمنأى عن الحق ونجوة عن الصواب .

ولست أعنى أنهم يشهرون بى أو يمزقون أديمى ، أو يصوبون إلى سهام النقد اللاذع واللطعن الجارح ، فلست أحب ذلك ولا أرضاه ، بل أوثر العافية منه والنجاة من بلواه . إنما أريد — إذا وقف أحد الفضلاء على سقطة — أن يكتب إلى مرشداً منبها إلى الصواب بلهجة الناصح الودود ، مع الإدلاء بالدليل المقنع والبرهان المرضى ، فذلك خير وأبقى ، وأهدى إلى الحق وأدل على الرشد . إذ طالما كان النقد اللاذع باعثا إلى التمادى فى الباطل ؛ صارفا عن التماس الحق دافعاً إلى الإدمان فى اللجاج والاسراف فى الحجاج والاغراق فى التهاتر والجدل ومهما يبلغ الانسان من الاستمساك بأهداب الفضيلة فإن الضعف البشرى ملازم له ، وشيطان الفتنة قاعد له كل مرصد ، إلا من عصم الله وقليلا ما هم .

أبو الوفاء محمد درويش

تقـــديم

الأسماء : جمع اسم وهو ما دل على مسمى . وأسماء الله هى الكلمات التى سمى بها نفسه وأخبر ببعضها عباده ليدعوه بها .

ومن أسمائه تعالى أسماء مشتقة مثل الرحمن والرحيم والخالق والرازق . ومنها مصادر مثل الرب والسلام .

والحسنى الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات مع تحقق وجودها ؛ وثبوت الاتصاف بها على أتم الوجوه .

وتوضيح ذلك أنك قد تصادف من يسمى صالحاً أو سعيداً أو محسناً . فهذه الأسماء دالة على معان حسنة وصفات جميلة ، ولكن المسمين بها قد يكونون مجردين من هذه المعانى ، أخلاءً من تلك الصفات . ولكن الله تقدست أسماؤه متصف حقيقة بكل المعانى والصفات التى دلت عليها أسماؤه الحسنى وهى ثابتة له على أكمل وجه .

وأسماؤه تعالى كثيرة منها ما أنزله فى كتبه وعلمه رسله وأنبياءه ، ومنها ما استأثر بعلمه ، لأن عقول البشر أعجز من أن تدرك معناه أو تحيط بمكنون أسراره .

يدل على هذا ما رواه الامام أحمد والبزار عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ؛ أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » فى حديث طويل فى دعاء تفريج الهم والحزن .

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً ـ مائة إلا واحدا ـ من أحصاها دخل الجنة[1] » .

---

(١) ليس المراد من إحصائها : حفظها . وإنما المراد إحصاؤها إيماناً بمقتضاها وتحقيقا لمدلولاتها . فاحصاء « الكريم » استيعاب كل ما يقتضيه هذا الاسم من سؤاله سبحانه وكثرة الالحاح فى المسئلة وأن يضع كل حاجته ببابه وأن لا يدعو ولا يسأل غيره . وأن يكون هو كريما لاقتضاء اسم « الكريم » حب الكرم وهكذا .

وقد حرصت على إحصائها مستنبطة من القرآن الكريم واضعاً نصب عينى ألا أحصى إلا ما كان اسما صريحا ولم أحص ما يمكن اشتقاقه من مصادر الأفعال التى أسندها الله تعالى إلى نفسه . ولست أخفى على القارىء الكريم ان هناك سرداً لتسعة وتسعين اسما يزعم بعض العلماء أنها مرفوعة ، ولكن المحققين يرون غير ذلك ، وقد اسفر البحث عن أن منها نحو السبعين مما جاء فى القرآن الكريم أما الباقى فمأخوذ من السنة أو مشتق من الأفعال التى جاءت فى القرآن مسندة إليه سبحانه .

وها أنذا أورد عليك تسعة وتسعين اسما استطعت أن أستنبطها من القرآن الكريم ، مشيرا إلى السور التى جاءت بها . ولست أقطع أنها هى التسعة والتسعون اسماً التى هى مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى القرآن الكريم أسماء أخرى جاء بعضها مضافا وبعضها شبيها بالمضاف . ولعل فى هذا الابهام سراً سيكشفه الموفقون ، وحكمة سيعرفها الباحثون .

أما هذه الأسماء فهى :

فى سورة الفاتحة : الله . الرب . الرحمن . الرحيم . المالك — وفى سورة البقرة : المحيط . القدير . العليم . الحكيم . التواب . البارىء . البصير . الواسع . السميع . العزيز . الرؤف . الشاكر . الاله . الواحد . الغفور . القريب . الحليم الحى . القيوم . العلى . العظيم . الغنى . الولى . الحميد . الخبير . المولى — وفى سورة آل عمران : الوهاب . الناصر . الجامع — وفى سورة النساء : الرقيب الحسيب . الشهيد . الكبير . النصير . الوكيل . المُقيتُ . العَفُوُّ . البديع — وفى الأنعام : القاهر . اللطيف . الحاسب . القادر . الحكم — وفى الأعراف : الفاتح — وفى الانفال : القوى — وفى هود : الحفيظ . المجيب . المجيد . الودود — وفى يوسف : المستعان . القهار . الغالب — وفى الرعد : المتعالى : الوالى — وفى الحجر : الحافظ . الوارث . الخلاق — وفى الكهف : المقتدر — وفى مريم : الحفى — وفى طه : الغفار . الملك . الحق — وفى الحج : الهادى — وفى النور : المبين . النور — وفى النمل : الكريم — وفى الروم : المحيى — وفى سبأ : الفتاح — وفى فاطر . فاطر . الشكور — وفى الزمر : العالم .

الكافى ـ وفى غافر : الخالق ـ وفى الدخان : المنتقم ـ وفى الذاريات : الرزاق . المتين ـ وفى الطور : البر ـ وفى النجم : المليك ـ وفى الرحمن : ذو الجلال والاكرام ـ وفى الحديد: الأول . الآخر . الظاهر الباطن ـ وفى الحشر: القدوس . السلام . المؤمن . المهيمن الجبار المتكبر المصور وفى الأعلى : الأعلى :ـ وفى العلق : الأكرم ـ وفى الاخلاص الأحد، الصمد .

واليك سردها ليسهل عليك حفظها :

الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، الغفار القهار الوهاب ، الرزاق الفتاح العليم ، القاهر الغالب الحاسب ، الشاكر الفاطر السميع البصير ، الحكم الاله اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور ، العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب القدير ، الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الفاتح الشهيد الحق الوكيل القوى . المتين ، الولى الحميد ، المحى المليك ، العالم الكافى المستعان ، الحى القيوم ، القادر المقتدر القريب المحيط ، الأول الآخر الظاهر الباطن ، الوالى المتعالى ، البر التواب ، المنتقم العفو الرؤوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام الجامع الغنى ، النور الهادى المبين الخلاق البديع المولى الأكرم النصير الرب الوارث الأعلى الناصر الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

هذه تسعة وتسعون اسماً من أسماء ذى الجلال والإكرام تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه ؛ وقد جاء بعضها مكرراً فى السورة الواحدة من القرآن الكريم أو فى عدة من السور . وهناك عدة من الأسماء الحسنى جاءت فى القرآن الكريم وأكثرها على صيغة اسم الفاعل وهى تشير إلى إسناد الأفعال التى تدل عليها إلى رب العزة جل شأنه ، مثل فالق ؛ فى قوله تعالى (إن الله فالق الحب والنوى) وفى قوله تعالى (فالق الإصباح) ومثل مُخرِج فى قوله تعالى (ومخرج الميت من الحى) وقوله تعالى (قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) ومثل موهن ، فى قوله تعالى (إن الله موهن كيد الكافرين) ومثل متم ،

فى قوله تعالى (والله متم نوره ولو كره الكافرون) ومثل آخذ ؛ فى قوله تعالى (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) ومثل غالب ، فى قوله تعالى (والله غالب على أمره) ومثل عالم ، فى قوله تعالى (وكنا بكل شىء عالمين) وقوله (عالم الغيب والشهادة) وقوله (إن الله عالم غيب السموات والأرض) ومثل علام ، فى قوله تعالى (إنك أنت علام الغيوب) ومثل شاهد ، فى قوله (وكنا لحكمهم شاهدين) و (وكنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) ومثل قائم ؛ فى قوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط) وقوله (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ومثل مبتل ، فى قوله (وإن كنا لمبتلين) ومثل كاتب ؛ فى قوله (وإنا له كاتبون) ومثل مرسل ، فى قوله (وكنا مرسلين) ومثل منذر فى قوله (إنا كنا منذرين) ومثل مهلك ، فى قوله (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) ومثل غافر فى قوله (غافر الذنب) ومثل قابل ، فى قوله تعالى (وقابل التوب) ومثل مبرم فى قوله تعالى (أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون) ومثل زارع فى قوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) ومثل مُنزِل فى قوله تعالى (أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) ومثل منشىء ، فى قوله (أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) ومثل مسيطر الذى يؤخذ بمفهوم المقابلة من قوله تعالى (أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون) ومثل حسب فى قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ومثل بالغ فى قوله (إن الله بالغ أمره) ومثل كاشف فى قوله (إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون) ومثل موسع فى قوله (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) ومثل ماهد فى قوله (والأرض فرشناها فنعم الماهدون) ومثل جاعل ؛ فى قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلاً . أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء) ومثل فعال فى قوله (فعال لما يريد) .

وجاء فى القرآن الكريم من الأسماء الحسنى أيضاً : ذو انتقام ؛ ذو العرش ؛ ذو الفضل العظيم ، ذو المعارج ، ذو الطول ، ذو القوة ، ذو مغفرة وذو عقاب أليم .

وجاء فيه منها أيضاً : شديد المحال ، شديد العذاب ، شديد العقاب ؛ سريع الحساب ، خير الوارثين ، خير الماكرين ، خير الحاكمين ، خير الناصرين ، خير الرازقين ؛ خير الراحمين ، خير المنزلين ، خير الفاتحين ؛ خير الغافرين ؛ وخير وأبقى ، أرحم الراحمين ، أحكم الحاكمين ؛ أسرع الحاسبين ؛ أحسن الخالقين ، أسرع مكراً ؛ ورفيع الدرجات .

وتدبر قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

ومما جاء فى السنة المطهرة من الأسماء الحسنى غير ما سبق : مقلب القلوب ، فقد روى البخارى « اكثر ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يحلف : لا ومقلب القلوب » .

وجميل : فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . قال « إن الله جميل يحب الجمال : الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

وسبوح قدوس : فقد روى مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان يقول فى ركوعه وسجوده « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » .

ومصرف القلوب : فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

والمقدم والمؤخر : فقد روى البخارى ومسلم عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى جدى وهزلى وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى ؛ اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير » .

وقد رويناه عن ابن عباس بهذه الصيغة « اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ؛ وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ؛ أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » .

و (وتر) : فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة قال « لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » .

هذا وإنى لأرجو أن تكون التسعة والتسعون اسماً التى ورد ذكرها فى الحديث الشريف والتى مَن أحصاها دخل الجنة ـ بين هذه الأسماء التى جلوتها عليك فإذا أحصيتها جميعاً كنت قد أحصيت من بينها التسعة والتسعين اسماً التى ذكرت فى الخبر بغير تعيين . فإذا قدرت هذه الأسماء وفهمت معانيها وتأملت مظاهرها فى الوجود وعرفت ربك بها وعبدته بمقتضاها كنت خليقاً أن تكون من أهل الجنة .

وقد آن أن نشرع فى شرح هذه الأسماء الحسنى وتوضيح معانيها وتقريبها للأذهان . فارعنى سمعك وفهمك وما توفيقى إلا بالله .

١ — الله جلّ جلاله

(الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ؛ ثم استوى على العرش ، وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجلٍ مسمى ، يُدَبِّر الأمر ، يفصلُ الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون) .

(الله يعلم ما تحملُ كلُّ أنثى وما تغيضُ الأرحام وما تزداد ، وكلُّ شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) .

(وهو الله لا إله إلا هو له الحمدُ فى الأولى والآخرة وله الحكمُ وإليه ترجعون) (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء . سبحانه وتعالى عما يشركون) .

(الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) .

وبعد : فلو بذل العلماء والكتاب والمفكرون أقصى ما يملكون من قوة وجهد لكى يدلوك على مدلول هذا اللفظ الجليل ما استطاعوا أن يأتوا بمثل ما فى هذه الآيات البينات وإن كان بعضهم لبعض ظهيرا .

تدبر الآيات السابقة تكشف لك عن بعض آياته فى الآفاق ، وفى الأنفس . وقد أودع رب العزة غرائز البشر استعداداً خاصاً للاعتقاد بوجوده ، وهو ما أشار تعالى إليه بقوله (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون) .

من أجل ذلك لا نجد إنساناً لا يشعر شعوراً قلبياً باطنياً بوجود قوة غيبية تتصرف فى الكون وتسير العالم وتدبر أمره . فالمؤمن الموحد يسمى هذه القوة (الله) والملحد يسميها الطبيعة أو الدهر . والجاهل ينسب بعض التصرف للأولياء أو الجن .

ولو عقل الملحد ، ولو علم الجاهل لأيقنوا جميعاً أن الأمر كله لله ، فهو وحده مدبر الكون ، وإليه ترجع الأمور . ألا له الخلق والأمر ؛ تبارك الله رب العالمين . ولقد كان الجاهليون فى جاهليتهم يقرون هذه الحقيقة ، ويعترفون بها ؛ والقرآن الكريم أعدل شاهد . قال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم (قل من يرزقكم من السماء والأرض ؛ أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . فقل أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال) .

وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) وقال تعالى (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله . قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون) .

فلقد كانوا بشهادة هذه الآيات ـ يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ، ولـكنهم ضلوا باعتقادهم أن هنالك آلهة أخرى تشفع عنده ؛ أو تقرب إليه زلفى : فخرجوا من حظيرة التوحيد إلى أوحال الشرك فباؤا بالخسران المبين .

ولا يكون العبد مسلماً إلا إذا شهد أن لا إله إلا الله . أى نفى الألوهية عن كل كائن فى الوجود سواه جل شأنه ؛ ولم ير فى هذا العالم شيئاً جديراً بأن يعبد إلا الله . ومخ العبادة الدعاء . فإذا دعا الإنسان غير الله أو فزع فى شدته إلى غير الله ، معتقداً أن لذلك المدعو المفزوع إليه قوة غيبية بها يسمع الداعى ويستجيب له . ويدفع عنه ، لم يكن بذلك مسلماً ، لأن فعله خالف قوله ، ولم تـكن شهادته إذعاناً فى الجنان بل نطقاً باللسان ، إذ معنى أشهد : أعلم وأبين ؛ والعلم هو الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل ، فالذى يشهد أن لا إله إلا الله يدرك إدراكاً جازماً يستطيع أن يقيم الدليل على صحته ، وذلك هو الواقع الذى قامت عليه الأدلة العقلية الصحيحة ؛ فمن زعم أنه يعتقد أن لا إله إلا الله ثم دعا غيره ، وفزع إلى سواه لم يكن اعتقاده صحيحاً فبطلت شهادته .

لقد كان العرب على الرغم من شركهم إذا حزبهم أمر أو نزلت بهم شدة فزعوا إلى الله وحده وضرعوا إليه ونسوا ما كانوا به يشركون . قال تعالى (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) وقال تعالى (وإذا مسكم الضرُّ فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البرِّ أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً) تلك كانت حال المشركين إذا انتابتهم الشدة ، أو نزل بهم المكروه نسوا آلهتهم الباطلة وفزعوا إلى الله مولاهم الحق .

وإنك تشعر بالحسرة تحز فى قلبك لو نظرت إلى ما عليه جهلة المسلمين فى هذه العصور ، فلا يكاد أحدهم يحس شدة تنزل به أو مكروهاً يغشاه حتى يهتف باسم شيخ أو ولى معتقداً أنه يسرع بإنقاذه أو إسعافه فيرتطم بذلك فى شرك هو شر من شرك الجاهلية الأولى .

وبعد فهذا للفظ الجليل (الله) علم على الذات الأقدس الواجب الوجود الخليق بكل حمد ؛ وقد اختلف اللغويون فى اشتقاقه اختلافاً كثيراً ، وذكر الفيروزابادى أنهم اختلفوا فيه على عشرين قولا . ورأى أن أصح الأقوال أنه علم غير مشتق ، وأن أصله إلاَه كفِعال بمعنى مألوه أى معبود .

هذا وهو يدل على الذات الأقدس بغير مراعاة صفة خاصة ، ولكنه مع هذا يشير إلى صفات الكمال جميعاً . وعندى أنه هو الاسم الأعظم الذى حار الناس فى الاهتداء إليه والوقوف عليه . إذ كل اسم من أسمائه الحسنى يدل على معنى خاص من معانى جلاله . أما هذا اللفظ فإنه يدل عليها جميعاً .

وقد حفظ الله هذا اللفظ الجليل عن إطلاقه على غيره تعالى فلم يطلقه الجاهليون على معبوداتهم الباطلة . ولكنهم أطلقوه على ربهم الحق سبحانه .

(٢ و ٣ الرحمن الرحيم)

اسمان من أسماء الله الحسنى اشتقاقهما من الرحمة ، والرحمة فى متعارف الناس شعور وجدانى باطنى ينشأ فى قلب الإنسان من إدراك ما يصيب غيرَه من مكروه .

وهو شعور بألم شفاؤه فى أمرين : سكب الدموع إن كان المكروه مما لا يمكن دفعه والمبادرة إلى دفعه إن كان ممكنا .

والرحمة موضعها القلب . دليل هذا ما رواه البخارى من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : أرسلت بنة النبى صلى الله عليه وسلم إليه : أن ابناً لى قُبض فأتنا ؛ فأرسل يقرىء السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكلٌّ عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب . فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها ، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال ، فرُفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبى ونفسه تتقعقع (قال حسبته أنه قال : كأنها شن) ففاضت عيناه . فقال

سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده . وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وما رواه من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : تقبّلون الصبيان ؟ فما نقبّلهم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أَوَ أملِكُ لكَ أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟ .

هذه رحمة المخلوق ، وهى كما رأيت : رقة وتعطف . وأما الخالق جل شأنه فهو منزه عن الجارحة والانفعال ، فرحمته إنعام وإفضال وإحسان . وقد فسر الرحمن بأنه المنعم بجلائل النعم كنعمة السمع أو نعمة البصر مثلا . وفسر الرحيم بأنه المنعم بدقائق النعم كحدة السمع أو حدة البصر مثلا . وهذا تفسير تحكمى لا يستند إلى نص من اللغة ولا من الكتاب ولا من السنة . وإذا استفتينا قواعد اللغة فى تفسير هذين الاسمين الجليلين رأينا صيغة فعلان تدل على الامتلاء من الشىء بغير أن ينتقل أثر ذلك الشىء إلى غير الموصوف به كشبعان مثلا فإنه وصف يدل على امتلاء المعدة بالطعام بغير أن ينتقل أثر هذا الشبع إلى غير الشبعان .

وعلى هذا فاسمه تعالى الرحمن يدل على الاتصاف بكثرة الرحمة بغير نظر إلى تعلقها بمرحوم ، فهو صفة الذات .

وأما الرحيم فيدل على كثرة من تناله الرحمة من خالقه فهو صفة فعل بدليل أنك تقول : الله رحيم بعباده أى أن أثر رحمته يعم عباده ، ولا تقول رحمن بعباده . قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) وقال تعالى (إنه بهم رءوف رحيم) فكأن الرحمن الوصف والرحيم الفعل . فالأول دال على أن الرحمة صفته تعالى ؛ والثانى دال على أنه تعالى يرحم خلقه برحمته ؛ فلا يمكن الاستغناء بأحد الاسمين عن الآخر ، وليس الثانى توكيداً للأول لأن لكل منهما معنى خاصًا .

ومما هو جدير بالالتفات أن اسمه تعالى الرحمن كثر وروده فى سور خاصة من القرآن الكريم ، فقد ذكر فى سورة مريم خمس عشرة مرة ؛ وفى سورة طه أربع مرات ،

وفى سورة الأنبياء أربع مرات ، وفى سورة الفرقان خمس مرات ، وفى سورة الزخرف سبع مرات ؛ وكلها سور مكية .

ومن المبشرات أن اسمه تعالى (الرحيم) ذكر مقارناً لاسمه تعالى الغفور ثلاثا وسبعين مرة ، وورد مع اسمه تعالى التواب تسع مرات ، ومع اسمه الرءوف ثمانى مرات ، ومع اسمه الرحمن أربع مرات (غير ما فى البسملة) ومع اسمه الودود مرة ، ومع اسمه البر مرة ، ومع اسمه الرب مرة .

هذا ومظاهر رحمة الله تعالى كثيرة ليس فى الوسع إحصاؤها ، ولكنا نورد منها ما يكون قرة للعين وطمأنينة للقلب وشفاء لما فى الصدور وبشرى للمؤمنين . قال تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ؛ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

بدأ تعالى فأخبر عن نفسه فى الآية الأولى بالوحدانية والرحمة ليبين للناس أن إلههم واحد وهو وحده الرحمن الرحيم ، فلا ينبغى أن يشركوا معه غيره إذ لا يتصف بهذه الرحمة الواسعة أحد سواه ، فكيف يعرض الناس عن أسباب رحمته اعتماداً على رحمة سواه ممن يظنون أنهم مقربون عنده ، أو حرصاً على عرض زائل من أعراض هذه الحياة الدنيا ، وأى رحمة أوسع من رحمة الله ؟ وأى موجود أرحم من الله فنلتمس رحمته ؟ .

لقد خسر الذين أعرضوا عن رحمة الله وراحوا يتلمسون فى الظلمات رحمة المخلوقين العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

روى البخارى من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قدم على النبى صلى الله عليه وسلم سبى ؛ فإذا امرأة من السبى قد تحلّب ثديها ، تسقى : إذا وجدت صبياً

فى السبى أخذته فألصقته ببطنها ، وأرضعته ؛ فقال لنا النبى صلى الله عليه وسلم : أترون هذه طارحة ولدها فى النار قلنا : لا ؛ وهى تقدر على أن لا تطرحه ، فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها .

وإذا كانت الرحمة فى قلوب الناس والحيوان والطير منذ خلق الله الخلق إلى أن يرث الأرض ومن عليها ـ جزءاً من مائة جزء من الرحمة العامة ، رحمة الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، فكيف يعرض العقلاء عن الرحمة المطلقة الشاملة الواسعة وينحطون إلى طلب الرحمة ممن هم فى أشد الحاجة إليها ؟ .

روى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

وإذا كانت الرحمة التى قسمت بين الخلق من أولهم إلى آخرهم من إنسان وحيوان وطير : جزءاً من مائة جزء ، فما نسبة الرحمة التى فى قلب فرد واحد من تلك الخلائق بالقياس إلى الرحمة العامة التى وسعت كل شىء ؟ .

وذكر تعالى فى الآية الثانية بعض مظاهر هذه الرحمة ؛ على سنة القرآن من ذكر الشىء ودليله ليقتنع أولو الألباب .

فأول ما ذكره تعالى من مظاهر رحمته : خلق السموات والأرض .

أجل ! هذا النظام المحكم الدقيق من أروع مظاهر الرحمة الالهية . انظر إلى هذه الأجرام التى بثها فى آفاق السماء بنظام وإحكام وجعلها متماسكة أشد التماسك لا يخرج شىء منها عن المدار الذى وضعه الله فيه ، إذ لو خرج شىء منها عن مداره لاصطدم بغيره ، فحدثت الطامة الكبرى ، وهلك هذا العالم وما فيه . قال تعالى (ويمسك السماء

أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم) .

أليس هذا من أروع مظاهر هذه الرحمة الإلهية التى ليس لها حد ولا نهاية ؟ .

وفى خلق الأرض آيات بينات تشهد بسعة هذه الرحمة التى وسعت كل شىء ، فلقد أرساها الرحمن الرحيم بالجبال ؛ وجعلها لها أوتاداً حتى لا تميد بساكنيها رحمة منه وفضلا ، وزودها بكل ما تقوم عليه حياة من استخلفهم فيها .

وفى اختلاف الليل والنهار من مظاهر الرحمة مالا يأتى على بيانه الوصف ، ففى تعاقب الليل والنهار وحلول كل منهما محل الآخر ما يعين الكائنات الحية على أن تراوح بين نومها ويقظتها ؛ وعملها وراحتها . ولو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لقضت برودة الليل الدائم وحرارة النهار الدائم على حياة الأحياء . قال تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ؛ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

وفى الفلك وسيرها على الماء تحمله من الناس والأنعام والمتاجر : آية بينة على الرحمة الإلهية التى ينعم بها بنو الإنسان ولكنهم عن سرها غافلون . هذه الجوارى فى البحر كالأعلام جعل لها الرحمن الرحيم مدبر الكائنات قانوناً خاصاً تجرى بمقتضاه ولو ألقى أصغر دسار من دسرها فى الماء لغاص فيه واستقر فى أعماقه ، ولكن رحمة الرحمن الرحيم جعلتها مع ضخامتها وامتداد أقطارها تمخر العباب ، لتيسر للناس سبل تواصلهم وانتقالهم من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر ؛ ومن قارة إلى أخرى أليس ذلك من أبهر آيات الرحمة الإلهية ! .

ثم تدبر هذا النظام العجيب الذى نظم حركة الماء ؛ فقد علم جل شأنه وبهرت قدرته

ووسعت رحمته أنه لا حياة للأرض وساكنيها إلا بالماء فجعل معظم سطحها مغموراً به ، وجعله ملحاً أجاجاً حتى لا يأسن ولا ينتن ، فيقضى فساده على حياة الأحياء ، ولكن الماء الملح لا يسقى زرعاً ولا يروى ظمأ ، فكيف ينتفع به ؟ .

سلط أشعة الشمس على هذه اللجج الواسعة التى تغمر جل الأرض فسخنت ، وبخرت وتصاعد بخارها إلى الأعالى ، وصار سحابا مسخراً بين السماء والأرض ؛ فأرسل إليه الريح تزجيه وتركمه وتسوقه إلى الأرض الجرز فيهطل مطراً غزيراً تحيا به الأرض بعد موتها ، وبه تجرى الأنهار ويخضر الزرع وتنبت الأشجار .

وإنه ليشير إلى هذا التدبير الحكيم الذى هو من أجل مظاهر الرحمة وأوضح آثارها بقوله الكريم (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قطنوا وينشر رحمته) وقوله (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها) .

ومن مظاهر الرحمة الإلهية هذه الدواب التى بثها فى الأرض لمنفعة الإنسان . وقد قال تعالى مشيراً إلى هذا الاكرام (والأنعام خلقها ؛ لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس أن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) .

كل هذه مظاهر رائعة من مظاهر الرحمة الإلهية إذا تدبرها المؤمن ووقف على أسرار الرحمة الإلهية منها زاد برحمة ربه إيماناً وبإحسانه يقيناً ، وبفضله ثقة فأقبل على ربه يرجوه ويخافه ويدعوه ويضرع إليه . وأعرض عن التماس العون من خلقه .

ومن مظاهر رحمة الله الواسعة أنه علم ضعف الإنسان وتحكم الغرائز والعادات

والبيئات فيه ، وخضوعه لأحكامها أحياناً ؛ وعجزه عن مقاومة الدوافع الغريزية إذا عظم سلطانها عليه ، واقترافه الآثام طوعاً لهذا العجز . ففتح له باب المتاب على مصراعيه ودعاه إلى التوبة ووعده العفو والمغفرة . قال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) وقال تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) وقال تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) .

ومن أبهر دلائل الرحمة أن الله تعالى إذا قبل توبة عبده إذا تاب بدل سيئاته حسنات . قال تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) .

ومن أبين آيات الرحمة الإلهية إرسال الرسل إلى الناس ليأخذوا بأيديهم إلى مراشدهم ويهدوهم صراط الخير والرشد ، فقد حبا الله الناس ألوانا من الهدايات : هداية الفطرة وهداية الحواس وهداية العقل ، فلو آخذهم بذنوبهم إذا انحرفوا عن صراط الفطرة وعطلوا هبات الأسماع والأبصار والأفئدة لم يكن ظالما لهم ولكن أبت رحمته إلا أن يرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين رحمة منه وفضلا . قال تعالى (إنا كنا مرسلين رحمة من ربك) وقد توج رسالات المرسلين برسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ليصلح به الإنسانية كلها ، وينقذ البشرية من الشرور التى تورطت فيها . قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ومن آيات رحمته تعالى إنزال الكتاب المبين ليكون رحمة عامة للانسانية كلها ، فهو يرسم طريق السعادة لمن شاء أن يكون سعيداً فى الدنيا والآخرة ويهدى الناس إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم وسعادتهم . ولذلك يقول تعالى (تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

وقال تعالى (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

ومن مظاهر رحمته تعالى إخباره نبيه عليه الصلاة والسلام بما أخبره به من أحوال الأمم السالفة ليكون ذلك شاهداً بصدق رسالته وهاديا لأمته . قال تعالى (وما كنت بجانب الطور إذ ناديفا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) .

ومنها إباحة المحظور للمضطر . قال تعالى بعد ذكر المحرمات (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) وقال تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) ومنها قبول أعمال العبد التى وقعت مخالفة لشرع جديد قبل نزوله . قال تعالى فى شأن صلاة الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم) .

ومنها إنجاؤه المؤمنين حين يأخذ الكافرين بالعذاب . قال تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) وقال تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ؛ إن ربك هو القوى العزيز) وقال تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) .

هذا وما من شىء فى الوجود إلا هو مغمور برحمة الله حتى الكفار أنفسهم ، فهم يغدون ويروحون فى رحمة الله ، وفى كل لحظة تفيض عليهم رحمات إلهية ، فهم يستمتعون بالحياة والصحة والعافية والقوة والجمال ، والمال والبنين ، ويتنسمون الهواء ويشربون الماء ، وغير ذلك من ألوان النعيم الذى يفيضه الله عليهم من رحمته العامة . أما رحمته الخاصة فهى وقف على المؤمنين . قال تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) .

الآن وقد عرف القارىء الكريم نفحات من رحمة الله التى لا يأتى عليها وصف الواصف ولا بيان المبين ؛ أرى لزاما علىّ أن أقول :

أيليق بالمؤمن أن يترك الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، ثم يفزع إلى مخلوق عاجز ضعيف هو مغمور برحمة الله ؛ يلتمس منه حاجته أو يستعينه على بلوغ مأرب أو يستدفع به مكروهاً ؟

أين أنتم من قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ؛ إن عذاب ربك كان محذورا)

سيقولون : اننا لا نسألهم حاجاتنا ولكننا نتخذهم وسائل الى الله ليستجيب لنا . قل إن رحمة الله ذاتية وهو ليس فى حاجة إلى من يستثير رحمته ؛ وهو لا يفعل أفعاله الحكيمة إلا بمقتضى حكمته البالغة . ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟ فأنى تصرفون وكيف تحكمون ؟

وما لكم لا تتوسلون إلى الله برحمته كما توسل الأنبياء وأتباع الأنبياء الذين نبأنا الله من أخبارهم . هذا سليمان بن داود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يقول فى دعائه كما حكى الله تعالى عنه (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)

وتدبر قوله تعالى (وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا . ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين)

هذا والسعيد من تعرض لنفحات هذه الرحمة القدسية واغترف من معينها بصالح العمل فقد قال تعالى (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعاً . إن رحمة الله قريب من المحسنين) نسأل الله أن يجعلنا أهلا لرحمته إنه ذو الفضل العظيم .

٤ — الملك

اشتقاقه من الملك وهو التصرف فى الجمهور بالأمر والنهى . والملك نوعان : ملك فعلى وهو التولى والتملك بالفعل ، ومنه قوله تعالى (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ،وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وملك استعدادى وهو الاستعداد لتولى الملك والقدرة عليه ، ومنه قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) أى جعل فيكم استعداداً للملك بحيث لو توليتم لكنتم أولى كفاية وحسن تصرف . وليس المراد أنه جعلهم جميعاً ملوكا بالفعل إذ ذلك ينافى الحكمة والواقع .

وقيل : إن الملك اسم لكل من يملك السياسة : إما فى نفسه وذلك بالتمكن من زمامها وكبح جماحها ، وصرفها عن هواها ؛ وإما فى غيره سواء عليه أتولى أم لم يتول .

وهذه المعانى توائم المخلوقين ولا توائم الخالق سبحانه ، ولكنها تشير إلى ما ينبغى أن يفهم من هذا الاسم الأحسن . فالمعنى المناسب لمالك الملك سبحانه فوق هذه المعانى جميعاً .

فمعنى الملك بالنسبة إلى الله تعالى هو المتصرف بالغيب فى السموات والأرض وما فيهن ؛ ومدبر أمر الدنيا والآخرة على مقتضى العلم والحكمة تدبيراً بغير نهاية ولا استعداد أمر . فلا يملك التصرف بالغيب فى الكون إلا الله وحده. فاذا لقيت انسانا ينسب التصرف بالغيب إلى غير مالك الملك فاعلم أنه من المشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر . فمن الشرك الظاهر أن يدعو إنسان أحد الموتى وهو يعتقد أنه يسمعه ويستجيب له ، ويدفع عنه الضر أو يجلب إليه الخير ؛ إذ لا يملك ذلك إلا الله وحده .

ومن الشرك الواضح أن يعتقد إنسان أن الأولياء يجتمعون ليلا فى بعض الأضرحة وعلى رأسهم السيدة زينب أو غيرها ويدبرون أمر هذا العالم ، فيولون من يولون ويعزلون من يعزلون ، فإذا انشق عمود الصباح نفذ ما دبروا .

وإذا كان مشركو الجاهلية يعتقدون أن تدبير الأمر الى الله وحده أفليس من أقبح السفه أن يعتقد مثل هذه الخرافة من ينتسبون إلى الإسلام ؟

وهذا كتاب الله تعالى تنطق آياته بالحق . قال تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون) ٣١ و٣٢ : يونس .

وتدبير أمر الآخرة إلى الله وحده ؛ فمن اعتقد أن شيخه يخرج مريديه من الجحيم فهو مشرك ، لأنه عزا إلى المخلوق ما لا يكون إلا للخالق سبحانه ؛ وإذا كان مالك الملك سبحانه قد نفى عن أحب الرسل اليه وأكرمهم عليه أن ينقذ من فى النار ، أفيليق أن ننسب ذلك إلى مخلوق أقل ما يقال فيه : أنه ليس بمعصوم ؛ واننا لا ندرى ما يفعل به . قال تعالى (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) ١٩ الزمر . فربنا سبحانه هو الملك الحق ، لأن سلطانه أحاط بكل شىء ، وشمل كل شىء ، ولم يخرج عنه شىء ، ولأن ملكه لا ينتهى ولا يحد ، ولأن جميع تصرفاته حكيمة لا يتطرق إليها فساد ، ولأنه لا يستمد الأمر والسلطان من غيره ؛ بل له مقاليد السموات والأرض ؛ بيده ملكوت كل شىء ، وإن من شىء إلا عنده خزائنه ؛ وما ينزله إلا بقدر معلوم .

أما ملوك الأرض فملكهم ظل زائل ؛ وعارية مستردة ، وهم مهددون بزواله ، أو بزوالهم عنه ، وهم فى قبضة الملك سبحانه إن شاء أعطاهم وإن شاء حرمهم ، لا معقب لحكمه . قال تعالى (قل اللهم مالك الملك : تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الملك إنك على كل شىء قدير) ٢٦ آل عمران .

ومهما تتسع أملاكهم الزائلة فلن تتجاوز رقعة الأرض وأين الأرض من هذا العالم الفساح الذى لا تأنى العقول على حدوده ، ولا تصل المدارك إلى غاياته ؟

يقول الله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وأريد أن أجلو على القارىء الكريم صفحة من صفحات هذا الملكوت لتتجلى له ناحية من نواحى هذا الملك الفسيح الذى تضل فى اتساع مداه الظنون .

هذه الأرض التى نعيش عليها جزء من ألف ألف وثلثمائة ألف جزء من الشمس أى لو أن الشمس قسمت الى أجزاء صغيرة كل جزء منها قدر الأرض لنشأ منها أرضون بالقدر الذى ذكرنا .

والمسافة التى بيننا وبين الشمس تقدر بثلاثة وتسعين ألف ألف ميل ، ويصل إلينا ضوؤها فى ثمانى دقائق وربع دقيقة ؛ فاذا علمت أن سرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية فملك تستطيع أن تحسب المسافة التى بيننا وبين مجموعة نجمية يصل ضوؤها الى الأرض فى ٣٣٠٠٠ سنة ، وأن تحسب المسافة التى بيننا وبين بعض السدائم أو الجزر الكونية التى يصل إلينا نورها فى ٩٠٠٠٠٠ سنة

أرسل رائد الفكر فى هذه الأبعاد السحيقة لتستطيع أن تدرك مدى أبعاد إقليم واحد من أقاليم هذه المملكة الإلهية ، ليقل طمعك فى المخلوق ويعظم رجاؤك فى مالك الملك ذى العزة والجلال .

ومهما يمتد الزمان بملوك الأرض فلن يتجاوز ملكهم قرناً من الزمان ؛ وأين هذا الملك المحدود من ملك لا أول له ولا آخر ، لا مبدأ له ولا نهاية ، يجمع بين أزل الزمان وأبده ، بل يسبق الأزل ويبقى بعد الأبد ، وستتقلص ظلال هذه الممالك ويبقى الملك لله وحده . قال تعالى (الملك يومئذ لله ؛ يحكم بينهم ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) وقال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) وقال (قوله الحق وله الملك ، يوم ينفخ فى الصور)

وروى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك فأين ملوك الأرض ؟ »

تعالى الله الملك الحق ! ورغما لمعاطس قوم يتركونه إلى مخلوق حقير لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض يفزعون اليه فى الملمات ؛ ويضرعون اليه فى قضاء الحاجات وهم عن ملك ربهم الواسع العظيم معرضون .

إذا فتح ملك من ملوك الأرض أبواب قصره لشعبه ثم أمر مناديا ينادى فى الناس : إن أبواب قصرى مفتحة على مصاريعها ؛ لا يرد عنها طالب حاجة ، فمن كانت له حاجة فليرفعها إلىّ فانى زعيم بقضائها ، أفليس من الخرق وسفاهة العقل أن يرفع أحد الرعية حاجته إلى السوقة وينصرف عن الملك العظيم وأبوابه منه قريبة .

ألا يرى الملك أن الذى يفعل ذلك مكذب له أو منكر لفضله ؟ ثم ألا يكون موضع سخطه ونقمته ؟ .

فكيف بملك الملوك الذى بيده خزائن السموات والأرض . والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ؟

فليعتبر بهذا أولئك الغافلون الذين تقصر همتهم عن طرق أبواب الملك الحق ، وينزلون حاجاتهم بواد غير ذى زرع . قال تعالى (إن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وقال تعالى (ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض . وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن وأن هم ألا يخرصون) وقال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك ؛ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل خبير) .

فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

عجبا للذين تعدو أعينهم عن خزائن الملك الكريم الوهاب ثم يعمدون إلى المخلوقين الذين أحضرت أنفسهم الشح يسألونهم مالا يملكون والله تعالى يقول (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الانفاق وكان الإنسان قتورا) .

فلم تسأل الإنسان الكز الشحيح القتور ، وتغفل عن ربك الملك الكريم الوهاب الذى لو وقف الخلق جميعاً إنسهم وجنهم . أولهم وآخرهم فى صعيد واحد ثم سألوه فأعطى كلا منهم سؤله ما نقص من ملكه ألا ما ينقص من البحر إذا همس فيه المخيط .

ألا قليلا من التبصر أيها الناس تقفوا على الحق وتهتدوا إليه ! ! .

وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون .

٥ — القدوس

« القدس » جبل عظيم بنجد . و « قدس » الأبيض و « قدس» الأسود : جبلان و « القداس » شيء كالجمان من الفضة . والحجر ينصب على مصب الماء فى الحوض ، والمنيع الضخم من الشرف ؛ و « القديس » الدر .

إذا تأملت هذه المادة فى معانيها المختلفة وجدتها تدل على العلو والعظامة والطهارة والشرف وسمو المنزلة : فالجبل العظيم ينحدر عليه السيل فيغسله ويطهره ، والشيء الذى كالجمان من الفضة أبيض لامع صقيل ، والحجر الذى ينصب على مصب الماء فى الحوض لا يزال نقياً نظيفا طاهراً بدوام انسكاب الماء عليه ، والدر شيء لامع رفيع القدر .. ومن هذه المعانى الحسية أخذت المعانى المعنوية وهى الشرف والرفعة والطهر .

فالقدْس والقدُس : الطهارة والبراءة من العيوب . والتقديس : التطهير . ومنه الحديث الشريف « لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها » أى لا طهرت

والأرض المقدسة أى المطهرة ، وسمى جبريل روح القدس ؛ لأنه ينزل بالقدس من الله تعالى . أى ما يطهر النفوس — من القرآن والحكمة والتوفيق الإلهى . وحظيرة القدس هى الجنة لأنها دار المطهرين .

وتدبرك لهذه المعانى جميعاً يقرب إلى ذهنك معنى اسم الله تعالى « القدوس » .

فالقدوس اسم من أسمائه تعالى الحسنى ؛ لا يطلق على غيره حقيقة ولا مجازا . ومعناه الطاهر المبرأ من جميع النقائص ، المنزه عن جميع الشوائب والعيوب ، وصيغته من أبنية المبالغة ؛ ومن أذكاره صلى الله عليه وسلم «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» تنزه ربنا سبحانه عن كل نقص ذاتا وصفات وأفعالا .

فذاته الأقدس مبرأ مما يعترى المخلوقين من شوائب النقص جميعاً ؛ فلا يلحقه موت ولا فناء ؛ ولا تعب ولا إعياء ؛ ولا سنة ولا نوم ولا إغماء ، كما أنه منزه عن مشابهة المخلوقين . قال تعالى (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) .

وصفاته العلا وأفعاله الحكيمة مبرأة من كل نقص كذلك ، فعلمه محيط بكل شىء وقدرته لا يعجزها شىء ، وإرادته لا مسيطر عليها ولا رقيب ، ومشيئته نافذة فى ملكوته . قال تعالى (إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وقال (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير) وقال (والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) وقال (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ؛ لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) (وما كان ربك نسيا) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

والإيمان بقدوسيته تعالى يقتضينا أن ندعوه وحده ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى

مساعد ولا معين . وأن لا نتوسل إليه بذوات المخلوقين ، لأن إرادته نافذة لا ترد ؛ ومشيئته ماضية لا تصد ، وليس كالملوك والكبراء الذين تعبث نساؤهم وحظاياهم وحجابهم وبطانتهم بإرادتهم ، فينزلونهم على حكمهم ويصدونهم عما يريدون ؛ ويحملونهم على مالا يريدون . تعالى ربنا عن كل هذا ، بل هو الملك القدوس المنزه عن جميع العيوب ، فلا يتقرب إليه إلا بطاعته ، ولا يتوسل إليه إلا بعبادته ، وفى الحديث القدسى « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ما افترضت عليه » .

فلنؤمن بقدوسية الله ولنعبده بما يوائم هذه القدوسية ليستجيب لنا إذا دعوناه ، ويرحمنا إذا استرحمناه ، ويعيننا إذا استعناه ، ويغثنا إذا استغثناه .

وليس معنى هذا : أنه يغيِّر إرادته أو يبدل كلمته من أجلنا . ولكن معناه أنه جعل لهذا العالم نواميس وربط أسبابها بمسبباتها ، ومقدماتها بنتائجها . فاذا أخذنا بالأسباب أنتجت حتما مسبباتها ، وإذا أخذنا بالمقدمات ظفرنا بالنتائج ، فمن زرع حصد ، ومن جدّ وجد . قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب) وقال (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقال (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله : إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة ؛ هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون)

لقد أنكر قدوسية الله من ظن أن الوسطاء والشفعاء يغيرون إرادة الله ويحملونه على أن يفعل ما لا يريد أن يفعل ، أو على أن يمتنع عن فعل ما كان يريد أن يفعل ، كما يدل عليه ضربهم الأمثال لله فى ذلك بالعظماء والمقربين لديهم — تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . قال تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) وقال (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) .

سبحانك يا ملك يا قدوس ، ما قدرك حق قدرك ، ولا عرف حقيقة أسمائك وصفاتك من ظن بك ظن السوء ، وزعم أنك تغير وتبدل حسب مشيئة الناس لا حسب مشيئتك ، وطوع إرادة الخلق لا تنفيذاً لإرادتك ؛ وانك تقضى فى خلقك بأهواء الشفعاء والموتى لا بعلمك وحكمتك .

ومما ينافى الإيمان بقدسية الله تعالى : الابتداع فى دين الله ؛ لأن المبتدع يقول بلسان حاله — إن لم يقل بلسان مقاله — : إن الله أنزل دينا ناقصاً وهاأنذا بذكائى وعلمى أكمله ، وشرع شرعا يعوزه الكمال وأنا برأيى الثاقب أتممه . . وحاش لله أن يكون دينه ناقصا أو شرعه غير واف بحاجة الأنام وهو القائل (اليوم أكملت لكم دينكم ؛ وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وهو القائل مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم) وقد بين صلى الله عليه وسلم أتم بيان ، وقد صدق صلى الله عليه وسلم إذ يقول « ما تركت من شىء يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا أمرتكم به . وما تركت من شىء يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه » .

فماذا أبقى الله ورسوله من التشريع الحكيم والبيان التام لهؤلاء المفتونين المبتدعين ؟ .

نسأل الله لنا السلامة ، ولهم الهداية والتوفيق .

٦ — السلام

تطلق العرب كلمة السلام على عدة معان : منها الاسم من التسليم ؛ الذى هو تحية المؤمنين ، فإذا لقى المؤمن أخاه فقال له : السلام عليكم . قيل إنه قرأ عليه السلام ، وهو تحية مباركة طيبة . قيل إن معناها : سلمت منى فاجعلنى أسلم منك . وقيل إن معناها اسم الله عليك ، وذلك أن اسم الله تعالى يذكر على الأعمال توقعاً لاجتماع معانى الخير فيها ،

وانتفاء عوارض الفساد عنها . وقيل إن معناها : أعيذك بالله وأحصنك به من كل مايسوء ويؤلم . وقيل : إن معناه أدعو لك بالأمان من كل ما يؤذى .

وهو تحية المؤمنين كذلك فى دار السلام . قال تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) . وقال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) وتلك التحيـــة من الله تعالى ، وقد تـكون من الملائـكة للمؤمنين عند دخول الجنة كما قال تعالى (وقال لهم خزَنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون : سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) كما تكون فى كل وقت يدخلون عليهم فيه ، قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وتـكون من بعض المؤمنين لبعض دلالة على توادهم وتحابهم وسلامة صدورهم من الغل . قال تعالى : (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) وقال تعالى (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) .

ومن هذه المعانى : أنها نوع من الشجر ؛ ومما يتندر به من جفاء الأعراب ـ مما يناسب هذا المعنى ـ أن رجلا قال لأعرابى : السلام عليك . فقال الأعرابى : الجثجات عليك . فقال الرجل : ما هـــكذا يكون الرد . قال هما شجران مران ، أنت جعلت علىّ واحداً منهما ، وأنا جعلت عليك الآخر .. ويطلقونها كذلك على الاستسلام ، وعلى البراءة من العيوب والسلامة من الآفات .

فبأى هذه المعانى يفسر الاسم الـكريم ؟

أمْثل ما يفسر به الاسم الـكريم أنه مأخوذ من المعنى الأخير وهو البراءة من العيوب ؛ والسلامة من النقص .

وهو فى الأصل مصدر سلم يسلم سلامة وسلاما ، أى خلا من العيوب والنقائص ؛ سمى الله به نفسه مبالغة فى كمال تنزيهه وسلامته من العيوب والنقائص والآفات التى تلحق الخلق ولـكنها لا تليق برب العالمين .

وقد جاء هذا الاسم الكريم فى القرآن الكريم فى آخر سورة الحشر فى قوله (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) .

وجاء فى السنة المطهرة كذلك ؛ فقد روى البخارى من حديث عبد الله بن مسعود قال « كنا إذا كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات ؛ السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ؛ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح فى السماء والأرض ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا ثم قال « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والاكرام » وكان صلى الله عليه وسلم إذا شاهد البيت الحرام يقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام » .

فالله سبحانه وتعالى هو السلام ، أى الذى لا تلحقه العيوب ولا النقائص ولا الآفات ، ولا يلم به موت ولا فناء ، ولا مرض ولا فتور ، ولا غفلة ولا سهو ، ولا نسيان ، ولا يصيب صفة من صفاته نقص ولا عيب . فعلمه لا يحجب دونه شىء ؛ وسمعه لا يغيب عنه مسموع ، وبصره لا يغيب عنه مبصر ؛ وغناه لا يمسه فقر ، وعزته لا تصيبها ذلة ، ولا يغلب على أمره ، أو يصرف عن شىء يريده .

وقد ألحد فى أسماء الله ، وأنكر اسمه تعالى « السلام » من زعم أن الله تعالى يغير مشيئته ويبدل كلمته من أجل مخلوق يتوسل بذاته إليه أو يقسم به عليه ، أو يستشفع به إليه ، فهو سبحانه السلام الذى تنزه عن نقص العبث واللعب ، لا مبدّل لكلماته ولا معقب لأمره ، ولا كاشف لضر أراده إلا هو ، ولا راد لفضله .

يا عجباً لهؤلاء الناس ! لا أدرى كيف يفكرون ، ولا كيف يحكمون ؟ كيف يظنون

بربهم ظن السوء فيشبهونه بامرأة حمقاء تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، أو برئيس أخرق لا يعمل ما تقتضيه الحكمة والرشد ، بل ما يتطلبه الوسطاء والشفعاء .

يا قوم أين عزب عنكم الرشد ؟ تعيبون هذا على المخلوق وترضونه للخالق .

اذكروا يا قوم أن نظام هذا العالم المحكم العجيب مظاهر لأسمائه تعالى وصفاته ، أليس هذا العالم الذى سلم من العبث والخلل فى نظامه وحركته وقوانين أرضه وسمائه مظهراً لاسمه تعالى السلام ؟

تدبر نظام الشمس والقمر فى شروقهما وغروبهما ، وتدبر نظام الأفلاك والنجوم والكواكب ، وتدبر نظام الرياح والأمطار والنبات ، وغير ذلك من آيات الله فى الآفاق تدرك أن كل ذلك برىء من الخلل ، إنما هى مظاهر لاسمه تعالى السلام .

هذا ومن الجائز أن نجعل المصدر بمعنى اسم الفاعل ، فالله سبحانه هو السلام أى المسلّم أى الذى يملك أن يهب السلامة والنجاة لمن شاء من عباده ، كما قال تعالى (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم) ولعل فى قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم أنت السلام ومنك السلام » ما يؤيد هذا الرأى . أى أن السلامة لا تكون إلا منك ، فمن كان يرجو السلامة من الآفات والنجاة من البلاء فلا ينبغى أن يفزع إلا إلى رب السلام سبحانه .

وتفسير السلام بهذا المعنى أيضاً يدفع فى صدور هؤلاء الذين يستغيثون غير ربهم ويلتمسون من المخلوقين النجدة والمعونة ، والله يقول لنبيه الذى هو أفضل خلقه (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً) فمن طلب السلامة والنجاة فليطلبهما من الله السلام بالإيمان فقد قال تعالى فى كتابه الكريم) ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين) .

قال أحد المخدولين فى مجلس حافل : سقطت ذات مرة فى بئر ، وأشرفت على الغرق ، وصرت أبحث عن مرقاة أرتقى عليها فلا أهتدى ، فلما ضقت بالأمر ذرعا ،

ويئست من النجاة ، هتفت من أعماق صدرى : يا سيدى يا بدوى ، فلم أكد أفرغ من النطق بهذا الهتاف حتى كانت يدى فى المرقاة . فلن أنسى فضل السيد البدوى علىّ مادمت حياً ! !

ألا تعجبون لهذا المخذول الذى يعتقد أن البدوى سمع نداءه ثم جاءه ، ووضع يده فى المرقاة وسلمه من الغرق ! وإذا لم يكن هذا شركا فماذا عسى الشرك أن يكون ؟

ومن بواعث الأسى أن هذه العقيدة تكاد تكون عقيدة السواد الأعظم من عامة المصريين الذين يشركون هذا البدوى فى جواميسهم وأبقارهم وكباشهم وعجولهم ، بل وفى أموالهم وأبنائهم ، فلولا أنهم يعتقدون أنه يقدر على نفعهم وضرهم ما بذلوا له من ذات أيديهم ما بذلوا . وأرى أنه لا سلاة لهذا الشعب الجاهل من هذا الشرك إلا أن يسلط معول الهدم على هذا الوثن وأمثاله كما سلط رسول الله المعاول على اللات والعزى وغيرهما حتى جعل هياكلها أنقاضاً ، وأراح منها الأرض وأهلها

اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فسلمنا من شطط العقول وزلل الأفهام .

٧ — المؤمن

« المؤمن » اسم فاعل ، من آمن يؤمن فهو مؤمن . إذا صدق تصديق وثوق واطمئنان قال تعالى فيما حكاه عن إخوة يوسف عليه السلام : (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ؛ وما أنت بمؤمن لنا ، ولو كنا صادقين) أى ما أنت بمصدق لنا ولا واثق من قولنا ولا مطمئن له : وقال تعالى (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) أى فما صدق مطمئنا واثقا .

وعلى هذا يمكن أن يفسر اسمه تعالى (المؤمن) بالمصدق .

فالله تعالى مؤمن أى مصدق لنفسه ، أى دافع أولى الألباب إلى التصديق بوجوده ووحدانيته بما أودع غرائز البشر من الاستعداد للاعتراف بوجوده ، والإقرار بربوبيته ،

مصداق ذلك قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا)

وانما تظهر آثار هذه الغريزة واضحة أشد الوضوح ، جلية أبين الجلاء ، إذا حزب الإنسان أمر من الأمور الحازبة التى تجعله يعترف بعجزه ويقر بضعفه ، ويشهد بحاجته إلى قوة يفزع إليها لكشف ضره وتفريج كربه ؛ حتى أكثر الناس إلحاداً وأشدهم إغراقا فى الجحود ، وإسرافا فى الإنكار . يبرز الضعف ما استقر فى أعماق نفسه من آثار هذه الغريزة التى أودعه الله إياها ، فنجده إذا تحرجت الأمور واشتدت الكروب واستحكمت حلقات اليأس : يضرع إلى الله تعالى فى كشف الضر وتفريج الكروب .

ولقد نبأنا الله من أخبار المشركين الذين كانوا إذا مسهم الضر نسوا ما كانوا به مشركين وفزعوا إلى الله رب العالمين ، ودعوه مخلصين له الدين ، قال تعالى (١٧ : ٦٧ وإذا مسكم الضر فى البحر ضلّ من تدعون إلا إياه ؛ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) وقال تعالى (٢٩ : ٦٥ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) (وقال (٤١ : ٦ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة : أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) .

وهو تعالى جده مصدق لنفسه كذلك بما أقام من الآيات فى الأنفس والآفاق ، وما نصب من الدلائل والشواهد التى لو تدبرها الغافلون لصدقوا بأن لهذا الوجود خالقا حكيما دبر هذا الكون على أتم نظام وأبلغ إحكام . قال تعالى (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه لى كل شىء شهيد) .

وهو سبحانه « المؤمن » أى المصدق لنفسه بما ضرب من الأمثال لإثبات وحدانيته هذه الأمثال التى لو تدبرها المتدبرون لشفت صدورهم ؛ وأزاحت علتهم ، وأقنعتهم بأن

ربهم واحد لا شريك له ؛ فآمنوا بوحدانيته إيماناً تطمئن به القلوب ، وتثلج به الصدور قال تعالى (٣٩ : ٢٩ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم . كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) وقال تعالى (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَل على مولاه ؛ أينما يوجهه لا يأت بخير ؛ هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) وقال تعالى (آلله خير أم ما يشركون ؟ أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ؛ وجعل لها رواسى ؛ وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ؛ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

فبهذه الآيات القرآنية التى تفتح العيون وتنبه الأذهان إلى الآيات الكونية التى يراها الناس فى الآفاق والأنفس — يصدق الله تعالى نفسه ، أى يجعل الذين ينظرون إليها نظر تفكر وتدبر لا يجدون بداً من التصديق بعظمة هذا الخالق وفضله ووحدانيته بما يجدون فى أنفسهم من العلم الضرورى الناشىء من التدبر .

وهو تعالى «المؤمن» أى المصدق لنفسه فى إخباره بالبعث والنشور بما وجه الأذهان إليه من الأدلة المقنعة والحجج القاطعة التى لا يرتاب فى صدقها إلا مدخول قال تعالى

(٣٦:٧٨ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال من يحيي العظام وهي رميم ٧٩ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ٨٠ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ٨١ أو أليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) .

فهو تبارك اسمه « المؤمن » أى الباعث إلى الإيمان بوجوده ووحدانيته وأخباره الغيبية بما أقام من أسباب الإيمان وما أوجد من بواعثه .

وهو تعالى جده « المؤمن » أى المصدق لرسله بما أجرى على أيديهم من الخوارق والآيات التى تقوم مقام قوله تعالى : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى . وهذه الآيات التى أجريتها على يديه دليل صدقه ؛ إذ لو كان كاذبا ما أيدته بهذه المعجزات التى ليست فى وسع بشر . وقد قص الله تعالى علينا فى القرآن الكريم أنباء بعض الآيات التى صدق بها رسله ؛ فقال تعالى فى شأن صالح عليه السلام (قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب ، إن فى ذلك لآية) وقال تعالى فى شأن شعيب وقومه (قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا ؛ وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم . إن فى ذلك لآية) وقال تعالى فى شأن موسى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا . فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً) وقال تعالى فى شأن آية خاتم

النبيين عليه الصلاة والسلام (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ؛ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ ناديا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بجانب الطور يوم اصطفى الله موسى على الناس برسالاته وبكلامه ، وما كان مقيما فى أهل مدين يشاهد ما كان بينهم وبين شعيب ولكن الله تعالى أخبره بما كان من الأمر ؛ ونبأه من أخبارهم ليكون ذلك آية بينة تشهد بصدق رسالته ، فالله تعالى صدّقه باخباره بهذه الغيوب أى أيده بهذه بآية تحمل الناس على تصديقه والإيمان برسالته .

وقال تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وقال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) .

فهذه الشواهد تثبت أن الله تعالى يصدق رسله أى يشهد لهم بالصدق بما يجريه على أيديهم من الخوارق والآيات التى لا قبل لأحد من الخلق بأن يأتى بمثلها .

فهو تعالى المؤمن أى المصدّق لرسله والمؤيد لهم بالمعجزات تصديقا لهم ليؤمن الناس برسالتهم ويصدقوهم .

وكذلك هو المؤمن أى المصدق عباده المؤمنين يوم القيامة إذا سئلت الأمم عن تبليغ رسلهم : قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

هذا ويحتمل أن يكون المؤمن بمعنى واهب الأمن والطمأنينة ؛ ومذهب الخوف .

قال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) فقد آمن سبحانه خلقه من الظلم . قال تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئا) وقال (وما ربك بظلام للعبيد) .

وآمن أولياءه عذابه كما قال (ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)

وآمن خلقه أن تتحول سنته أو تتبدل كلمته (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وقال (لا مبدّل لكلماته) فنواميس هذا العالم ثابتة لا يعتريها تغير ، وقوانين هذا الوجود مستقرة لا يمسها تحول ؛ فالمقدمات الصحيحة تفضى إلى نتائجها ، والأسباب الصحيحة تنتج مسبباتها .

وقد آمن تعالى خلقه أن يخلف وعده فقال (إن الله لا يخلف الميعاد — ومن أوفى بعهده من الله ؟ (وقد آمن تعالى رسله أن يخلف وعده لهم بالنصر . قال تعالى (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) وآمن المؤمنين من الخذلان فقال (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وقال ولينصرن الله من ينصره . وآمنهم أن يجعل للكافرين عليهم سبيلا فقال ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وآمنهم من عذاب النار فقال إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ؛ أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

وقد آمن المؤمنين أن يضيع أجورهم فقال إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . وقال : فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .

وقد آمن التائبين أن ينالهم بعذاب فقال : كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم .

إذا تدبرت ماجلوت عليك من هذه الآيات البينات — تبين لك إن تفسير اسمه تعالى المؤمن بهذا المعنى تفسير صحيح لا غبار عليه . وتبين لك أيضاً أنه لا محل للوسطاء الذين يتوسل الجاهلون بأشخاصهم إلى ربهم ، فقد آمن سبحانه عباده ولم يحوجهم إلى من يلتمس لهم منه الأمان ؛ وإنما يحتاج الناس إلى من يلتمس لهم الأمان إذا كانوا أمام سلطان جائر أو ملك ظالم . أما ربك فهو الغفور الرحيم .

اللهم إنا نعوذ بك من الضلال بعد الهدى ؛ ومن السفه بعد الرشد

٨ — المهيمن

ذكرت هذه الكلمة الطيبة فى القرآن الكريم مرتين : جاءت مرة اسماً لله تعالى فى قوله جل شأنه (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن) وجاءت أخرى صفة للكتاب العزيز فى قوله تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه)

وقد اختلف القدامى من علماء اللغة فى تفسيرها . فقال فريق : معناها الرقيب الحافظ . فالكتاب الكريم رقيب على الكتب السماوية يرد ما حُرف من كلمها إلى مواضعه ، ويحفظ ما تضمنت من حقائق الدين وأصوله أن يعبث به العابثون طوعا للأهواء ؛ ويشهد لها بالصحة ؛ ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأيد من فروعها

والله تعالى مهيمن على هذا العالم أى رقيب على أعمال العباد يحاسبهم بها ، وحافظ على كل نفس كما قال تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) كما أنه حافظ لنظام العالم البديع أن يتسرب إليه خلل أو يمسه فساد

وقال فريق : إن معناها « الشاهد » فالكتاب العزيز شاهد على الكتب السماوية بأنها حق ، والله تعالى شاهد لنفسه بالوحدانية ؛ كما قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو) وهو كذلك على كل شىء شهيد .

واستدل هؤلاء بقول عمر رضى الله عنه فى بعض خطبه : انى متكلم بكلمات فهيمنوا عليهن أى اشهدوا . وبقول العباس :

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف عليـاء تحتهـا النطق

أى بيتك الشاهد بشرفك .

وقال بعضهم فى تفسير اسم الله « المهيمن » : هو القائم على خلقه ؛ واستدلوا بقول الشاعر

ألا إن خـير الناس بعد نبيـه مهيمنه التاليه فى العرف والنـكر

أى أن خير الناس فى هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القائم على الناس بالأمر والنهى ، وهو الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذى تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالله سبحانه مهيمن أى قائم على أمور الخلق وعلى رعاية هذا العالم وحفظه

هذا . وأرى أن كل فريق من هؤلاء العلماء نظر إلى الـكلمة من جهة واحدة من جهاتها ، ولو نظروا إليها من جهاتها جميعاً لفسروها بمعناها الـكامل الشامل الذى يبين حقيقة المراد منها كل البيان .

ولإصابة هذا الهدف يجب أن نرجع إلى معناها المـادى الذى هو الأصل الذى أخذت منه سائر المعانى .

فأصل هذه الـكلمة من هيمن الطائر إذا رفرف على فراخه . وعلينا أن نقف قليلا عند هذا المعنى لندرك معنى رفرفة الطائر على فراخه ؛ فالطائر الذى يرفرف على فراخه يحوطها ويرعاها ويعنى بها ، ويحافظ عليها ، ويحرسها من عدوها ، ويدفع عنها جوارح الطير وكواسر الوحش ، ويذود عنها الأذى ، ويمنعها أن تخرج من عشاشها إلى مواطن الهلـكة ، ويكفل لها أرزاقها . وعلى ضوء هذا المعنى نستطيع أن ندرك معنى اسمه تعالى المهيمن . فهو الذى يقوم على خلقه ويرعاهم ويحفظهم ويرسم لهم الحدود التى تـكون سلامتهم فى الوقوف عندها ، وهلا كهم فى تعديها ؛ وذلك بانزال الشرائع التى تهدى الناس إلى مافيه سعادتهم . وهو الذى يتـكفل بأرزاقهم ، ويراقبهم ، ويحكم فى أمرهم .

وعليك أن تتصور هذه المعانى على أتم وجوهها ، وأكمل صورها ، بمعنى أن ما عند الله منها ليس كمثله شيء مما عند المخلوقين .

ولأبسط لك بعض هذه المعانى شيئا من البسط يكون رائداً يقفوه الفكر منتجعاً سائرها لتزداد بربك إيماناً وبهيمنته يقينا :

المهيمن هو الذى يقوم برعاية خلقه وحفظهم إلى أجل مسمى . ينام الإنسان والحيوان والطير ملء جفونهم غافلين عن أنفسهم ، وربهم يرعاهم ويحرك أعضاء التنفس ، ويبعث القلب على أن ينبض نبضات متناسقة ، يبعث بها الدم فى الشرايين ليغذو الجسم ، وفى الأوردة ليعود إلى القلب ويخرج منه إلى الرئتين ليصلح منه ما يفسد ؛ وينقى ما تلوث ، وينبه الغدد المفرزة لتجدد بعصاراتها اللازمة لحياة الجسم أو نموه ، أو هضم غذائه أو القيام بوظائفه الحيوية على مقتضى نواميس دقيقة وقوانيين محكمة ؛ وضعها المهيمن العزيز وهو الذى يقوم على خلق الأجنة فى بطون أمهاتها خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . يحيل التراب غذاء والغذاء دما ، والدم نطفة والنطفة علقة ، والعلقة مضغة والمضغة عظاما ؛ ثم يكسو العظام لحما ثم ينشئه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . وهو الذى يكفل للأحياء أرزاقهم كما قال تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) وهو العليم بأحوالهم فى سرهم وعلنهم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ثم يحكم فى أمرهم بمقتضى علمه ورحمته ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين .

هذا ومن مظاهر هيمنته تعالى على خلقه أنه لم يترك عباده سدى ولم يدعهم هملا ، بل وضع لهم الشرائع التى تنظم سلوكهم ، وترسم لهم الحدود التى لا ينبغى لهم أن يتجاوزوها فى أعمالهم ومعاملاتهم ، وبين لهم مصايرهم إن أحسنوا ؛ وعاقبة أمرهم إن أساؤا . وقد استأثر الله بهذا التشريع ولم يجعله لأحد من خلقه مهما ترسخ قدمه فى الدين ، ومهما علا كعبه فى التقوى ، وجعل المرسلين مبشرين ومنذرين ، وليس لهم من أمر التشريع إلا التبليغ كما قال تعالى (إن عليك إلا البلاغ) فما عليهم إلا أن يبلغوا

ما أنزل إليهم من ربهم ، وأن يبينوا لهم ما خفى عليهم أمره بالسنة العملية كما قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) فلا يملك أحد من الخلق أن يحلل أو يحرم . فإذا ادعى مدع لنفسه حق التحليل والتحريم فقد أعظم الفرية على الله ، ونازعه رداء الهيمنة على الخلق ، وإن استجاب أحد لهذا المدعى كان من المشركين .

روى الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وبن مردويه والبيهقى وغيرهم عن عدى ابن حاتم قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ فى سورة براءة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

وقال الرازى نقلا عن شيخه قال : شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات ، فلم يقبلوا تلك الآيات ، ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلىّ كالمتعجبين وكأنهم يقولون : كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها ؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا .

وقال السيد حسن صديق فى تفسيره (فتح البيان فى مقاصد القرآن)ما نصه :

« وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله ، وايثار ما يقوله الأسلاف على مافى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص ، وقامت به حجج الله وبراهينه ، ونطقت به كتبه وأنبياؤه : هو اتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله . للقطع بأنهم لم يعبدوهم ، بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا ، وحللوا ما حللوا ، وهذا صنع المقلدين من هذه الأمة وهو أشبه به من النمرة بالنمرة والماء بالماء »

هذا . وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم شريعة الله حق البيان ، ولم يدع شيئا يقرب من الجنة ويباعد عن النار إلا أمر ربه ؛ ولم يدع شيئا يقرب من النار ويبعد عن الجنة إلا نهى عنه ، وقد أكمل الله تعالى دينه ، وما كان ربك نسيا .

فإذا تدبر الناس معنى هذا الاسم العظيم ارتدعوا عن البدع ومحدثات الأمور ولم يعتدوا حدود الله ، واعتقدوا كرسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل محدثة فى دين الله بدعة ؛ وأن كل بدعة ضلالة ، ولم يتركوا قول الله وقول الرسول لقول أحد من الناس أو رأيه مهما يكن علمه وصلاحه وتقواه .

المبتدع ملحد فى أسماء الله تعالى ، منكر لهيمنة الله على عباده ، مدع مشاركة الله فى معنى هذا الإسم الجليل .

وإذا ثبت أن هذا الاسم يتضمن معنى الرعاية والحفظ بطل ما يزعمه المبطلون من جواز التوسل إلى الله بذوات المخلوقين ؛ إذ ماذا عسى أن يجدى التوسل بذات المخلوقين وقد تكفل المهيمن سبحانه بكل ما فيه حفظ العبد ورعايته من تلقاء نفسه ؛ وبطبيعة رحمته الواسعة وفضله العظيم .

ربما يعترض بعض المخذولين بالدعاء فيقول : وما ثمرة الدعاء إذا كان المهيمن قد كفل حفظ العبد ورعايته ؟

والجواب أن الدعاء فى ذاته عبادة يرجى ثوابها ، بل هو مخ العبادة ولبابها وصفوتها ، فإذا أيقن العبد أن له ربا مهيمنا سميعاً قريبا ، يجيب الدعاء واسع العطاء ، ولجأ إلى ساحة فضله العظيم ، وحظيرة رحمته الواسعة : كان ذلك من العبد إيماناً وعبادة يثاب عليها ، وسببا لوصول فضل الله إليه ، فقد جعل الله طاعته سببا فى الفوز برحمته فى الدنيا والآخرة . قال تعالى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال تعالى (فقلت أستغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل

لكم أنهارا) ولم يجعل الوسطاء سبباً فى ذلك ؛ ولا جعل التوسل بذوات المخلوقين طريقا للفوز بما عنده . وقل لمن ادعوا غير ذلك : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

هذا . ولما كانت هيمنة الله على عباده ولوازمها ذاتية لزم أن يكون الدعاء بما يوائم سنة الله فى خلقه . انظر إلى دعاء الملائكة واستغفارهم للمؤمنين تجده يؤيد ما قررنا قال تعالى فى سورة غافر (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ؛ وقهم عذاب الجحيم . ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم)

تدبر دعاء الملائكة المكرمين الذين لا يسبقون الله ، تعالى بالقول وهم بأمره يعملون : تجدهم يستغفرون الله تعالى لمن تاب واتبع سبيل الله ولم يستغفروا للظالمين الذين هم عن الصراط ناكبون . لأن الله تعالى يقول (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) وذلك من سننه التى لا تتغير .

وتدبر دعاءهم لذوى قرابة المؤمنين : لم يقولوا أدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وأدخل معهم أولى قرباهم مهما تكن أحوالهم فهم أعلم بالله من أن يطلبوا منه مالا يوائم سننه وما يخالف وعده . بل قالوا : ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم

هذا . وفيما قدمنا ما يكفى لتمهيد السبيل أمام من يريد أن يتدبر مظاهر هذا الاسم الجليل ليدرك معانيه ويفهم مراميه . ويضرع إليه مخلصاً ويهتف باسم المهيمن قائلا فى ضراعة وخفية :

اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين .

٩ — العزيز

اشتقاق هذا الاسم الأحسن من العزة ، وهى فى الأصل القوة والشدة والغلبة .

قال الراغب : العزة حال مانعة للإنسان من أن يُغلب ، من قولهم : أرض

عزاز ، أى صلبة . . والعزيز الذى يَقهر ولا يُقهر . ا ه فالعزيز على هذا معناه القوى القادر الذى لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب . وإذا تتبعنا الآيات الكريمة التى جاء فيها هذا الاسم الجليل ألفيناها جميعاً تشير إلى هذا المعنى .

ولأفسر لك بعض الآيات التى جاء فيها ذكر هذا الاسم لتجعلها نبراسا تستضىء بنوره وأنت تتدبر سائر الآيات التى تتضمنه .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) .

بدأ سبحانه فأمر المؤمنين بالدخول فى السلم كافة ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان الذى يأمر بالفحشاء والمنكر ، ويدعو إلى التنازع والتفرق ، وهما داعية الفشل ، وبين لهم أنه عدوهم المبين العداوة ، ثم بين لهم أنهم إن عصوا أمره سبحانه وأطاعوا وسوسة الشيطان بعد أن تبين لهم الهدى ؛ ووضحت أمامهم المحجة ، فإن الله قادر على أن يعاقبهم بما كسبت أيديهم ، وأن أحداً لن يستطيع أن يفلت من عقوبته ، أو يهرب من ملكوته . وقرن تعالى العزة بالحكمة فى قوله (عزيز حكيم) ليبين لهم أنه سبحانه لا يأخذهم اعتسافا وظلماً ، بل إنما يعاقبهم بذنوبهم وخطيئتهم ، لأنه حكيم يضع الأشياء فى مواضعها فلا يعاقب إلا من يستحق العقوبة ولا ينتقم إلا ممن يستوجب الانتقام .

وقال تعالى (ويسألونك عن اليتامى ، قل : إصلاح لهم خير ، وأن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم) .

بين سبحانه أن فى إصلاح شئون اليتامى خيرا لهم وللمصلح لأنه إن عنى بتهذيب أخلاقهم وتقويم طباعهم ، وتثقيف عقولهم وتطهير أرواحهم ، وتلقينهم العقائد السليمة والعبادات الصحيحة ، وتقوية أبدانهم ، وإصلاح أموالهم ، وتعليمهم

ما ينفعهم فى معادهم ومعاشهم ، أصبحوا أعضاء عاملين ينفعون أمتهم ووطنهم ، وجنى هو ثمرة ذلك فى الدنيا ، ونال مثوبته فى الآخرة . وبين تعالى أن الإصلاح إنما يتم بالمخالطة والمعاشرة حتى يستفيدوا من القدوة الصالحة وحتى تظهر المصلح أخطاؤهم ، فيعمل على إصلاحها . ثم بين تعالى أنه لا ينبغى الترفع عن مخالطتهم لأنهم إخوان فى الدين .

ثم أشار تعالى إلى أن رعاية اليتامى ينبغى أن تكون شكراً لله ، لأنه أنعم على الذين يقومون عليهم بالإبقاء على حياتهم ، ومتع أبناءهم برعايتهم ، وهيأ لهؤلاء الآباء فى صغرهم من عنى بأمرهم ، ولو شاء الله تعالى لأعنتهم وأذاقهم ألوان الحرمان والهوان .

وبعد هذا كله بين أنه عزيز حكيم أى لو شاء ذلك لم يستطع أحد أن يحول دونه ولو اجتمعت قوى السموات والأرض ومن فيهن ، وهو تعالى مع هذه العزة حكيم ، لا تصدر أفعاله إلا عن حكمة بالغة .

هذا ولأذكر لك بعض مظاهر هذه العزة الإلهية ؛ لتعتز بربك ، وتتوكل عليه ، وتنصرف بكل جوارحك عما سواه .

فمن مظاهر العزة الإلهية إحياء الموتى لينال كل واحد جزاءه يوم القيامة ، وليعلم الذين كانوا يغترون بغيره أنهم كانوا فى ضلال مبين (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم) .

ومنها تصوير الأجنة فى بطون أمهاتها (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ومنها الإيحاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأخبار الماضين لتكون موعظة للحاضرين (إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم) ومنها نصر الرسول وأصحابه مع قلتهم وكثرة العدو (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

ومنها إرسال الرسل لتثقيف البشر وقطع حجة الناس (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) .

ومنها شرح العقوبات والحدود للتنكيل بالعصاة والأثمة والمجرمين (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) .

ومنها تقليب الليل والنهار ، وفاق الإصباح ، وتسيير الشمس والقمر والنجوم بأدق حساب وأضبط نظام (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا ؛ والشمس والقمر حسبانا . ذلك تقدير العزيز العليم) .

ولو أن الناس قدروا عزة الله ما لجأ لاجيء إلى غيره ولا دعا داع سواه ؛ ولا قصر مقصر فى عبادته ، (ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) .

ومن مظاهر عزته تعالى أنه منفرد فى ملكه وملكوته ، ليس له شريك يشاركه فى أمره ونهيه أو خلقه ورزقه ، أو محوه وإثباته (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم) .

ومن مظاهر تفرده تعالى بالعزة الكاملة أنه إن أراد بأحد خيراً فلا مانع له وإن أراد به سوءاً فلا دافع له (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) .

ومنها أن جميع قوى السموات والأرض جنود مسخرة لتنفيذ إرادته ، خاضعة لعزته (ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عزيزاً حكيما) .

ومنها أنه خلق الموت هادم اللذات ومفرق الجماعات الذى لا يستطيع أن ينجو منه ملك ولا سلطان . ولا جرم أن خلق الموت من أروع مظاهر العزة الإلهية (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) .

هذا : ولو رحت أعدد مظاهر العزة الإلهية ما اتسعت لها الصحف ؛ ولضاقت عنها

القراطيس ؛ وفيما قدمت ما يكفى المتدبر الأريب ؛ فليكن منوالا ينسج عليه ، ومنهاجا يسلكه .

سبحانك يارب العزة . لا يستطيع أعبادك الضعفاء أن يحصوا مظاهر عزتك ولا روائع حكمتك .

عزة فى حكمة . عزة فى علم . عزة فى قوة . عزة فى رحمة ومغفرة .

هذا والعزة لله وحده ؛ فلا عزيز بالحق غيره سبحانه ، وهو سبحانه يعز من يشاء ؛ ولا يعز إلا أحبابه الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

فمن اعتز بغيره ذل (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين : أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً) .

فلا ينبغى لمؤمن أن يذل لمخلوق مهما تكن الظروف والأحوال ، أو تنزل به الأهوال ، بل عليه أن يصون عزة الإيمان أن تلحقها ذلة ؛ ويربأ بها أن تمسها مهانة . وخليق بالمؤمن الذى يحترم دينه ونفسه أن لا يظهر الذلة والضراعة لغير ربه العزيز الجبار المتكبر .

ولكن المسلمين بعد أن فرطوا فى جنب الله ؛ وقصروا فى ذات دينهم ؛ أخذوا يظهرون الذلة والضراعة للأحياء والأموات .

وإنك لتشعر بالألم يحز فى نفسك ، والحسرة تعتاج فى قلبك ، حين ترى رجلا موسوما بالعلم قائما على قبر من القبور خاشعاً خاضعا ، تبدو عليه الذلة ، وتلوح عليه المسكنة ؛ يسأل الرفات الرميم أن يقضى له الحاجات ، أو يجلب له الخيرات ، أو يدفع عنه المضرات .

ذلك هو الشرك الذى أذهب عنا العزة ، وجلب علينا الذلة ، وجعل لأعداء

الإسلام السبيل على المسلمين : يتحكمون فى أمورهم . ويستبدون فى مصائرهم ، ويقضون فى شئونهم وهم غائبون .

والمتدبر لقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) ولقوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) يعلم علم اليقين أن الاخلاص لله تعالى وإفراده بالعبادة والضراعة سبب فى الاستخلاف فى الأرض ، وتمكين الدين الرضى وتبديل الأمن بعد الخوف ، والتمتع بنعمة الحرية والاستقلال ، ولكن أين المتدبرون ؟

نسأل الله أن يلهم الأمة الإسلامية أن تنتفع بكتابها الكريم ؛ حتى يعود إليها مجدها القديم .

١٠ — الجبار

جاءت هذه الكلمة فى القرآن الكريم اسماً لله تعالى من الأسماء الحسنى ، فى هذه الآية الجامعة من سورة الحشر ، وهى قوله تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون) وجاءت وصفاً للكافر المقضى عليه بالخيبة فى هذه الآية الكريمة من سورة إبراهيم ، وهى قوله تعالى (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) وجاءت وصفا لسكان الأرض المقدسة التى أمر موسى قومه أن يدخلوها فأبوا — فى هذه الآية الكريمة من سورة المائدة وهى قوله تعالى (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين) وجاءت وصفا منفياً عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة من سورة ق وهى قوله تعالى (نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخلف وعيد) وجاءت

وصفا منفيا عن المسيح صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا) وجاءت وصفا منفياً عن يحيى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً) .

فما معناها إذاً فى هذه المواضع المختلفة ؟

جاء فى معاجم اللغة : الجبار كل عات ؛ وقلب لا تدخله الرحمة . والجبر خلاف الكسر ، والإصلاح بضرب من القهر أو الإصلاح المجرد ، وجبر الفقير أحسن إليه ، وأغناه بعد فقر ؛ وجبره على الأمر أكرهه .

فالجبار العنيد الذى قضى الله عليه بالخيبة هو العاتى المتكبر الظالم العسوف الذى لا تجد الرحمه إلى قلبه سبيلا ، والذى لا يبالى ما صنع بالناس ولا ما أوقع بهم ؛ ولا ما استلب من أموالهم ، ولا ما فتك بأرواحهم ؛ ولا ما سفك من دمائهم ، ولا ما عبث بأعراضهم ولا ما أفسد من أخلاقهم ، ولا ما أفاد من استغلالهم لمصلحته الخاصة ، ومنشأ هذا الجبروت فيه أن فيه ناحية نقص يحرص على أن يجبرها ، ولذلك لا تكاد تصادف جبارا عاتيا إلا وفيه نقيصة جاءته من قبل أصله ونسبه ، أو من تشويه خلقه ، أو من قسوة الظروف عليه فى فاتحة حياته ، والأمثلة على ذلك أوضح من أن تذكر ؛ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار .

وأما سكان الأرض المقدسة الذين وصفهم قوم موسى بأنهم قوم جبارون ، فيحتمل أن يكون المعنى المراد من هذا الذى أوضحنا فى معنى الجبار العنيد ، ويحتمل أن يكون ولعله أوفى إلى الحق والصواب — بمعنى الأقوياء الأشداء الطوال الأجسام من قولهم : نخلة جبارة إذا كانت طويلة . كأن قوم موسى آنسوا من جانبهم قوة وبطشا وقدرة على الفتك بهم — فتهيبوا أن يقاتلوهم .

وأما قوله تعالى (وما أنت عليهم بجبار) فمعناه لست مسلطا عليهم ترغمهم على

مالا يحبون . كقوله تعالى : لست عليهم بمسيطر ، وكقوله تعالى : لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) .

وأما ماجاء منفيا عن يحيى والمسيح عليهما السلام فمعناه أنهما ليسا متعاليين عن قبول الحق والإيمان .

وأما اسمه تعالى « الجبار » فمن الجائز أن يكون اشتقاقه من الجبر بمعنى الإصلاح والإحسان ، لأنه تعالى يجبر الناس بفائض نعمه . ويؤيده ماجاء من الدعوات على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم « واجبرنى واهدنى » أى اغننى ، وهو مأخوذ من قولهم : جبر الله مصيبته أى رد عليه ما ذهب منه وعوضه ، وأصله من جبر الكسر ، وكذلك ماجاء فى دعاء على : ياجابر كل كسير . ويامسهل كل عسير .

ويكون المعنى على هذا : أنه الذى يفيض نعمته على خلقه ، ويبسط عليهم رحمته فيجبر كسرهم ، ويسد عوزهم ، ويغنى تفاقرهم،ويأسو جراحهم ،ويمنع دموعهم ،ويقولاهم بالرحمة فيلم شعثهم ، ويجمع ما تفرق من شملهم

ولكن يلوح لى أن الأحسن أن يكون اشتقاقه من الجبر بمعنى الإكراه على الأمر، واللغة لا تأبى ذلك فقد جاء فى القاموس المحيط وغيره من المعاجم التى يعتد بها : جبره على الأمر إكراهه عليه كأجبره . ويؤيده أن هذا الاسم الكريم جاء فى الآية الجامعة التى صدرنا بها هذا البحث بين اسمين آخرين يدلان على العزة والكبرياء، فقد سبقه اسمه تعالى العزيز ؛ وتلاه اسمه تعالى المتكبر . فالمناسب أن يكون اسمه تعالى (الجبار) بمعنى يناسب هذين الإسمين الكريمين . والله تعالى يجبر الناس أى يقهرهم على ما يريدون بمقتضى حكمته : فقد أجبر الناس على أشياء لا انفكاك لهم منها ولا خلاص من ربقتها فالأسود والأسمر لا يستطيعان أن يتخلصا من ألوانهما . وذو الأنف الأفطس والشعر الجعد لا يملك أن يستبدل بخلقه خلقا آخر . والطويل لا يملك أن يقصر . والقصير ليس فى طوقه أن يطول — فقد أجبر كل من هؤلاء على الحال اللاتى لازمته إجباراً لا يستطيع منه

خلاصاً . وذلك لحكمة يعلمها الجبار سبحانه ، وسر لا تنفذ عقولنا القاصرة إلى أعماق كنهه .

وكذلك أكره سبحانه الخلق على الموت عند حلول الأجل المسمى ، وعلى المرض عند التعرض لأسبابه ، وعلى البعث إذا نفخ فى الصور . ولو اجتمع الخلق كلهم وكان بعضهم لبعض ظهيرا ، على أن يخلصوا مما قضاه الله عند تحقق أسبابه وموجباته ، لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

* * *

هذا . ولا يسبقن إلى وهم القارىء الكريم أن الله تعالى يجبر الناس على المعاصى والطاعات كما يتوهم كثير من المخذولين الذين لا ينظرون إلى أمر الله ونهيه ، ويستزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا فيتورطون فى الخطايا ثم يحملون الأقدار تبعة ذنوبهم وآثامهم إذ لو كان الأمر كما يزعمون لكان من العبث والزور أن نمدح الأتقياء والصالحين، أو نذم الأشقياء والمجرمين ، ولبطل الثواب والعقاب ، وكان إرسال الرسل وانزال الكتب عبثا وكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من لغو القول وكان الوعد والوعيد ملهاة لاه . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً

* * *

وبعد . فربك الجبار ذو التصرف المطلق ليس لأحد كائنا من كان عليه من سلطان ، بل له السلطان التام على جميع الأنام وجميع تصرفاته بمقتضى العلم الكامل والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل ، وهو يحكم لا معقب لحكمه ، يخلق ما يشاء ويختار ، لا يبدل القول لديه ، وما هو بظلام للعبيد

ولعل هؤلاء الغافلين الذين يدعون غير الله من الأولياء والصالحين من الأحياء

والميتين ـ لو تدبروا معنى هذا الاسم الجليل لكشفت الغشاوة عن أبصارهم وانجاب الرين عن قلوبهم ، وعلموا أنه لا إله إلا الله العزيز الجبار المتكبر ، فوقفوا عند الحد وأدركوا سلطان ربهم فى ملكوته ، وعرفوا مدى رحمته وعزته وجبروته ، فلم تتطلع أنظارهم إلى غيره ، ولم تتلفت قلوبهم إلى سواه ، ولم يلتمسوا من مخلوق نقض ما أبرم الله ، ولا إلغاء ما قضاه ، ولا إفساد ما دبره . ولا تغيير ما أحكمه

سبحانك ربى ما قدرك عبادك حق قدرك إذ ولوا وجوههم شطر المخلوقين العاجزين الفانين ، وغفلوا عن سطوتك وقدرتك ، وجبروتك ورحمتك ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لآتاهم الله أجراً عظيما ، ولهداهم صراطا مستقيما .

١١ — المتكبر

وصف الله تعالى نفسه بالتكبر والكبرياء فى القرآن الكريم ، فقال تعالى فى سورة الحشر (العزيز الجبار المتكبر) وقال تعالى فى سورة الجاثية (وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) .

وذم فريقا من خلقه بالكبر والتكبر والاستكبار ؛ فقال تعالى فى شأن الشيطان فى سورة البقرة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وقال تعالى فى شأن قوم نوح من سورة نوح (وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا) وقال تعالى فى شأن قوم هود من سورة فصلت (وأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أ ولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون) وقال تعالى فى شأن الوليد بن المغيرة فى سورة المدثر (إنه فكر وقدر ؛ فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن

هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) وقال تعالى فى شأن الكافرين عامة من سورة الأعراف (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ،وكذلك نجزى المجرمين) وقال فى سورة غافر (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه : فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير)

فما معنى هذه الصفة بالإضافة إلى الله تعالى ، وما معناها بالإضافة إلى خلقه .

يجد ربنا أن نرجع الى معاجم اللغة لنستشيرها ؛ وعلى ضوء ما نقتبس من نورها نفسر هذا الاسم الكريم من أسماء الله تعالى ، وهذه الصفة من صفات المخلوقين

فاذا استشرنا مفردات الراغب ، ونهاية ابن الأثير وأساس البلاغة الزمخشرى ، استطعنا أن نجىء الثمرات الطيبة التى نقدمها بين يدى القارىء الكريم .

أما بالنسبة إلى الخالق فإن الكبر والتكبر والاستكبار ألفاظ تتقارب معانيها ، وتجتمع عند حال واحدة وهى إعجاب الإنسان بنفسه إعجاباً يدفعه إلى أن يرى نفسه أكبر من غيره ، فيبطر الحق ويغمط الناس ، ويظهر من نفسه ما ليس له ، وكل من تلوث من البشر بهذه الرذيلة فقد اتبع خطوات الشيطان المريد عليه لعنة الله إلى يوم الدين . فقد أمره الله بالسجود لآدم حين سواه ونفخ فيه من روحه ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ، فقد اعترته الحمية ، وغلبت عليه الشقوة ، وتعزز بخلقة النار ، واستهان بخلقة الصلصال ، فكان بتكبره أسبق الخلق إلى المعصية ؛ وكانت معصيته رأس المعاصى وأصلها ، إذ ماصرف البشر عن قبول هداية الأنبياء والمرسلين إلا استكبارهم وقولهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا) وبذلك ولو أعمتهم عن سبيل الحق ، وتنكبوا فى مزالق الكفر والفسوق والعصيان ، وجعلوا أسوتهم السيئة إبليس عليه اللعنة .

وكذلك ما صرف الناس عن إصلاح المصلحين ، وهداية المرشدين من أتباع الأنبياء والمرسلين إلا هذه النقيصة التى يخيل لأصحابها أنهم خير من المصلح وأرشد من المرشد ، فلا يتبعون إرشاده ولا يقبلون هدايته ؛ فيضلون عن سواء السبيل .

وشر التكبر : التكبر على الله تعالى بالامتناع عن قول الحق أو الإقرار به ؛ وعدم الإذعان له بالطاعات وأداء العبادات .

وإنما ينشأ الكبر عند الإنسان من شعوره بنقص فى نفسه يعتريه فى أصله أو فى خلقه أو فى ملكاته ؛ فيحرص على أن يستر هذا العيب بالظهور فى مظهر الكامل الذى لا عيب فيه ، والكبير الذى لا يلحقه صغار ، وقد ينشأ من الغرور وفساد ملكة الحكم على الأشياء ، كأن يرى الإنسان نفسه قوياً فيسبق إلى وهمه أن ليس فى الوجود من هو أقوى منه ، أو غنياً فيحسب أن الدنيا خلت ممن هو أغنى منه . أو على شىء من العلم فيخيل إليه أن جنبات الأرض لم تنطو على أعلم منه ، وأن معارف الأولين والآخرين انتهت إليه ، فيسوقه ذلك الغرور إلى الكبر كما قال تعالى (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟) .

فدل بهذا على أن اغترارهم بالقوة هو الذى هوى بهم إلى الدرك الأسفل .

وعندى أن باعث الكبر فى الناس ضعف الإدراك وفساد الوزن لحقائق الأشياء ، إذ الأريب الحصيف لا يبطر الحق ، ولا يغمط الناس ، ولا يلتمس ما ليس له ، ولا يدعى ما ليس فيه ، لأنه يعلم أن مدعى الكمال منقوص .

هذا — وأما تكبر الله تعالى فمعناه التعالى عن صفات المخلوقين ، والتسامى عن نقائصهم ، والتنزه عن معايبهم ، فالله تعالى متكبر أى متعال تنزه عن شوائب النقص جميعاً ، فلا يلحقه عدم ولا فناء ، وهو أزلى لم يسبق وجوده الكامل عدم ، ولم يتلق وجوده من غيره ؛ وهو منزه عن مشابهة الحوادث ليس كمثله شىء ، وهو تعالى قائم بنفسه غير مفتقر إلى ما يمسكه أو يحمله أو يسنده أو يمنحه شيئاً من صفات كماله ، وبه قامت السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن ؛ وهو منزه عن نقيصة الشريك ، وتأثير المؤثر ؛ فلا تبديل لكلماته ، ولا معقب لحكمه ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، إرادته نافذة فوق كل إرادة . وسلطانه فوق كل سلطان ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

إن نظرة تأمل صادقة فيما يوحى به هذا الاسم الجليل من المعانى والأسرار لتقفك على أن الذين يدعون غير الله ويستعينون سواه ، ما قدروه حق قدره ولا فقهوا معانى أسمائه ، بل سقطوا فى حضيض الإلحاد وهم لا يشعرون .

هؤلاء الذين يصور لهم الوهم الخاطىء والجهل الأثيم أن الأولياء يقربونهم إلى الله زلفى — لو تدبروا معنى هذا الاسم الجليل وحده لوقفوا عند قدرهم وعلموا أن سلطان الله قاهر ، وأنه تعالى غالب على أمره ، وأنه المتكبر الذى لا يسمح لكائن أيا ما يكن أن يحد من سلطانه ، أو يهيمن على إرادته ، أو يبدل مشيئته ؛ أو يعقب على حكمه ، أو يحول سننه ونواميسه .

* * *

هذا ولا ينبغى أن يشكك ذلك فى فائدة الدعاء وثمراته ، فإن الدعاء عبادة خالصة لما فيه من إبداء كامل الخضوع والضراعة لعزته تعالى وكبريائه . وقد وعد تعالى بأنه يستجيب دعاء الداعين بقوله (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وقوله (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

وأما الحجة الداحضة التى يحتج بها المخذولون إذ يقولون : إنا عصاة مذنبون ؛ والأولياء صالحون مقربون ، أنفاسهم طاهرة وأسرارهم حاضرة ؛ فهم خليقون بالاستجابة إذا دعوا لنا . أما هذه الحجة فقد أدحضها الله تعالى إذ يقول (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) .

فهل قعد بهم العجز والضعف والخور ، وفتور الهمة ، والاستخذاء أمام الشيطان وإغرائه أن يعجزوا حتى عن التوبة والإنابة والاستغفار والاستقامة إلى الله : اعتماداً على شفاعة الشافعين ، وتقريب المقربين . وكيف غفلوا عن قول الله الكبير المتعال (ألا لله الدين الخالص) وقوله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء)

وقوله تعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وما الإخلاص إلا أن تسلم وجهك لله وحده وأن تحول قلبك عمن سواه .

١٢ — الخالق

لعل الرجوع إلى المعاجم اللغوية يشير لنا الطريق الذى يبلغنا المعنى الدقيق لهذا الاسم من أسماء الله الحسنى ، فلنرجع إليها لنرى ما تقول :

الفيروزابادى : الخلق التقدير ، والخالق المبدع للأشياء ، المخترع لها على غير مثال وخلق الأديم قدّره وخرزه ، أو قدره قبل أن يقطعه ، فإذا قطعه قيل فراه .

الأساس : خلق الخراز الأديم ، والخياط الثوب ، قدره قبل القطع ، واخلق لى هذا الثوب . ومن المجاز : خلق الله الخلق أوجده على تقدير أوجبته الحكمة .

الراغب : الخلق التقدير المستقيم ، ويستعمل فى إبداع الشىء من غير أصل ولا احتذاء قال تعالى (خلق السموات والأرض) أى أبدعها بدليل (بديع السموات والأرض) ويستعمل فى إيجاد الشىء من الشىء (خلقكم من نفس واحدة (خلق الإنسان من نطفة) (من سلالة) (خلق الجان من مارج من نار) .

وليس الخلق الذى هو الإبداع إلا لله تعالى ، ولهذا قال فى الفصل بينه وبين غيره (أفمن يخلق كمن لا يخلق) وأما الذى يكون بالتحويل فقد جعله الله لغيره فى بعض الأمر. قال (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير) .

والخلق لا يستعمل فى الناس إلا على وجهين : أحدهما فى معنى التقدير كقول الشاعر

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

والثانى : الكذب (وتخلقون إفكا)

من هذه النصوص ترى أن كلمة اللغويين أجمعت على أن الخلق هو التقدير ، ومعنى

التقدير : العلم بالقدْر اللازم من المادة لصنع الشيء المراد صنعه ، فالصائغ مثلا يخلق الذهب أى يعرف القدر اللازم منه لصنع حلية من الحلى . والخياط يخلق النسيج أى يعرف القدر اللازم منه لصنع أجزاء الثوب المختلفة ويقطعه ويخيطه على ما قدّر .

هذا أصل معنى الخلق لغة أى تقدير المادة اللازمة لصنع الشيء ؛ ثم استعمل الخلق فى الصنعة نفسها فقيل : خلق أى صنع وأوجد .

ولكن هذا الفعل إذا أُسند إلى الله تعالى كان له معنى أجلُّ وأسمى من هذا المعنى . فمع ما فيه من معنى التقدير الدقيق : فيه معنى الاختراع والإبداع على غير مثال سابق ؛ ولا محاكاة . فالله خلق هذا العالم أى قدر المادة اللازمة لخلقه ثم أوجدها من العدم بأمره الكونى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون) ثم خلق كل شيء من المادة التى قدر أن يخلقه منها ؛ بغير أن يكون مقتدياً بأحد فى خلقه ، ولا ناسجاً على منوال أحد ؛ بل أبدع هذا العالم سماءه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وإنسه وجنه وملكه ، وجميع عناصره على غير مثال سبق به ؛ كما يدل على أنه سبحانه صنع كل كائن من هذه الكائنات من عدة عناصر بسيطة وقدر ما يلزم من هذه العناصر البسيطة لإيجاده .

(عَلَم الربوبية)

وهذا الاسم الجليل عنوان الربوبية ، وبه كان الله : رب كل شيء ومليكه ؛ وبه استحق من الخلق أن يسبِّحوا بحمده ، ومن العالمين أن يعبدوه وحده ، وأن لا يشركوا بعبادته أحداً ؛ وهو ما خلق الثقلين إلا لعبادته . قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فخليق بمن خُلق للعبادة أن لا يضيع هذه الكرامة التى أكرمه بها ربه وخالقه ومليكه .

والقرآن الكريم مع هذا الاسم الجليل منطق رائع ، واستدلال عجب ؛ فاستمع إلى قوله تعالى (يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) فأرشد سبحانه إلى أنه مستحق للعبادة ، لأنه هو الخالق الذى أفاض على

الناس نعمة الوجود والحياة بعد أن أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، فهو الذى خلقهم وخلق آباءهم الأولين ، فهم خلقاء أن يعبدوه وحده وأن لا يشركوا به شيئاً ولو أشرك آباؤهم من قبل ؛ لأنه منحهم عقولا يفكرون بها فلا يجدر بهم أن يعطلوها ويفكروا بعقول أسلافهم ؛ إذ ليس من الرشد ولا من الحكمة أن يلغوا عقولهم ويكفروا بنعمة الله عليهم ويقولوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

وقال تعالى فى سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً) فبين بهذه الآيات الكريمة أن الناس جديرون أن يتقوا ربهم لأنه هو الذى خلقهم ، والخالق جدير بأن يُتقى ، ثم بين لهم سراً من أسرار الخلق ليقفهم على ناحية من نواحى قدرته وعلمه وحكمته ، فكشف لهم أنه خلق أول الأمر نفساً واحدة ، ومن هذه النفس خلق زوجها بطريقة لا نفقه كنهها ، ولا ندرى حقيقتها ؛ ومن هذين الزوجين خلق بطريق التوالد رجالا كثيرا ونساءا .

وقال تعالى (ذلكم الله ربكم خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل) .

وقال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) وقال تعالى (ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) .

فكل هذه الآيات تنادى بوجوب عبادته وذكر نعمه ، لأنه الخالق الذى لا خالق سواه ، والرازق الذى لا رازق غيره ، فليس فى الوجود من يستحق العبادة إلا هو .

مادة الخلق

وقد بين سبحانه مادة الخلق فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ليكشف للناس سراً من أسرار قدرته وعلمه ليزدادوا به إيمانا وله تسليما ، فقال (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون) فبين بهذه الآية أن المادة التى خلق منها الإنسان هى الطين ، وكلنا يعلم أن الطين هو أديم الأرض ، أفليس الإنسان المخلوق من أديم الأرض خليقاً بأن يعرف نعمة الله إذ جعله بشراً سوياً ، ومنحه من المواهب والمدارك والملكات والحواس والمشاعر والذكاء ما استطاع به أن يسخر العناصر ويذلل قوى الماء والهواء ، ويكشف عن سر الكهرباء .

وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) والصلصال هو الطين الحر خلط بالرمل ، أو الطين مالم يجعل خزفا . والحمأ الطين الأسود المنتن . والمسنون المنتن .

وقال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) فدل بذلك على أن الإنسان مخلوق من الأرض أى من الطين والحمأ المسنون .

وقال تعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج) .

وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر .. فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وقال تعالى (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) .

تدبر هذه الآيات البينات تلح لك أنوار من المعرفة تكشف لك جانباً من أسرار الخليقة لتزداد بقدرة الله إيمانا ولحكمته إذعاناً .

فقد بين لك كيف تدرج فى الخلق بعلمه وحكمته وقدرته ، فكان أصل الخلق من الطين ، ثم لما أوجد الإنسان الأول خلق منه زوجا له ، ومن هذين الزوجين جعل الخلق يتخذ سبلا أخرى ، إذ جعله من ماء دافق يخرج من أصلاب ذكران هذا الجنس ؛ ويستقر فى أرحام إناثه فيلقح مبيضاتها ، فتحيا ثم تتطور فتصير علقة فمضغة فعظاما ، ثم تكسى العظام لحما ، ثم تصير خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .

هذا ونستطيع أن نقول : إن الإنسان لا يزال يخلق من الطين حتى بعد وجود جنسه على الأرض ، وكثرة مابث منه من الرجال والنساء . فإن هذا الماء المهين الذى هو النطفة التى تفرز من كل من الذكر والأنثى ، والبيضة التى تخرج من مبيض الأنثى أصلهما من الدم ؛ والدم أصله الغذاء ، والغذاء إما من الحيوان أو النبات أو الجماد ، والجماد من الأرض ، والنبات تكون من أديم الأرض وطينها ، والحيوان تكون لحمه كذلك من الغذاء الذى تقدم وصفه . فالانسان لا يزال يخلق من الطين بقدرته تعالى ، ومن فكر فى آيات الله ودلائل قدرته ازداد إيمانا وتسليما .

(عود على بدء)

قال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) .

وقال تعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) .

وهنا يذكر تعالى أن أصل الخلق هو التراب ، ولا تنافى بين هذا وما تقدم ،

فلا جرم أن التراب هو أحد عنصرى الطين ، فما الطين إلا ترابا بله الماء ، وقد ذكر العنصر الآخر فى قوله (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً) .

وقد أخبرنا سبحانه أنه خلق جميع الكائنات الحية من الماء فقال (وجعلنا من الماء كل شىء حى) وقال (والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم — الخ الآية) .

١٣ — الخالق

(تابع ما قبله)

أنواع الخلق وأسرار الحق :

وقد بين تعالى لنا فى القرآن الكريم أنواع خلقه لنعرف فضله ونعمته ، ونزداد إقبالا عليه ؛ وانصرافا عن غيره ، ونعلم أنه الواحد القهار ؛ فلا نعبد سواه ولا ندعو غيره . قال تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) وقال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

بين تعالى فى هذه الآية أن الكافرين الذين لا يصطنعون العقل : يعدلون بالخالق المخلوق ، ويعبدونه من دون الله ، ويتوجهون إليه بالدعاء . ألا ساء ما يحكمون .

وقد بين سبحانه لهؤلاء الذين غلبت عليهم الجهالة ؛والحرص على محاكاة الآباء والأجداد ، والسير فى سبيلهم الجائرة ، أن ربهم الحق الجدير بعبادتهم ودعائهم ، هو الخالق الذى خلق الأرواح كلها ، وأوجد كل موجود فى الأرض والسماء ، فقال (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ؛ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ؛ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

وقال (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون) وقال (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ؛ مامن شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) .

وقال تعالى (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) .

وقال تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا . ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) .

وقال تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ؛ وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ؛ وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار) .

وجميع هذه الآيات — وما فى معناها كثير — غنية بسهولتها ووضوحها عن التفسير ، ولا تحتاج منك إلا إلى قليل من التدبر لتزداد تبصرة وذكرى .

الاستدلال بالخلق على نفى الربوبية عن غير الخالق

أقام الله سبحانه الدليل بالخلق على أنه وحده رب العالمين ، وأن ماسواه ليسوا أربابا لأنهم لا يخلقون . وإنك لتجد فى القرآن الكريم آيات بينات بسطت هذا المعنى فى وضوح وجلاء ، قال تعالى (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) وقال تعالى (قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا

لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) وقال تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) وقال تعالى (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ؛ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ؛ ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز).

فهذه الآيات البينات التى تسمع الصم ، وتهدى العُمى ، وترد الى الحق من كان فى ضلال مبين: لو أنهم أصغوا إليها ، وتدبروها ، ونظروا فيها نظر من يريد الوصول إلى الحق والتحرر من أسر الهوى ورق الشهوات ، والجمود على عقائد الآباء والأجداد ـ هذه الآيات وما فى معناها كفيلة بأن تقنع كل ذى عقل بأن الذى لا يخلق لا يكون ربا ولا إلها ، وإذاً لا يصح أن يدْعى ولا أن يعبد ، ولا أن يستغاث ، ولا أن يستعان ، ولا أن ينذر له ؛ ولا أن يضرع إليه ، لأنه عاجز قليل الحول والطول ، لا يملك لنفسه — فضلا عن غيره — نفعاً ولا ضراً .

فمتى يرعوى المسلمون عن غيهم ويقدرون خالقهم حق قدره ، فلا يدعون غيره ولا يستعينون سواه ؟

﴿ الاستدلال بالخلق على البعث ﴾

لما دعا الخالق سبحانه الناس الى الإيمان بالبعث ليستعدوا لليوم الآخر ؛ ويخشوا الحساب ، ويتأهبوا للقاء ربهم ؛ فيعملوا لذلك اليوم العصيب ويتزودوا من الصالحات ؛ ويكف بعضهم أذاه عن بعض — أراد سبحانه أن يقيم لهم الدليل على أن هذا البعث أمر لا ريب فيه ؛ وهو واقع ما له من دافع ، فاستدل سبحانه بقدرته على الخلق على قدرته على البعث ؛ وبين لهم أن الذى يستطيع أن يخلق أول مرة قادر على أن يعيد الخلق الذى بدأه ؛ وأن الذى قدر على الايجاد قادر على الإعادة . وها أنذا أورد عليك الأدلة اليقينية

والبراهين القاطعة من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

قال تعالى (إليه مرجعكم جميعاً ، وعد الله حقا ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ؛ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط . والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) .

وقال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ؛ فأبى الظالمون إلا كفورا) .

وقال تعالى (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا)

وقال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين)

وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقنا كم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)

وقال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)

وقال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير)

وقال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)

فكل من تدبر هذه الآيات البينات — وفى معناها كثير — وكان ممن أوتوا نصيباً من عقل وحظا من فهم ، اقتنع اقتناعا لا يمازجه شك ولا يخالطه ريب ، بأن الخالق العظيم الذى بدأ الخلق قادر على أن يعيده ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها . وأن الله يبعث من فى القبور .

(الاستدلال بالخلق على العلم)

إذا نظرت أدنى نظرة إلى أقل مخلوقات الله شأنا وأدقها حجما ؛ لمست أثر العلم الإلهى بارزاً فيها ، فالذرة الحقيرة بل الجرثومة التى لا تدركها العين المجردة ، قدر العليم الحكيم

أعضاءها وأجزاءها والعناصر البسيطة التى تتألف منها ، وأمدها بما يلزم لحياتها من حواس ومشاعر وأجهزة وقوى تحار العقول فى إدراك كنهها . وتستطيع بعد هذا أن تتدرج فى مشاهدة الكائنات الحية لترى آثار علم الله فى خلقها حتى تصل إلى الإنسان الذى هو أعجوبة الأعاجيب فى خلقه وتكوينه ؛ ولا يتسع هذا الفصل لبسط آثار العلم الإلهى فى الإنسان الذى هو عالم فى نفسه، ولعل الله يتيح لنا أن نكتب فيه رسالة خاصة نوضح قوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أقام سبحانه الدليل فى القرآن الكريم على علمه بخلقه فقال تعالى (إن ربك هو الخلاق العليم) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وقال (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)

فاذا تدبرت هذه الآيات وجدتها شاهدة بأن الله تعالى يقيم فيها الدليل بخلقه على علمه ففى الآية الأولى أردف الخلق بالعلم ليبين أن الخلق لا يكون إلا بعلم . والآيات الباقية غنية بوضوحها عن التوضيح .

اعتقاد الكفار فى الخالق

كان الكافرون الذين بعث فيهم رسول الله يؤمنون بأن الله تعالى خالق كل شىء ولا ينكرون ذلك ولا يجحدونه بل يعترفون به ؛ فلماذا اعتبروا كافرين ؟

انما اعتبروا كافرين لأنهم كانوا يشركون بالله ويدعون معه غيره من أوثانهم التى كانوا يسمونها آلهة ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى . والقرآن الكريم يقضى عليهم هذا الجهل والأعراض عن الحق والاستمساك بالأباطيل

يقول تعالى (ولئن . سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) ويقول (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) ويقول (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) .

وبعد : أفليس المؤمنون خلقاء أن يربئوا بأنفسهم عن عقائد الجاهلية ، ويجردوا توحيد الله تعالى ويدعوه وحده لا شريك له ؛ ويفردوه بالعبادة والدعاء ؟

منزه عن العبث فى خلقه

وربنا الخلاق العليم لا يخلق شيئا إلا لحكمة بالغة قد تعزب عن أفهامنا ، وسر عجيب قد يعيينا إدراكه ، فان استطاع بعضنا أن يكشف الحجاب عن بعض هذه الأسرار فغمرته أنوارها ؛ وبهره إشراقها ، فليحمد الله على توفيقه ؛ وليدمن النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليطالع آيات ربه فى الآفاق والأنفس ، فإنه سيقف على علم عزير ويزداد إيماناً ويقينا بأن كل خلق خلقه الله لم يخلقه عبثا ، ولم يوجده باطلا . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينها لاعبين) وقال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ؛ فويل للذين كفروا من النار) وقال (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

فسبحانه من إله عليم حكيم تنطق كل جارحة من جوارحك وكل عضو من أعضائك بأنه لم يخلق عبثاً .

الخلق برهان الوجود :

أقام القرآن الكريم الدليل على وجود الخالق تعالى بمخلوقاته بطريق سهلة ، يفهمها أضعف الناس إدراكا وأبطؤهم فهماً ، ولفت أنظار الناس إلى ما يحيط بهم من آياته المتجددة فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى إذا تدبروها ونظروا فيها بفكر حر لم يملكه الهوى ، ولم يغلبه ما عليه الأجداد — هدتهم إلى الإيمان بوجود الخالق سبحانه :

قال تعالى (والله خلقكم ثم يتوفاكم . ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا . إن الله عليم قدير) وقال (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) وقال تعالى « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون » .

وقال تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » وقال « ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

هذه الآيات الكريمة تستدل بخلق الله تعالى على وجوده ، وأنت ترى أن أقصر آية منها كافية فى إقناع كل ذى مسكة بوجوده تعالى ؛ ولا جرم أن أسلوب القرآن وطريقه فى الاستدلال على وجود الله بخلقه خير من طريق هذه الكتب التى وضعها الناس ، فكانت صارفة عن طريق الحق والنور ، ولو أن الناس النمسو معارفهم وعلومهم من القرآن الكريم لكان ذلك أجدى وأهدى سبيلا .

(الخلق دليل القدرة والإرادة)

الخلق أصدق دليل على القدرة المطلقة والإرادة التامة ، فلا يخلق إلا القادر المريد الذى يفعل ما يشاء .

وقد سلك القرآن الكريم فى الاستدلال بالخلق على القدرة والإرادة : الطريق الذى سلكه فى الاستدلال على الوجود .

أراد تعالى أن يثبت لزكريا صلى الله عليه وسلم قدرته على أن يمنحه غلاماً على شيخوخته وعقم امرأته فقال تعالى (قال كذلك قال ربك هو علىّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) .

وقال تعالى فى سورة الشورى (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ، يهب

لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما . إنه عليم قدير) .

ما أوضح هذا الدليل ؛ وما أصدق هذا البرهان .

تنوع الخلق

جلت قدرة الخلاق العليم الذى يخلق الشيء وضده : يخلق الظلمات والنور ؛ والسم والترياق ، والداء والدواء ، والموت والحياة ؛ والليل والنهار . و . و . وذلك من أدل الدلائل على علمه وقدرته وحكمته .

قال تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وقال (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) وقال (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) وقال (وخلقناكم أزواجا) .

فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء تعالت قدرته وبهرت آياته .

الخالق دليل التنزه عن الولد

لقد وضع الخلاق العليم ناموس التوالد لتبقى هذه الأنواع خالدة فى أبنائها إلى الأجل الذى قدره سبحانه ؛ وقد نفذ حكم هذا القانون فى الإنسان والحيوان ؛ والطير والشجر وجميع أنواع الحشرات .

ولكى ينفذ هذا القانون وتتم كلمة الله فيه ، أودع غرائز البشر حرصاً على الولد وحباً له وعطفاً عليه واعتزازاً به ؛ فصار الإنسان يعتز بالولد ليكون عونا له على أعدائه وزينة لحياته الدنيا ؛ وذخراً لشيخوخته إذا مسه الكبر ، وخلفاً له إذا مات .

أما رب العالمين فهو الأول والآخر ، وهو الغنى الحميد ، وهو القوى العزيز ، فما حاجته إلى الولد ؟ وقد جعل سبحانه قدرته على الخلق برهانا على تنزهه عن الولد

فقال تعالى فى سورة الزخرف رداً على هؤلاء الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) .

وقال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسئلون) .

سنته تعالى فى الخلق

مضت سنته تعالى أن يخلق الكائنات الحية : صغيرة ضعيفة ؛ ثم تنمو وتشتد حتى تبلغ أشدها وتستوى ، ثم تعود إلى الضعف مرة أخرى إذا أدركتها الشيخوخة ثم تموت . وقد قال تعالى فى توضيح هذه السنة (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة . يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

الخلق يقتضى الهداية

كلما خلق الله كائنا حيا هداه إلى الوسائل التى تحفظ حياته إلى الأجل المسمى وألهمه الحرص على حفظ نوعه . ولما كان الإنسان مخلوقا للحياتين هداه إلى ما يكفل له السعادة فيها ؛ ومنحه أنواعا من الهدايات : هداية الفطرة ، وهداية الحواس ، وهداية العقل ، وهداية الرسل ، وهداية الكتب . فمنهم من قبل هذه الهدايات ، وسلك طريقها فاهتدى وسعد فى الدنيا والآخرة . ومنهم من أعرض عنها واتبع سبل الغواية فضل وشقى وكان من الخاسرين . قال تعالى (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وقال تعالى حكاية عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم (الذى خلقنى فهو يهدين) .

لوازم الخلق :

علم الخلاق العليم أن الكائنات الحية لا تبقى ولا تنمو إلا بالغذاء ، فخلق لها فى

الأرض ما يكون قواما لحياتها ، وأنزل لها من السماء ماء ليخرج به زرعا مختلفاً ألوانه فقال تعالى فى سورة البقرة (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) .

وقال تعالى فى سورة الفرقان (وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته . وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ٤٨ لنحيى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) .

«وما له منهم من ظهير »

خلق الله تعالى العالم وحده بقدرته ، ولم يكن له معين ولا ظهير ، ولم يحتج إلى مرشد ولا مشير ، قال تعالى فى سورة الكهف (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ؛ وما كنت متخذ المضلين عضداً) .

وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير) .

الخالق ووحدة الوجود

كل ما أسلفت من الآيات الكريمة يقنع كل ذى عقل بأن لهذا العالم خالقاً حكيما عليما يعلم من خلق ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وأن هذا الخالق الحكيم خلق هذا العالم بجميع ما فيه ، فكل ما ترى العين أو تلمس اليد ، من خلق الله تعالى ، فهو سبحانه غير خلقه ، وخلقه غيره .

فهذا الاسم الجليل « الخالق » يدفع فى صدور هؤلاء المفتونين الذين يقولون بوحدة الوجود ويزعمون أن ربهم هو كل هذا الوجود ، وأنه ليس هناك خالق ولا مخلوق فالمخلوق عين الخالق والخالق عين المخلوق . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

١٣ — البارىء

قال الفيروزابادى : برأ الله الخلق برءاً وبروءاً خلقهم .

وقال ابن الأثير : البارىء هو الذى خلق الخلق لا عن مثال ، ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات ، وقلما تستعمل فى غير الحيوان ، فيقال برأ الله النسمة ، وخلق السموات والأرض . وقال الزمخشرى : البارىء الذى خلق الخلق بريئاً من التفاوت — كما قال الله تعالى : ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت — ومميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة .

ترى من ذلك أن كلمة اللغويين لم تجتمع على معنى واحد .

وعندى أن الذين رأوا فى البرء معنى أكثر من الخلق هم المصيبون لأن أسماء الله تعالى ليس فيها اسمان مترادفان على معنى واحد بمعنى أنها متساويان فى المعنى بحيث يدل أحدهما على ما يدل عليه الآخر : بل كل اسم من أسمائه تعالى يشير إلى معنى خاص لا تجده فى غيره من أسمائه الحسنى ، وعلى هذا يكون اسمه تعالى البارىء يتضمن معنى زائداً على معنى الخالق . فمن قال : إن البارىء هو الذى خلق الخلق لا عن مثال فقد أتى بمعنى زائد على مفهوم الخلق وهو عدم الاقتداء بسابق إذ لا خالق إلا الله ومن قال : إن لهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ماليس لها بغيره من المخلوقات نظر إلى سر الحياة فى الحيوان وهى أعجب ما فى الخلق وأدله على القدرة فكأنه يفسر البارىء بواهب الحياة وهو معنى زائد على الخالق .

ومن قال : إن البارىء هو الذى خلق الخلق بريئاً من التفاوت ومميزاً بعضه من بعض بالأشكال والصور أضاف لذلك معنى زائداً على الخلق وهو الاتقان التام فى كل ما خلق بحيث لا يتفاوت الخلق فى الاتقان ، وإذا كانت اللغة تتسع لكل هذه المعانى وترحب بها فلا علينا أن نفسر هذا الاسم الجليل بهذه المعانى كلها

فنقول : إن البارىء هو الذى يهب الحياة للأحياء من الحيوان والنبات ويخلق جميع مخلوقاته متساوية فى الإتقان والإحكام ، وتوافر الحكم والأسرار ؛ ليس بعضها أكثر إتقاناً من بعض بل هى بريئة من التفاوت وإنما يمتاز بعضها من بعض بالصور المختلفة والأشكال المتباينة فهو الخالق البارىء المصور سبحانه عما يشركون .

وقد ذكر هذا الإسم الجليل فى القرآن الكريم ثلاث مرات ، مرتين فى الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة المدنية وهى قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ؛ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم : ٥٤) .

ومرة فى الآية الرابعة والعشرين من سورة الحشر المدنية وهى قوله تعالى (هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم : ٢٤) .

وذكر الفعل مرة واحدة فى الآية الثانية والعشرين من سورة الحديد المدنية وهى قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير : ٢٢) .

أما آية البقرة فذكر هذا الإسم الجليل فيها من دلائل الإعجاز إذ ليس بين أسماء الله الحسنى أنسب منه للمعنى الذى أريد توضيحه فى الآية الكريمة فإن الله تعالى يذكر مقالة موسى لبنى إسرائيل الذين كفروا بنعمة الله الذى خلقهم فأحسن خلقهم ، وصورهم فأحسن صورهم ، وجعل فيهم الأنبياء ، وجعلهم مستعدين للملك . ولكنهم لم يرعوا حقه ، ولم يجردوا توحيده ، بل فرطوا فى جنبه ، واتخذوا من دونه عجلا جسداً له خوار عكفوا على عبادته وهم يعلمون أنه لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .

تركوا عبادة الله الذى خلقهم فى أحسن تقويم ، وعبدوا عجلا هو مثال البلادة والغباء ، بل لم يعبدوا حيواناً حياً . إنما عبدوا صورة جامدة لا حس فيها ولا حركة ولا حياة .

فالبارىء سبحانه وهو يقص علينا هذا القصص ذكر هذا الاسم الجليل للإشارة إلى أن الإنسان الذى خلقه بارئه فسوّاه فعدله ، لا يجدر به أن يسف إلى عبادة حيوان بليد غبي . فكيف إذا بلغ الإسفاف إلى عبادة صورة الحيوان وتمثاله فتغلغل فى الضلالة وضل عن سواء السبيل .

من أجل ذلك دعاهم موسى عليه السلام إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى بارئهم الذى كفروا نعمته وجحدوا فضله وطلب إليهم أن يقتلوا أنفسهم لتتفرق أجزاء هذا الجسم الذى أحسن الله تنسيقه وأبدع نظامه فلم يعرفوا له الفضل فى ذلك ، ولم يشكروا له هذه النعمة .

نزلت هذه الآية الكريمة لتقص علينا شيئاً من أخبار بنى إسرائيل والله يقص علينا من أنباء الأمم ، وينبئنا من أخبارهم ليكون لنا فى قصصهم عبرة وموعظة فما نعى الله على بنى إسرائيل عبادة العجل ليبيح لغيرهم أن يعبدوا ما شاءوا . فما كان الله ليبيح للناس أن يتركوا عبادة بارئهم الذى خلقهم فأحسن خلقهم ورزقهم من الطيبات ليعبدوا مخلوقاً مثلهم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

فليذكر المؤمن اسم ربه البارىء ، وليتصور كيف خلق الأحياء ومنحها الحياة ؟ كيف خلق النبات جذوره وسوقه وأغصانه وأوراقه وأزهاره وثماره ؟ كيف جعل كل حبة تمتص من التربة ما يكون غذاءها وقوام حياتها .

كيف أخرج من هذه التربة أزهاراً هى زينة الأرض وقرة العين وبهجة النظر . كيف أخرج منها ثمرات مختلفاً ألوانها .

كيف جعل النبتتين تنبتان فى مكان واحد وتسقيان بماء واحد وتتنفسان فى هواء

واحد وإحداهما تؤتى ثمرها لذيذاً شهياً . والأخرى تؤتيه مراً زعافاً ؟ .

كيف جعل منه دهناً وصبغاً للآكلين ؛ وفاكهة للطاعمين ؛ وألواناً للصابغين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون .

ليذكر المؤمن اسم ربه البارىء وليتصور كيف برأ النحلة وألهمها أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ؛ وأن تأكل من كل الثمرات فتسلك سبل ربها ذللا ؛ وكيف يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ؛ وكيف تدبر مملكتها وتوزع العمل على بنات جنسها وكيف تصنع الشمع وتتخذ منه أشكالا هندسية دقيقة تدخر فيها شهدها .

وكيف برأ النملة وألهمها أن تجمع فى الصيف قوتها وتدخره للشتاء وكيف تحتفظ به حتى لا يفسد ، وكيف تتخذ لها قرية تأوى إليها مع بنات جنسها وكيف يتعاون أفرادها على أقواتها وكيف أودعها الله قوة هائلة لا يقاس جسمها الضئيل إليها ، ولو قيست قوة كل كائن حى إلى جسمه لكانت النملة أقوى من الإنسان أضعافاً مضاعفة لأن قوتها بالقياس إلى جسمها أكبر كثيراً جداً من قوة الإنسان بالقياس إلى جسمه .

ولا يتسع المجال لذكر كل نوع من أنواع الحيوان التى لا يحيها العدو لا يحصرها الحساب فلنجمل القول فيها إجمالا ليكون فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ليذكر المؤمن كيف تنوعت الخلائق التى برأها مدبر الكائنات من ذوات الشعر إلى ذوات الوبر ، ومن ذوات الصوف إلى ذوات الريش ، ومن الماشى على رجلين إلى الماشى على أربع إلى الماشى على بطنه ومن ذوات الأفواه إلى ذوات المناقير والمناسر ، ومن ذوات الأظلاف إلى ذوات الحوافر إلى ذوات المخالب والبرائن ، ومن ذوات الأجسام الضخمة الهائلة التى هى أضخم من الإنسان إلى الجراثيم الدقيقة التى لا تدركها

العيون المجردة ، ومن الـكائنات التى تعيش على الأرض إلى التى تعيش فى الماء أو فى طبقات الهواء ، ومن التى أوتيت ميزة محاكاة الأصوات إلى التى منحت خاصة تقليد الحركات ، ومن آكلة العشب إلى آكلة اللحم ، ومن آكلة الحب والثمر إلى آكلة الدود والحشر .

ليتفـكر المؤمن كيف ألهم البارىء الحكيم دودة القز أن تغزل هذه الخيوط الحريرية التى صنع منها الإنسان أروع ما تتجمل به الغيد الحسان من ثمين الحلل ، وقشيب الثياب .

وكيف كانت دودة القطن مدمرة متلفة مفسدة تجلب الخسائر وتدبر الدوائر .

وهذا ولا ينقضى عجب المؤمن إذا تفـكر فى الإنسان وكيف منح العقل والفـكر والخيال والتصور وسائر القوى التى حضه الله بها وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

إذا تدبر المؤمن قول الله تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لـكيلا تأسوا على ما فاتـكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) أيقن أنه تعالى لا يبرأ الخلق إلا على مقتضى ما جرت به مشيئته وسبق به علمه الأزلى . فالبارىء سبحانه علم فى الأزل قبل أن يخلق السموات والأرض وما بينهما ما هو بارىء من ذلك الحين إلى أن يرث الأرض ومن عليها ويطوى السماء كطى السجل للـكتب .

علم سبحانه أنواع البرايا وأجناسها ، وألوانها وأجراسها ، ولحاتها وأنفاسها وحركاتها وسكناتها ، وغدواتها وروحاتها ، ومبتدأ خلقها ومصير أمرها وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين .

إذا ذكر المؤمن كل هذا صدق إيمـانه ببارئه وصح إسلامه له وزاد إقباله عليه وتوجهه إليه ، وثقته به وأيقن أنه وحده المعين والناصر والمغيث والرازق والضار والنافع فقطع كل سبب بينه وبين الخلق — إلا ما أمر الله به أن يوصل — وأخلص دينه لله . وعبده وحده لا شريك له واعتقد أن الأمر منه وإليه وأنه له الخلق والأمر فلا تحزنه

مصيبة ولا تبطره نعمة . وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون .

٢٤ — المصوِّر

اسم فاعل من التصوير وهو عمل الصورة ، وهو بالنسبة لبارىء الكائنات إعطاء كل شيء من المخلوقات صورة خاصة يتميز بها من غيره .

والصورة هى الشكل الذى يتميز به الشيء . وهى نوعان : حسية تدرك بالحواس ، ومعنوية تدرك بالعقل .

فالأولى تدركها العامة والخاصة . بل يدركها الإنسان وكثير من الحيوان كصورة الفرس والثور والنهر فكل إنسان يميز بعض هذه الكائنات من بعض بصورها . وبعض الحيوان يميزها كذلك ، فنجد الحصان يألف الفرس لأنه يميزها من غيرها ، وفصيل الناقة يميز أمه من غيرها فيلتمس ضرعها ؛ والنمرة تعرف صورة الفأرة وتميزها من غيرها ، والحيوان يميز النبات الذى هو غذاؤها وهكذا .

أما الصورة المعنوية فلا يدركها إلا الخاصة كالصورة التى اختص بها الإنسان من العقل والروية ؛ وكالمعانى التى تختص بها بعض الكائنات كاختصاص الجمل مثلا بالصبر على الظمأ أياماً ، وإلى هذين النوعين من الصور أشار المصور سبحانه بقوله تعالى فى سورة آل عمران: (هو الذى يصوِّركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم:٦) فهو سبحانه يشير إلى قدرته على منح الصورتين الحسية والمعنوية جميعاً أى صورة الجسم وصورة النفس ، كيف يمنح الجنين فى رحم أمه صورته الحسية التى سيكون عليها والتى يتميز بها من سواه وكيف تمنحه الصورة المعنوية فيجعله ذكياً أو غبياً ، رشيداً أو سفيهاً خيراً أو شريراً عالماً أو جاهلا ؛ مؤمناً أو كافراً إلى غير ذلك من الصور المعنوية التى يمتاز بها الناس بعضهم من بعض .

ومما يتصل بالصورة الحسية لون البشرة والعينين والشعر ؛ وملامح الوجه وسعة

العينين أو ضيقها ، حورها أو شهلتها ، ورقة الحاجبين أو كثافتها ، واتساع الجبين أو ضيقه ، وصغر الأنف أو كبره ، واستقامته أو فطسه ؛ وغلظ الشفتين أو رقتها ، وفلج الأسنان أو التصاقها ؛ إلى غير ذلك مما يطول به الكلام إذا استوعب وليس إلى استيعابه من سبيل ذلك إلى أن هناك مميزات تمتاز بها الصور ولا تكاد تجدد عبارة تعبر عنها فسبحان المصور القادر الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته التى لا تحصى صوره خاصة يعرف بها وتعرف به ولا يخفى عليه من كل هذه الصور ولا من دقائق تفاصيلها شيء .

هذا ومما يتصل بالصورة المعنوية للإنسان رضا النفس ، ودقة الحس . ورقة الشعور وحدة الذهن ، وصفاء الطبع ، وأضداد هذه الصفات المعنوية التى يمتاز بها إنسان من إنسان ، ويعرف بها شخص من آخر .

هذا ولم أذكر من الإنسان إلا أبرز أعضائه الظاهرة ، وخواصه الواضحة فكيف إذا ذكرت الأعضاء الباطنة من القلب والرئتين والقصبة الهوائية والحجاب الحاجز والمعدة والأمعاء والكبد والطحال والبنكرياس والكليتين والغدد الصماء وغير الصماء والشرايين والأوردة والمخ وغير ذلك من دقيق الأعضاء وجليلها وما هو خاص منها بالذكران وما هو خاص بالأناث وما هو مشترك بينهما . وكيف إذا ذكرت مختلف العواطف وألوان الأحاسيس والمشاعر ولكل من هذه المذكورات صورة خاصة جل مبدعها وتعالى مصورها .

وهو وحده المصور سبحانه فهما نحاول أن يكون لك ولد على صورة خاصة أو هيئة تستحسنها ، أو شكل تحبه فلست بمستطيع إلى ذلك سبيلا فهو يصور فى الرحم كيف يشاء الناس ، ويهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وأناثاً ليس فى وسع امرىء أياماً يكن علمه وفضله أن يجعل الذكر أنثى أو العكس ؛ فذلك تصوير المصور الحكيم وحده .

ولا تظن أن التصوير ينتهى بخروج الجنين من ظلمة الرحم وتفتح عينيه لنور الحياة بل لا يزال المصور الحكيم يتابع تصويره حتى يفارق الحياة وتتفرق أجزاؤه فصورة الطفل الوليد غير صورة الفطيم وصورة الصبى المراهق غير صورة الشاب وصورة الشاب غير صورة الكهل وغير صورة الشيخ الفانى ، فسبحان المصور الذى لا يخفى عليه شىء .

ولقد امتن سبحانه على الإنسان بهذه الصورة الجميلة التى ركبه فيها فقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين : ١١ الأعراف) فبين سبحانه أنه قدر المادة اللازمة لتكوين الإنسان ثم صور هذه المادة فى الهيئة الخاصة والشكل الذى أراد أن يجعل عليه الإنسان .

وقال تعالى فى سورة التغابن (خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير . ٣) فدل سبحانه على أنه صور الإنسان فى أحسن صورة وأعدلها ، ولم يجعله مكبا على وجهه كسائر الحيوان ولم يجعله ماشياً على أربع ، ولو أنك استعرضت فى تخيلك صور سائر الحيوان لوجدت صورة الإنسان أحسنها وأجملها وأعدلها . ولو منح الإنسان حرية الاختيار ما اختار إلا الصورة التى ركبه الله فيها ، إذ ليس فيها شىء يستطيع الإنسان أن يقول فية ليته لم يكن وليس ينقصها شىء يستطيع الإنسان أن يقول: ليته كان .

هذا وإذا نظرت إلى غير الإنسان من أنواع الحيوان والطير والحشر والدود والسمك وحيوان الماء التى لا يحصيها عد ولا يدركها حصر لراعك ما ترى من اختلاف الصور والأشكال والهيئات ، ولبهرك هذا التنوع العجيب والاختلاف الغريب الذى لا يقدر عليه إلا الخلاق العليم المصور الحكيم سبحانه

ولو أنك نظرت إلى النبات والشجر ورأيت كيف صوّر ربك جذوعها وفروعها وأوراقها وأزهارها وثمارها وحبها ونواها لهالك ماترى من دلائل قدرة الخلاق العليم ولهتفت من أعماق صدرك قائلا لا إله إلا الله !! الله أكبر ، ولله الحمد .

أين أنت من آياته تعالى فى تصوير الكائنات الدقيقة التى لا تراها العين المجردة ؟ فيم أنت من تصور هذه الجراثيم التى صورها الخالق الحكيم وجعل لكل منها صورة خاصة مميزة . كل نوع من أنواع الحمى تسببه جرثومة خاصة صورها المصور الحكيم وجعل لها صورة تميزها من غيرها ، وقد وصف لنا العلماء الذين استطاعوا أن ينظروا إليها بمناظيرهم المعظمة ما هيأ لهم العلم وصفه من صورها ؛ وإن كان قد خفى عليهم من صورها أكثر مما علموا .

ولا تنس القواقع والأصداف واللؤلؤ والمرجان والأسفنج وغيرها من مخلوقات الخلاق العليم التى امتاز كل منها بصورة خاصة تميزه من غيره .

وإذا اجتليت طلعة الشمس فى النهار ، ورأيت القمر بالليل . ثم نظرت إلى نجوم السماء فى ليلة حالكة وحاولت أن تخلص منها ما يلوح لناظريك ، فتبين لك العجز لأدهشك ما ترى من آثار قدرة المصور العظيم الذى أعطى كل كوكب صورته وكل نجم هيئته وشكله .

وإذا انتقلت من العالم المادى إلى العالم الروحى وأرسلت رائد الفكر إلى الكائنات الروحية ، كالجن والشياطين التى لابد أن لكل منها صورة غيبية روحية يمتاز بها من غيره من عالمه لراعتك قدرة المصور الحكيم سبحانه الذى جعل الملائكة رسلًا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء .

لو أنك فكرت فى مخلوقات ربك التى عبر عنها بالكلمات فى قوله تعالى فى سورة لقمان : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم : ٢٧) لأشرق عليك فيض من أنوار المعارف الإلهية يكشف لك جانباً من قدرة المصور الحكيم الذى ما قدره العباد حق قدره ؛ ولقلت كما قال الله تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك ، فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك : ٨ : ٨٢) .

وهنا موضع العبرة : لم يبق موضع للشك فى أن الله وحده هو المصور لا يشاركه فى ذلك شىء فلنقف قليلًا للتأمل والذكرى .

ما بال كثير من نساء المسلمين يهتفن بأسماء أصحاب القبور ، يرجون منهم هبة الذرية وينذرون لهم الذبائح ، ويشدون إلى قبورهم الرحال وهن يعلمن أنهم لا يخلقون ولا يبرءون ولا يصورون . وأن الله وحده هو الخالق البارىء المصور .

وإذا كان الجهل هو الذى سول لهن ذلك فلمَ لا ينصح لهن الأزواج والآباء والإخوة وهم يعلمون أنهم مطالبون شرعاً بإرشادهن إلى طريق الحق . وقد قال تعالى فى سورة التحريم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون : ٦) .

قد يعتذرن ويعتذر معهن أولياؤهن بأنهن يطلبن النسل من الله تعالى لامن أصحاب القبور ، ويقمن فى نذرهن : ياسيدى فلان لئن يرزقنى الله غلاماً لأذبحن لك كبشاً ، فهى تعتقد أن الله هو الذى يرزق الذرية .

ونقول فى الرد على هؤلاء : إذا كانت تعتقد أن الله هو الذى يرزقها الغلام ، فما شأن سيدها فلان هذا ؟ .

وماذا يعمل حتى يستحق هذا الكبش ؟ أهو الذى يخلق ؟ أهو الذى يصور ؟ أهو الذى يرزق ؟ فبم يستحق هذا النذر إذاً ؟ .

وهل نسيتم أن نداءها لسيدها فلان شرك . إذ فيه اعتقاد أنه يسمعها إذ تدعوه ، ويستجيب دعاءها . وذلك من شئون الله وحده فنسبته لغيره شرك وظلم عظيم .

وقد يقولون : إنه يدعو الله لها فيستجيب له . ونقول : إن هذه دعوى بغير برهان فإنه الآن فى حال لا يقدر فيها على الدعاء فقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا مات ابن آدم انقطع عمله .

ولا جرم أن فلانا هذا من أبناء آدم . وقد مات فانقطع عمله . والدعاء من العمل وإذا كان العمل قد انقطع فقد انقطع الدعاء كذلك .

وإذ قد ثبت أنه لم يعمل شيئاً ليستحق به أن يذبح له هذا الكبش فلمَ تحرم هذا الكبش على نفسها وزوجها وأبنائها لتحله لسدنة هذا الميت الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .

قد يقولون : إن النذر لله والثواب للشيخ . ونقول : إن هذه ضلالة أخرى فبماذا يستحق هذا الثواب . وما الصلة التى يمت بها إليكم ليستوجب منكم أن تنزلوا له عن ثوابكم ؟ . وهل علمتم من الحسنات ما يغنيكم ثوابه عن طلب المزيد حتى تتبرعوا بثوابكم لهذا الشيخ وهو فى اعتقادكم عظيم الحظ من الثواب . ومن أنبأكم أن الله قبل نذركم هذا وأثابكم عليه فأنتم تتبرعون بثوابه . ومن أنبأكم أن الصك بهذا الثواب قابل للتحويل . ومن أنبأكم أن هذا الصك له رصيد .

دعوا هذه الخزعبلات واتركوا هذه الخرافات واعلموا أن الله تعالى أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيره تركه وشركه فمن كان مضطراً فليدع الله وهو جدير بأن يستجيب دعوته فقد قال وقوله الحق (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ٦٢ : ٢٧)

كل اسم من أسمائه الحسنى كاف لو تدبره العقلاء لأن يهديهم إلى توحيده والانصراف عن سواه فتدبروا أسماءه الحسنى وأقبلوا على مولاكم ، وادعوه مخلصين له الدين يقبل عليكم بالرضا والقبول ويؤتكم من لدنه رحمة ويهيىء لكم من أمركم رشداً

١٨ — الرزاق

فى القاموس المحيط : الرزاق ما ينتفع به كالمرتزق والمطر ، ورزقه الله أوصل إليه رزقا .

وفى مفردات الراغب . الرزاق . يقال للعطاء الجارى تارة ، دنيويا كان أم أخرويا ، وللنصيب تارة ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة . والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له وهو الله ويقال للإنسان الذى يكون سببا فى وصول الرزق . والرزاق لا يقال إلا الله تعالى .

وفى النهاية لابن الأثير : الرزاق الذى خلق الأرزاق ؛ وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم . والأرزاق نوعان : ظاهرة للأبدان كالأقوات ، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم . اهـ

هذا ما جاء فى هذه المعاجم ، ونستطيع على ضوء هـذه النصوص أن نفسر اسمه تعالى الرزاق : بأنه الذى يكثر من خلق أسباب الحياة المادية والمعنوية . وهبتها للأحياء وإيصالها إليهم .

وإذا أراد القارىء الكريم أن يلم على التحقيق بمعنى هذا الاسم الجليل فليرسل رائد الفكر والنظر إلى ملكوت السموات والأرض ليرى صوت الأحياء على الأرض وفى الماء والهواء ممن يمشى على بطنه ومن يمشى على رجلين ، ومن يمشى على أربع وينظر كيف قدر الله أرزاق هذه الخلائق جميعاً ، وكيف خلق هذه الأرزاق ، وكيف سبب الأسباب ليوصلها إلى المرزوقين .

إن التفكير فى الأرزاق التى تصل الأحياء فى لحظة واحدة ليدهش العقول ويحير الألباب فكيف بما يصل منها فى يوم ؛ وما يصل منها فى شهر ، وما يصل منها فى سنة . وما يصل فى الآجال الطويلة . بل كيف بأرزاق الأحياء جميعاً منذ بث الله الخليفة على الأرض إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . بل كيف بأرزاق أهل الجنة التى تجمع الأولين والآخرين الذين يأتيهم رزقهم فيها بكرة وعشيا .

سبحانه جعل لكل حى غذاء خاصا يوافقه ويقيم أود حياته ، وجعل أعضاءه موائمة لهذا الغذاء لا تصلح لغيره . فانظر إلى ذات المخالب والمناسر من جوارح الطير كالنسر والباشق والصقر والبازى ، وإلى ذوات الأنياب والبراثن من كواسر الوحش التى تغتذى باللحوم ، وإلى ذوات المناقير التى تغتذى بالحب ، وإلى آكلات العشب والدود والحشر ، وإلى طاعمات الفاكهة والثمر ، وإلى هذه الطفيليات التى تغتذى بدماء ما تعيش على جسمه من الحيوان ، وإلى الإنسان الذى يغتذى بالحيوان والنبات

والمعدنيات ؛ ثم انظر كيف نوع الله غذاء الإنسان وكيف سخر له النحل تمنحه شرابا مختلفاً ألوانه ؛وكيف سخّر له الأنعام تعطيه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين.

قال تعالى فى سورة النحل (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ٦٦ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ٦٧ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ٦٨ ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ٦٩) .

وقد تفضل سبحانه فأوضح لنا بفضله ورحمته كفالته لأرزاق خلقه فقال تعالى فى سورة هود (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ٦) وقال تعالى فى سورة العنكبوت (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ٦) .

الرزق علم الوحدانية

جعل الله تعالى رزقه لخلقه على كثرتهم وتنوعهم واختلاف ألوان أرزاقهم دليلا على وحدانيته ونفى الشريك عنه إذ لا رازق سواه . قال تعالى فى سورة يونس (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ؛ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر فسيقولون : الله فقل : أفلا تتقون ٣١ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فانى تصرفون ٣٢) .

وقال تعالى فى سورة الروم (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ٤٠) .

وقال تعالى فى سورة العنكبوت (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ١٧) .

وقال تعالى فى سورة الذاريات : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ٥٨) وقال تعالى فى سورة الملك : (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ٢١) .

وما أنصع هذه الحجة ! وما أسطع هذا البرهان ، ولو أن الذين يحاولون أن يستدلوا على وحدانية الله تعالى من هؤلاء الذين كتبوا فى علم الكلام — لجئوا إلى القرآن الكريم وقبسوا من أدلته وأفادوا من حججه إذاً لوضحت لهم السبيل ، ووصلوا إلى الحق من أقرب طريق .

ولو تدبر الذين يلتمسون الرزق من قبور الموتى هذه الآيات وأمثالها لقنوا الحياء وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له ، وعلموا أن الرزق بيده وحده فابتغوه عنده مخلصين له الدين ، وأقلعوا عن الشرك الذى كانوا فيه متورطين .

« بقدَر »

علم الرزاق ذو القوة المتين أن الإنسان يطغى إذا استغنى ، وأن الناس يبغون فى الأرض إذا بسطت لهم الأرزاق ، فأنزل الرزق بقدر ، ووزعه على الناس بحكمة ، وبسطه لفريق ، وقدَره على آخر ليتم عمران هذه الدنيا بتمام التعاون وبين الناس ووجود فقراء يعملون للأغنياء ، وأغنياء يسخرون الفقراء ، وأولى طول يؤتون الذين لا يجدون ما ينفقون ، وأولى مسبغة يتقبلون صدقات الواجدين أولى السعة ، وبذلك يكمل التواد والتراحم والتعاطف بين الناس فيتعارفون ويتعاونون على البر والتقوى

قال تعالى فى توضيح هذه السنن الحكمية . (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خبير بصير ٢٧ : الشورى)

وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم : ٦٢)

وقال تعالى فى سورة النحل : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ٧١) .

وقال تعالى فى سورة الزخرف : (أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا . ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ٣٢)

سنن الرزاق فى الرزق

جعل الرزاق سبحانه للرزق أسباباً حسية وأسباباً معنوية . فمن الأسباب الحسية العمل والسعى وقد مضت سنته سبحانه أن يسعى الأحياء فى طلبه والتماس أسبابه قال تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) فقد أمر سبحانه أن ينتشر الناس فى الأرض ويبتغوا الرزق من وجوهه .

وقال (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) .

وقال عليه الصلاة والسلام (لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً) فدل على أن الطير لا يأتيها رزقها وهى جاثمة فى أعشاشها ولكنها تغدوا جياعاً وتبكر فى التماس رزقها متوكلة على الله الذى خلقها وكفل رزقها وهى لا تملك حرفة ولا صناعة ولا ضيعة ولا مزرعة ، ثم تعود بعد هذا السعى والبحث وهى ممتلئة البطون شبعا .

تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولا تستخفنك هذه الألفاظ الخداعة التى تسمعها من هؤلاء المتصوفة الذين يكسلون ويأمرون الناس بالكسل والقعود عن الرزق لأنهم عالة متسكعون يعيشون على عمل غيرهم كالطفيليات التى تعيش على دماء غيرها وليس لها من عمل إلا الأذى والمضرة . ومع هذا فهم يضربون فى الأرض وينتقلون من بلد إلى بلد ومن بيت إلى بيت ولو كانوا

مؤمنين بما يقولون للزم كل منهم عقر داره وانتظار الرزق الذى يطلبه كما يطلبه الأجل فإن قيل : فإن الله تعالى يقول (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) قلنا : صدق الله العظيم . ومن أدرى هذا السكسول القاعد أنه من الذين يشاء الله أن يرزقهم وهم نائمون وكيف غفل هذا العاجز المتوانى عن سنة الله وحكمته . وهل نسى أن الله تعالى لا يشاء ما ينافى حكمته أو ينقض سنته . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن الأسباب المعنوية التقوى . فالذين يتقون الله يهيء لهم من أسباب الرزق أموراً لا يقدرونها ولا تدخل فى حسباتهم .

قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) ولا تنس أن من التقوى السعى فى طلب الرزق . ولعلك تذكر ذلك الرجل الذى حدث الصحابة عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنه ينفق جميع أوقاته فى عبادة الله تعالى فلما سألهم عمن ينفق عليه قالوا كانا ننفق عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلكم أعبد منه .

غير أن أرزاق الدنيا ليست مقياساً للتقوى فقد ترى فى الدنيا كافراً ذا سعة ومؤمناً مقدوراً عليه رزقه ، وذلك بحسب ما يتخذ كل من الأسباب الجالبة للأرزاق والحكمة يستأثر بسرها العليم الخبير سبحانه .

قال تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين) .

حق الرزاق

أما حق الرزاق على عباده المرزوقين فأن يقوموا بشكره على نعمه وأن يؤدوا حق رزقه . والشكر الحق للرزاق أن ينفقوا كل نوع من أنواع الرزق فيما رزق من أجله ، وبهذا يكونون شاكرين للرزاق جل شأنه مستوجبين المزيد من فضله . والشاكرون

بهذا المعنى قليل ، ولذلك يقول الله تعالى : (وقليل من عبادى الشكور) .

والله تعالى يأمر عباده المرزوقين أن يؤدوا حق رزقه . وأن يشكروا له قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) .

وقال تعالى (والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) وقال تعالى (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) .

يَرزق ولا يُرزق

والله سبحانه كفل الرزق لخلقه ، ولم يخلقهم لحاجة إليهم ، ولكنه خلقهم ليكونوا مظاهر لأسمائه الحسنى وصفاته العلا وليطهر أرواحهم بعبادته قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقال تعالى (وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) .

خصيم مبين

فضل الله تعالى بعض الناس على بعض فى الرزق وأمر الأغنياء وأولى الطول أن يعودوا بالعفو على الفقراء وأولى الخصاصة ، ولكن فريقا مما يأكلون رزق الله ولا يؤتون حقه إذا سئلوا الفضل من أموالهم ملك الشح عليهم أمرهم ، وأثار فى أنفسهم روح الخصومة ، والجدل فقالوا : كيف نعطى من حرمة الله ، وكيف نطعم من أجاعه الله ؟ وقد نبأنا الله تعالى من أخبارهم فقال : (وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا فى ضلال مبين : ٤٧ يس) .

وفى السماء رزقكم

والمطر أصل الأرزاق جميعاً فهو مادة الحياة التى تصحح الانتفاع بجميع المواهب الإلهية التى يفيضها الرزاق الكريم على من يشاء من عباده قال تعالى : (وفى السماء رزقكم وما توعدون : ٢٢ الذاريات) وقال تعالى (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ٣ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ٤ واختلاف اليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ٥) .

الرزق الخالد

وخير الأرزاق وأسماها ، وأكثرها وأرقاها ، وأسرفها وأبقاها ؛ ما أعده الله تعالى لعباده الصالحين فى جنات النعيم من سدر مخضود ، وطلح منضود ؛ وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، وأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنها من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وغير ذلك مما تشتهيه الأنفس ؛ وتلذ الأعين ؛ مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون ٢ : ٢٥) وقال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين) وقال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وقال تعالى: (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

الشكر يزيد الرزق والكفر يمحقه

اقتضت سنة الله تعالى أن يكون الشكر وهو توجيه كل لون من ألوان الرزق

إلى الجهة التى منح من أجلها — سبباً فى المزيد من فضل الله ؛ وأن يكون الكفر وهو عكسه ماحقاً للأرزاق قال تعالى (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وقال تعالى (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

عند الرزاق تُبْتَغَى الأرزاق

إن المؤمن الذى أخلص لربه فى العبادة ؛ وجرد توحيده ؛ واعتقد اعتقاداً يملأ قلبه أن الأرزاق بيد الله وحده — لا يبتغى الرزق إلا عند الله تعالى . قال تعالى (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له ؛ إليه ترجعون) وهذه أدعوات الأنبياء قصها الله علينا لنقتدى بهداهم ولنعرف الفضل لأهله ولا نبتغى الرزق عند غير الرزاق الكريم سبحانه قال تعالى فى سورة المائدة (قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) وقال تعالى فى سورة البقرة (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) . ونسأل الله الكريم الرزاق أن يرزقنا من خيرى الدنيا والآخرة ما تطيب به حياتنا وتصلح به آخرتنا إنه خير الرازقين .

١٩ — السميع

السمع بالقياس إلى المخلوقين : حس الأذن ، أو هو قوة فى الأذن ندرك بها الأصوات .

والأذن : عضو عجيب الخلقة دقيق التركيب ، معقد أشد التعقيد ، يتألف من

أجزاء دقيقة ، لها فى علم وظائف الأعضاء أسماء متنوعة ، كالطبلة والدهليز ، والقنوات نصف الهلالية ، والعصب السمعى وغيرها .

وطبلة الأذن غشاء رقيق يستقبل ذبذبات الهواء ، وينقلها فى سلسلة معقدة من العظيمات الدقيقة التى تكبرها ثم تنقلها إلى التيه الذى ينتشر فيه العصب السمعى وهذه السلسلة تتألف من نحو ٤٠٠٠ قوس دقيقة ، هى الأوتار التى تعزف عليها مزيداً من التوضيح ، فى كتب التشريح .

ويطلق السمع مجازاً على الطاعة والفهم . تقول : أرشدت المبتدعين إلى سبيل الحق ، فلم يسمعوا . أى لم يطيعوا . ودعوتهم إلى السنة فقالوا : سمعنا وعصينا أى فهمنا قولك ، ولكنا خالفناه ولن نأتمر به .

ويطلق كذلك على تصور المعنى والتفكير فيه . كما قال تعالى فى شأن ذرء جهنم (ولهم آذان لا يسمعون بها) إذ ليس المراد أن آذانهم لا تحس الأصوات ولا تدرك الأجراس ، ولكن المراد : أنهم لا يتصورون ما يسمعون ، ولا يفكرون فيه لينتفعوا به ، فكأنهم لا يسمعون لفقدانهم فائدة السمع . قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

أما السمع بالنسبة إلى رب العزة المنزه عن الجوارح ومشابهة الخلق فمعناه : إحاطته تعالى بالأصوات مهما تكن مصادرها ، ومهما تكن أوصافها ، وبالألفاظ ومدلولاتها ، وبالكلمات ومعانيها ، وبالحروف ومخارجها وصفاتها ، من همس وجهر ، وشدة ورخاوة ، واستعلاء واستفال ، وانطباق وانفتاح ، وإذلاق وإصمات ، وتكرر وقلقلة ، ولين وانحراف ، ونفش واستطالة ، وغير ذلك مما يعتور الحروف من صفات وأحوال . وبالجمل وما تعبر عنه من دعاء وابتهال ، وتهليل وتسبيح ، وحمد وشكر وثناء ، وتذكير وتقديس ، وتنزيه وتوحيد ، أو شرك وإلحاد وفسوق

وكفر ، أو حب وبغض ، ورضا وسخط ، وشعر ونثر ، وقرآن وسجع وترسل ، وخطب ورسائل ، وسر وجهر .

ولا يقف سمع الله تعالى عند ما تنطق به الشفتان ، أو يتحرك به اللسان ، بل يتجاوز ذلك إلى الإحاطة بمـــا تهتف به الضمائر ، وما تفاجى به السرائر ، وما يجول بالخواطر ، وما يتمثل فى الأحلام ، أو تدب به الأمانى ، أو تصوره الأوهـام .

أثبتت العلوم الطبيعية أن ذبذبات الأصوات تبلـغ ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سلم (ثلثمائة بليون سلم) يدرك سمع الإنسان منها ١١٫٥ أحد عشر سلماً ونصف سلم من أوسطها ، ولا يمتد إدراكه إلى ما فوقها . ولا إلى ما تحتها لأنها تقع إما فوق مدى إدراكه وإما تحته فلا يبلغها سمعه .

أما ذو العزة والجبروت سبحانه فهو يسمع كل الذبذبات التى استطاع العلم ـ علم المخلوقين ـ أن يكشفها ، والتى عجز سمعه عن بلوغها .

تفتقر أسماع المخلوقين إلى مادة تنقل إليهـا الأصوات كالهواء أو الأثير . فاذا لم تسعدهم هذه المادة حرموا سماع الأصوات ولو كان مصدرها على كثب منهم .

أما السميع العليم سبحانه فإن سمعه يتصل بالمسموعات ، بغير وسيط ولا معين .

أسماع المخلوقين ذات طاقة محدودة تختلف قوة وضعفا باختلاف ما منحهم الله تعالى ، ولـكنها تقف عند حد خاص لا تتجاوزه ولا تعدوه ، وأما سمع الله تعـالى فلا يقف عند حد ، ولا يعتاص عليه مسموع ، سواء أكان تحت أطباق الثرى ، أم فى السموات العلا . يستوى عنده سبحانه بعيد الأصوات وقريبها ، وقويها وضئيلها ، وصحلهـا ورخيمهـا .

لا يسمع المخلوقون إلا بحاسة محدودة القوى ، ضعيفة الأثر ، أما ربنا سبحانه فإنه يسمع بغير حاسة ولا جارحة ، ولا يعييه مسموع ، ولا يعجزه صوت فى السموات ولا فى

الأرض . ولا فى أى عالم من العوالم التى لا يحيط بها علما إلا الله السميع العليم .

لا يستطيع الإنسان أن يسمع متكلمين فى وقت واحد سماع تدبر وفهم . إذ يشغله تدبر كلام أحدهما وفهمه عن فهم كلام الآخر وتدبره . أما رب العزة سبحانه فلو تكلم من فى السموات والأرض كلهم جميعاً فى وقت واحد لأحاط علما بكل ما يقولون، ووسع سمعه كل ما به ينطقون . لا يشغله سماع كلام أحدهم عن سماع حديث غيره ، ولا تفوته من كلام أحدهم لفظة ولا حرف ، ولا نأمة ولا نبرة ، ولا يشغله زجل الملائكة عن عزيف الجن ، ولا هدير الموج عن حفيف الشجر ، ولا زفيف الريح عن وقع المطر ولا دبيب النمال عن زحف الحشر ، ولا حس نمو النبات عن همس تفتح الزهر ، ولا تكسر الأمواج عن جريان النهر .

ألم يبلغ سمعك صوت خذدوف الصبي حين يدبره حول نفسه بطريقته الخاصة وهو يلهو ويلعب ؟ ألم تسمع أزيز الطائرة وهى تحلق فى أجواز الفضاء ذاهبة كل مذهب ؟ إن لحركات الكواكب والنجوم السابحة فى جو السموات العلا لدويا هائلا يصم الأسماع. لو قدر لآذاننا أن تسمعه لكان دونه كل دوى ، ولفنى فى ضجيجه كل ضجيج ، ولما استطعنا أن نسمع مادونه من الأصوات ، ولكن رحمة الله بنا حالت دون سماعنا إياه بتغييب الوسيط الذى ينقله إلى أسماعنا . أما رب العزة السميع العليم فيسمع كل صوت وإن خفت وكل صيحة وإن علت ، سواء عليه النجوى والضجيج ، والهمس والعجيج .

« السميع » صيغة مبالغة تدل فى العربية على الكثرة ، وباعتباره اسما لرب العزة سبحانه : يدل على كثرة السمع فى ذاته أى على قوة السمع ، بحيث لا يفلت منه مسموع وتدل كذلك على كثرة أنواع ما يسمع ، بحيث يسمع مالا يتسنى لغيره تعالى أن يسمعه .

وقد ورد هذا الإسم العظيم فى القرآن الكريم مقارنا لاسمه تعالى « العليم » تسعا وعشرين مرة ، ومقارنا لاسمه تعالى البصير سبع مرات ، للأشعار بأن السمع علم بالمسموعات

والبصر علم بالمبصرات ؛ يدل على هذا : أن الله تعالى ذكر النجوى ـ وهى الحديث ـ الخفى ـ بسبيل الاخبار عن علمه بما فى السموات والأرض فقال تعالى (ألم تر أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض ؟ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ٧ ـ المجادلة) فهو سبحانه رابعهم وسادسهم ومعهم بعلمه وسمعه لا يغيب عن سمعه همس النجوى ، ولا يخفى عليه تخافت المسارة .

وقد عبر تعالى عن السمع بالعلم فى بعض المواضع من القرآن . فقال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ٧ ـ طه) . وقال تعالى : (إنه يعلم الجهر وما يخفى ٧ ـ الأعلى) .

جل شأن ربنا سبحانه ؛ أسمع به وأبصر ! وقد أخبر سبحانه أنه يسمع شكوى الشاكى ومجادلة المجادل ما أسر وناجى ، فقال تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ١ ـ المجادلة) .

وأخبر أنه يسمع ما يلقيه الكفرة على عواهنه من منكر القول وزوره بغير تبصر ولا تدبر . فقال تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ماقالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ؛ ونقول : ذوقوا عذاب الحريق ١٨١ ـ آل عمران) وقال لموسى وهرون (إنى معكما أسمع وأرى) (فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) .

أماحظ العباد من هذا الاسم الكريم : فهو أنهم إذا صح إيمانهم به قنوا الحياء ، فلم ينطقوا بالسوء من القول ، ليقينهم أن الله يسمع ويحصى عليهم ما يقولون ، ولعلمهم أن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم .

إذا صح إيمان العبد بهذا الاسم الكريم لم يحدث نفسه بشر ؛ لأن كل شر يقترف يسبقه حديث نفسى ، يوسوس به الهوى ؛ ويغرى به الشيطان ، ويمهد لوقوع الجريمة

والله يسمع حديث النفس ، كما يسمع حديث اللسان .

إذا صح إيمان العبد بهذا الإسم من أسمائه تعالى الحسنى اجتنب كواذب الإيمان ، اليقينه أن الله تعالى يسمع عبده وهو يقسم باسمه حانثاً متعمداً غير مبال ولا حافل بعظمة الله، وجلاله ، وقدرته وشديد بطشه وانتقامه .

إذا صدق إيمان العبد بهذا الإسم الكريم ذكر ربه فى نفسه تضرعاً وخيفة ، لعلمه أنه لايدعو أصم ولا غائباً ، وإنما يدعو سميعاً قريباً .

إذا صدق إيمان الناس بهذا الإسم العظيم مارأينا هذه الحلقات التى يقوم فيها جماعة من المفتونين تهتز قاماتهم كاهتزاز الأغصان اللدنة تحت العواصف الثائرة ، ينبحون كما تنبح الضوارى ، أو يخورون خوار الثيران ، حتى إذا أدركهم النصب والأعياء فحوا كفحيح الأفاعى ، وهم يزعمون أنهم بهذر المهرورين يذكرون رب العالمين ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

لو صدق إيمان الناس بهذا الإسم العظيم ماسمعت هؤلاء الذين يقفون على قبور الموتى مناجين هاتفين ، ويغفلون عن دعاء السميع العليم .

ياعجباً لغفلة الإنسان ! يترك السميع العليم الذى يعلم السر وأخفى ، وينادى من لايستجيب له إلى يوم القيامة ، وصدق الله إذ يقول (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ؟ وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

أيها الناس ، ادعوا ربكم السميع العليم دعاء خفياً رغباً ورهباً ، كما كان يفعل الأنبياء ودعوا هؤلاء الذين (إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير) .

٢٠ — البصير

يطلق البصر فى اللغة على ثلاثة معان :

الأول : الجارحة الناظرة وهى العين . كما قال تعالى : وما أمرنا إلا كلمح بالبصر أى بالعين .

الثانى : حس العين وقوة الإدراك التى وضعت فيها .

الثالث : الفطنة وقوة القلب المدركة التى يقال لها البصيرة .

وسنشرح هذه المعانى الثلاثة لنعلم . هل يصح إسناد شىء منها إلى رب العزة سبحانه فالعين كرة تتألف من ثلاثة أغشية بعضها وراء بعض وهى

الصلبة أو بياض العين ، والعينية والشبكية .

الصلبة غشاء أبيض كثيف سميك ، به من الخلف ثقب يسمح بمرور العصب البصرى إلى الدفاع ، وجزؤه الأمامى شف يسمى القرنية الشفة والعينية طبقة سوداء تخترقها الأوعية الدموية التى تغذو مقلة العين، وجزؤها الأمامى الذى يرى وراء القرنية الشفة يسمى القزحية . وتختلف ألوان القزحية باختلاف الأفراد فتكون فى بعضهم سوداء ، وفى بعضهم زرقاء... ومنها تستمد العيون أوصافها فيقال . عين سوداء ، وعين زرقاء ، وعين عسلية الخ . وفى وسط القرنية ثقب يسمى : الحدقة يسمح بدخول الأشعة الضوئية فى داخل العين . وتتسع الحدقة ، وتضيق طوعاً لمقدار الضوء الذى يمر بها ، فتضيق إذا كثر الضوء لتدخل منه بقدر ، وتتسع إذا قل . ومن أجل ذلك إذا كان الإنسان فى ضياء شديد ثم دخل فجأة مكاناً مظلماً فإنه لايكاد يرى شيئاً ، ثم تأخذ الأشياء فى الظهور قليلا قليلا كلما اتسعت الحدقة وسمحت بدخول قدر كاف من الضوء .

ووراء القزحية عضو له شكل العدسة يسمى العدسة البلورية يقسم مقلة العين من الداخل إلى قسمين غير متساويين : أمامى وخلفى ، فالأمامى وهو الصغير مملوء سائلا رقيق

القوام شفاف يسمى الرطوبة المائية ، والخلفى وهو الكبير مملوء سائلا غليظ القوام شفافا أيضاً ويسمى الرطوبة الزجاجية .

والشبكية وهى الطبقة الأخيرة تتكون من تفرعات العصب البصرى وهى الجزء الحس من العين .

فإذا صرفنا البصر تلقاء شيء من الأشياء فإن أشعة الضوء الواقعة على هذا الشيء تنعكس عنه إلى العين وتخترق القرنية الشفة ، وتجتاز الحدقة ، وتمر بالرطوبة المائية ، والعدسة البلورية والرطوبة الزجاجية ثم تلقى على الشبكية صورة الشيء الذى وقعت عليه العين ، فتنقلها الأعصاب إلى الدماغ الذى هو المركز العام للحس .

ولا يستمر أثر الصورة فى الشبكية طويلا ، بل يزول بزوال الشيء الذى أحدثه ، ولكنه لايزول سريعا . يدلك على ذلك أنك إذا أشعلت عود ثقاب ثم أدرته أمامك بسرعة فإنك ترى دائرة تتحرك ، ولا ترى نقطاً متعاقبة .

ومن الناس من يرى الأشياء القريبة ، ولا يرى البعيدة ويسمى قصير النظر ويستعين على إصلاح نظره بمنظار ذى عدسة مقعرة . ومنهم من يرى الأشياء البعيدة . ولا يرى القريبة ويسمى طويل النظر ، ويستعين على إصلاح بصره بمنظار ذى عدسة محدبة .

ومن الناس من لايستطيع تمييز بعض الألوان من بعض بوضوح ، وتسمى هذه العاهة عمى الألوان . كما أن منهم من يرى الشيء شيئين ، وذلك لخلل فى إحدى العينين يجعل الصورة التى تلقيها على الشبكية تقع بعيداً عن الصورة التى تلقيها العين الأخرى ، فلا تنطبق عليها .

وللعيون محاجر وأجفان وأهداب وحواجب تحميها وتحفظها مما يؤذيها وفوق مقلة العين غدد تفرز الدموع التى تغسلها وتسهل انزلاقها ويكثر إفراز الدموع إذا دخل العين جسم غريب ، وعند الانفعالات الشديدة وتجرى الدموع فى القنوات الدمعية إلى الحفر

الأنفية ، وإذا كثرت انحدرت من الآماق على الخد .

هذه عين المخلوق :

وقد أخبر ربنا سبحانه بأن له عيناً ، فقال تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام . (وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى) وأخبر أن له أعيناً فقال جل شأنه (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم) وقال تعالى . (وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا) وقال تعالى : (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) .

فهل لربنا سبحانه عين أو أعين كأعيننا تتألف من الأجزاء التى وصفت لك وتعتريها الآفات التى تعترى عيون المخلوقين ، فيقصر نظرها تارة . ويطول أخرى ، أو ترى الشيء، شيئين ، أو يختلط عليها الألوان ؛ أو تزدحم فيهـــا صور المرئيات حتى يراها على غير حقيقتها .

حاش لربنا سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

فإذا أضاف ذو العزة والجلال سبحانه إلى نفسه عيناً أو أعينا وجب علينـا أن نثبت لجلاله ما أثبت لنفسه بغير تشبيه ولا تمثيل ، ولا تأويل ولا تعطيل ، وأن نعتقد أن عينه سبحانه ليست حاسة ولا جارحة ولا عضواً ولا جزءا ، ولا مؤلفة من أجزاء ولا تعتريها الآفات والأمراض التى تعترى عيون المخلوقين ، بل هى صفة من صفاته تعالى لا يدرك كنهها ، ولا يقف على حقيقتها غيره سبحانه ، تصدر عنها العناية والرعاية ، والحفظ ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

أما البصر بمعنى حس العين ، وقوة الادراك التى ركبت فيها فهو كذلك محال على رب العزة ذى الجلال والإكرام سبحانه ، وإذا استحالت عليه الجارحة، استحال حسها كذلك ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض .

فالبصر فى حقه سبحانه صفة تنكشف بها الأشياء كلها ظاهرها وخافيها فى كمال نعوتها ، وتمام أوصافها ، وجميع هيئاتها وألوانها ، وأشكالها ، وأبعادها بغير جارحة ، ولا

اضطراب حاسة ، ولا معونة ضوء ، ولا ارتداد صورة ، ولا انفعال عصب ، ولا تلقى دماغ ، ولا شيء مما يجرى فى أبصار المخلوقين .

يرى الأجنة فى بطون أمهاتها ، ويرى اضطرابها واختلاف حركاتها . لا يعزب عنه مثال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . تستوى عنده المسافات والأبعاد : يرى ما تحت الثرى كما يرى ما فى طباق السموات العلا ؛ ليست سماء بأقرب إلى بصره من سماء ، بل جميع ما تحت العرش عنـد بصره سواء ، ليست رؤيته للطود العظيم مغمورا بضياء الشمس فى وضح النهار بأيسر من رؤيته لما فى أعماق البحر فى ظلمات ليل الستار كل ذرة فى الوجود شاهدة بأن ربنا سبحانه بصير بالعباد ، ولو لا أنه تعالى بصير ما خلق الأجنة فى بطون أمهاتها خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ولا كون حيوان الماء فى أعماق الداماء على ما فيه من غرائب الخلق ؛ وعجائب التكوين وبدائع التصوير ، وروائع التلوين .

كل ذروة فى الوجود ، وكل خلية فى إنسان أو حيوان أو نبات ، وكل نواة فى خلية ، وكل كهرب يسير حول نواة ـ مظهر من مظاهر اسمه تعالى البصير ؛ فبالبصر توضع كل ذروة من هذه الذرات فى موضعها الذى لا تصلح إلا له ، ولا يصلح إلا لها وبالبصر تستقر كل خلية فى مستقرها الذى لا يستقيم إلا بوضعها فيه ، سبحان ربنا ! أسمع به وأبصر . مالهم من دونه من ولى . ولا يشرك فى حكمه أحداً .

شكا موسى وهرون إلى ربهما خوفهما من بطش فرعون بهما ، وعدوانه عليهما ، قالا : (ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى : قال : لا تخافا ، إننى معكما اسمع وأرى) فأدخل الطمأنية إلى أنفسهما ، ورد الأمن إلى قلوبهما حين أخبرهما أنه يسمع قول فرعون ، ويرى فعله ، ويدفع عنهما فرطه وطغيانه .

جاء هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم مقارنا لاسمه تعالى السميع فى بعض المواضع فدل ذلك على أن اشتقاقه من البصر الذى يكشف الأشياء وأشكالها وألوانها وهيآتها لا من

البصر الذى بمعنى البصيرة . وتعالى جد ربنا أخبر عباده بأسمائه وصفاته ليعرفوه بها ، فيقدروه حق قدره ، ويخافوا مقامه ، ويعبدوه كأنهم يرونه حين يوقنون أنه يراهم ، ويدرك أبصارهم وبصائرهم ، ويبلو أعمالهم ، وسرائرهم ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا السماء وهو السميع البصير .

إذا آمن العبد بأن ربه يراه وهو فى بيته أو فى حقله أو فى مصنعه أو فى حانوته أو فى سوقه أو فى ظلمات مخدعه — فنى الحياء . واستحيا أن يراه ربه متلبسا بما حرم عليه منتهكا للحرمات التى نهاه عن انتهاكها ، متعديا الحدود التى حرم عليه تعديها ، مقترفا الآثام التى حذره اقترافها .

وبعد أفيرى الأولياء الذين يسألهم الغافلون شفاء مرضاهم — مكامن الداء فى الأجسام فيطبوا له ؟ .

أيبصرون مسرى الجراثيم فى الشرايين وتكاثرها فى الدماء فيسلطوا عليها موجات من أشعة قدرتهم فتهلكها ؟ وتنجى المريض من فتكاتها ؟ أيبصرونهم وهم قائمون على قبورهم فى خشوع المتبتل ، وخضوع الخائف وانكسار الذليل ينزلون حاجاتهم بواديهم الجديب ، وينادونهم ، ولا من مجيب ؟

سبحانك ! هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

٢١ — الحكيم . ٢٢ — الحكم . ٢٣ — أحكم الحاكمين

وضعت الألفاظ فى اللغة للدلالة على المحسات قبل وضعها للدلالة على المعقولات .

فوضع الفعل (عقل) مثلا للدلالة على عقل البعير أى شد وظيفة إلى ذراعه لمنعه من التفلت والشرود ، قبل أن يوضع للدلالة على عقل العلوم والمعارف أى إمساكها فى الذهن ومنعها من التفرق ، تشبيها بعقل البعير ، ووضع الفعل (حكم) أو (أحكم) للدلالة على

وضع الحكمة ـ بفتح الحاء ـ للجام الفرس ، لمنعه من الجماح قبل وضعه للدلالة على الحكم بضم الحاء ـ وضبط الأمور .

وكذلك وضعت الألفاظ للدلالة على المعانى المعروفة بين الناس قبل وضعها للمعانى الخاصة بالحكيم العليم سبحانه . فلما أراد رب العزة تبارك اسمه أن يخبر الناس بأسمائه وصفاته خاطبهم باللغة التى يفهمونها ، وإن كانت المعانى الخاصة به سبحانه لاتستطيع لغات البشر كافة أن تعبر عنها تعبيراً يجلى كامل حقيقتها ؛ إذ ليس فى وسع أذهان البشر أن تدرك كنهها . أو تحيط بغيبها .

الحكم — بضم الحاء ـ فى الأصل معناه المنع من أجل الإصلاح ، مأخوذ من حكمة الدابة التى تذللها لراكبها وتمنعها من الشموس . تقول : أحكمت الشىء إذا ما أتقنت صنعه منعته مما يعيبه ، وجعلته صالحاً لما يراد به . ومنه قوله تعالى : (كتاب أحكمت آياته) أى أتقنت كل الإتقان ، ومنعت ما يعيبها ، مما ينافى الفصاحة والبلاغة ، أنزلت للإعجاز ، والهداية والإرشاد ، وإقامة الحجة ، والدلالة على أنها تنزيل من حكيم حميد .

واسمه تعالى « الحكيم » يكون بمعنى الحاكم الذى يحكم الناس ويمنعهم من الفساد ، لأنه تعالى أنزل شرائع بها يحكم الناس ويمنع عدوان بعضهم على بعض ، وأرسل الأنبياء لينفذوا هذه الشرائع ، وإذا نفذت هذه الشرائع وخضع الناس لأحكامها امتنعت المفاسد والشرور ، وصلحت الأمور ، وضبطت شرة الأنفس ، وسلم الناس من الخضوع لسلطانها ونزواتها ، وخضعوا لحكم الله وحده ، فسعدوا فى ظلال حكم الله أحكم الحاكمين ، وصينت الحقوق ، وحقنت الدماء ، وقدست الحرمات ، وسلمت الأعراض والأموال وقبضت الأيدى والألسنة على السوء ، وصار الناس فى حكم الحكيم إخوانا .

وإما أن يكون بمعنى الحاكم الذى يقضى بين الناس ، ويعطى كل ذى حق حقه ، فانه

سبحانه قد حكم بين الناس فى الدنيا . وأوضح فى كتبه المنزلة حق كل ذى حق ، وأمر عباده إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها . وبين حقوق المجاهدين فى الأنفال والمغانم ، وحق كل وارث فى تركة الموروث ، وحقوق الوالد على الولد ، وحقوق الزوجين بعضهما على بعض ، وحقوق الجيران بعضهم على بعض ، وحقوق الراعى والرعية على بعضهما ، وأمر نبيه الكريم أن ينفذ أحكامه فقال تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) .

وسيحكم بين الناس فى الآخرة ، ويعطى كل امرىء ما يستحق ، ويقضى بالجنة ونعيمها للمؤمنين الذين أخلصوا له دينهم ، وبالنار وما فيها من عذاب على المشركين الظالمين الظانين بالله ظن السوء (وإذ يتحاجون فى النار . فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا إنا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد)

وأما أن يكون بمعنى المحكم الذى أتقن صنعه . ومنعه ما يعيبه ، وجعله صالحاً لما يراد به ، فربنا سبحانه أحسن كل شىء خلقه ، وأتقن كل شىء صنعه ، وأوجد كل شىء على أدق نظام ، وأحكم إتقان ، خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وخلق الإنسان فى أحسن تقويم ، خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلقه من تفاوت . فأرجع البصر ، هل ترى من فطور ؟ ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . زُين السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين ، وأنبت من الأرض نباتاً يسقى بماء واحد ، ويحيط به جو واحد ، وتغذوه تربة واحدة ، ولكن منه الحلو اللذيذ السائغ ، والمر الكريه الذى تتقزز منه النفوس . خلق من الماء كل شىء حى ، ونوع الأحياء المتفقة فى أصلها أنواعاً لا يدكها حصر ، ولا يحصيها عد ، وفى كل موضع إصبع من السماء والأرض آية بينة شاهدة بأنه متقن لما صنع ، إتقاناً لا يبلغه أمهر المهرة ، ولا أحذق الحاذقين ، وحسبك آية أنه خلق الإنسان الذى ألهمه اختراع

للقاطرة ، وابتكار الباخرة ، وابتداع الطائرة ، وضع الغائصة ، وعلمه البرق والمسرة ، والحاكى والواحى ، وتفجير الذرة ، وغير ذلك من روائع الإبداع ، وعجائب الاختراع فسبحان ربنا ، إنه هو الحكيم العليم .

وإما أن يكون بمعنى ذى الحكمة الذى يعلمه وحكمته يضع الأشياء فى مواضعها ، فقد وضع الحكيم العليم سبحانه كل شىء فى الموضع الذى لا يصلح إلا له ، ولا يليق إلا به ، ولو اجتمع علماء الدنيا وأطباؤها ، وفلاسفتها ومهندسوها ، والحذاق من صناعها ، والمهرة من أرباب الفنون بها ، على أن يضعوا شيئاً مما وضعه الحكيم العليم سبحانه فى مكان خير من مكانه لضل سعيهم ، وباءوا بصفقة المغبون ، وكانوا من الخاسرين .

فكر فى خلقك ! هل تجد لعضو من أعضائك مكاناً خيراً من المكان الذى وضعه فيه أحسن الخالقين ؟

وضع الحيوان فى البحر من الأعضاء ما يوائمه ، ولحيوان البر ما يناسبه ، ولطير الهواء ما يلزمه ، ولحشر الأرض ما تتم به حياته .

وليس فى الإمكان إحصاء مظاهر الحكمة فيما خلق الله ، وإنما هى لفتة توجهك إلى اجتلاء روائعها فى السماء والأرض وما خلق الله من شىء .

وإما أن يكون من حكم على الشىء بأنه كذا أو ليس كذا ، ولا يستطيع أحد أن يحكم على الأشياء بخواصها ومميزاتها ، ومنافعها ومضارها ، إلا رب العزة تعالى جده ، لأنه وحده العليم بظواهرها وبواطنها ومزاياها ومثالبها ، لأنه خالقها العليم بأسرارها ، الخبير بخفياها ، فحكمه عليها أصدق الحكم (ألا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير) فاستمع إلى أحكامه الصادقة فى قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر ؟ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) .

وقوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

وقوله تعالى : (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم)

وقوله تعالى : (إن الهدى هدى الله)

وقوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) .

ذلك حكم الله الصادق الحق الصحيح المبرأ من كل خطأ ، المنزه عن كل شوب ،

هذا وقد ذكر هذا الاسم من أسمائه تعالى الحسنى فى القرآن الكريم فى ثمانية وثمانين موضعاً ، منها ثلاثة وثلاثون جاء فيها مقارنا لاسمه تعالى « العليم » ، سابقا له فى سبعة وعشرين منها ، وتاليا له فى ستة .

وجاء فى ثمانية وأربعين موضعا مقارنا لاسمه تعالى « العزيز » وسابقاً له فيها جميعاً .

وجاء فى ثلاثة مواضع قبل اسمه تعالى الخبير ، وورد مسبوقا مرة باسمه تعالى (التواب)ومرة باسمه تعالى (العلى) ومرة باسمه تعالى (الواسع) وذكر مرة سابقاً لاسمه تعالى (الحميد) .

والمتتبع لهذه المواضع ، والمقدر للآيات الكريمة التى جاء فيها ذلك الاسم الكريم يدرك أنه حين يقارن اسمه تعالى (العليم) يكون معناه صاحب الحكمة التى تضع الأمور فى مواضعها . اذكر على سبيل المثال قوله تعالى (وعلّم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

فهذا يدل على أن العليم الحكيم سبحانه لعلمه وحكمته يضع الأمور فى مواضعها أو يمنح خلقه من العلم ما يصلح لهم وما تمس إليه حاجتهم . فآدم وذريته محتاجون إلى مزاولة الفنون والصناعات فوضع فيهم من العلم ما يواتم حياتهم ، والملائكة لا يحتاجون

إلى شيء من ذلك فلم يؤتهم علمه . سبحانه هو العليم الحكيم . وإذا تدبرت سائر الآيات . وغصت على حقائقها ، وحاولت الوقوف على أسرارها وجدتها كذلك . فسبحان من أنزله كتاباً عربياً ، وحكما عربياً ، فيه آيات لأولى الألباب .

وحين يقارون اسمه تعالى (العزيز) يشير إلى الحكم والسلطان والتصرف المطلق الذى لاحد له .

وأورد لك على سبيل المثال قوله تعالى : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) فهو يشير إلى أنه تعالى هو الحاكم المطلق الذى يتصرف فى ملكوته كيف يشاء ويحكم عباده كيف يريد ، فيبعث إليهم النبيين الذين يعلمونهم الشرائع ويحكمونهم بها وينفذون فيهم أحكامه سبحانه ، فما أبلغ كتابه ! وما أروع بيانه !

وإذا تدبرت المواضع الأخرى سطع عليك منها نور يكشف لك حقائقها ويزيل الحجب عن أسرارها ، فتعلم منها مالم تكن تعلم .

هذا والمتدبر للمعانى المختلفة لهذا اللفظ لايجدها على أنمها وأكملها ، إلا إذا كان اسما لرب العزة أحكم الحاكمين سبحانه . وهى فى غير اسمه تعالى منقوصة ، بل هى ظلال ناصلة ، وأخيلة زائلة ، بالقياس إلى الحقائق العالية المتجلية فى صفاته سبحانه .

فمن غبن الرأى ؛ وسفه النفس أن تلتمس الحكم أو الحكمة عند غير خير الحاكمين . ومن ترك حكم الله ، وابتغى حكم الطاغوت فقد ضل سواء السبيل . قل أغير الله أبغى حكما ؟ وهو الذى أنزل الكتاب مفصلا) (أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟)

فلا حكم أحسن من حكم الله ، ولا قضاء أعدل من قضائه
إليه فليحتكم المحتكمون ، وبقضائه فليرض المؤمنون !

وأما اسمه تعالى (الحكم) فهو بمعنى الحاكم ، وهو أحد معانى الحكيم التى سبق الكلام فيها ، غير أن بين الحاكم والحكم فرقا من جهة موضوع الحكم فالحاكم يحكم ولو كره المحكومون ، ولكن الحكم يحتكم إليه المختصمون عن رضا وطواعية ، والمؤمنون يحتكمون إلى ربهم فيما شجر بينهم ، ويردون الخلاف بينهم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويرضون بما يحكمان به لأنه حكم الله الذى لا يخفى عليه مقاطع الحق . قال تعالى (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) . ذلكم الله ربى .

أما نبذ كتاب الله وسنة الرسول وراء الظهور والاحتكام إلى الشيوخ ، وأهواء الكبراء ، والكتب المصنفة ، والقوانين الموضوعة التى وضعها غير المعصومين فليس من سمات المؤمنين . بل هو من الاحتكام إلى الطاغوت وقد أوجب الله الكفر به . ليتحقق الفلاح والسعادة والأمن .

قال تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً) .

ومما تذهب له نفوس المؤمنين حسرات أن من المسلمين من لا يزالون يحتكمون إلى النظم الرميم ، والرفات السحيق والأحداث الدارسة بعد أن سطع ضياء الحق فى كل مكان ووصلت صيحات المصلحين إلى جميع الآذان .

يختلف خصمان فى أمر من الأمور ، فلا يحتكمان إلى المحاكم لأعواز الإثبات وخشية أن يضيع حقها شهداء الزور ـ كما يزعمون ، ولا يرضى أحدهما من صاحبه أن يقسم له بالله تعالى ، لأن الله ـ فى اعتقاده ـ حليم لا يجعل بالعقوبة ويأبى إلا أن يسوقه إلى طاغوت من هذه الطواغيت المنصوبة على قبور الذاهبين لأنه — فيما يزعم — أسرع عقابا ، وأشد بطشاً وانتقاماً .

قد يقول قائل : تتجنى على المسلمين ، وإنما يفعل ذلك الجاهلات من النساء ، والجاهلون من الرجال . ولو أن القائل سلك خطة الإنصاف لعلم أن النساء نصف الأمة ، وأن عدد الجاهلين من الرجال يربو على ثلاثة أرباعهم ولسلم بأن الوثنية قد عادت جذعة ، وأصبح سلطانها قويا على نفوس السواد الأعظم من المسلمين (قل أغير الله ابتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ؟) بل ولعلم أن غير هؤلاء وأولئك من الرجال والنساء مما يزعم نفسه فاهماً ومتديناً دين الحق — هو كهؤلاء الذين يحسبهم جاهلين ، لأنه عن عملهم وضلالهم راض ، وعلى المنكرين عليهم يغضب ، ولدعاة الهدى لهم يحارب . فماذا بعد هذا .

لو آمن المسلمون بأن ربهم خير الحاكمين ، وأحكم الحاكمين ، لأنه وحده علام الغيوب ، المطلع على الضمائر ، العليم بالسرائر ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، الذى لا يخدعه سحر البيان ، ولا تصرفه عن القضاء بالحق ذلاقة اللسان — لو آمن المسلمون بكل هذا ما ابتغوا غير الله حكما ، ولا رضوا بحكم أحد سواه ، ولتركوا الرفات السحيق فى أرماسه ، والعظام النخرة فى أجداثها ، والكتب الصفراء فى مخابئها ، وبين أيدى عبادها ، وقوانين الناس للذين لا يؤمنون بالله ولا بشريعة الله . ولرجعوا إلى أحكم الحاكمين يتعلمون الحكمة من كتابه وسنة رسوله ويحتكمون إليهما فيما شجر بينهم . إذن لسعدوا فى الدنيا ، وفازوا فى الآخرة فوزا عظيما وصدق ربنا إذ يقول (ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ، أن يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) صدق الله العظيم .

٢٤ — الإله

ليس من شك فى أن أول دين دانه البشر ، كان وحياً أوحاه الخالق سبحانه إلى آدم أبى البشر عليه السلام ، ثم تلقاه عنه أولاده وحفدته ومن بعدهم .

لم يصل إلينا شىء مفصل من شريعة آدم ، ولكنا نعلم مما أنبأنا الله به فى القرآن الكريم ، أن الله أمره أن يسكن هو وزوجه الجنة ، ونهاهما أن يقربا الشجرة ، وحذرهما كيد الشيطان ونعلم أنهما أكلا من الشجرة ، فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ ونعلم أنهما أجابا قائلين : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ونعلم أن رب العزة بعد ذلك قال لهما : (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فأما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) .

ولا يخامرنا شك فى أن من أخص قواعد هذه الشريعة توحيد الله تعالى ، والاستقامة على الفضيلة والإيمان بالدار الآخرة .

ولا تساورنا خلجة من الريب فى أن الله تعالى علمهما فيما علمهما من الأسماء أن له تعالى اسماً يدعوانه به إذا هما دعواه أو ابتهلا إليه أو حمداه .

ومن المؤكد أن هذا الإسم فى لغتهما التى كانا يتخذانها فى التخاطب والتعبير مما أكنفا فى أنفسهما يرادف فى لغتنا كلمة (الإله) لأن هذه الكلمة تدل على الألوهية المجردة التى لا تصحبها معان أخر (ربنا ظلمنا أنفسنا) .

هبط آدم وزوجه من الجنة ، وكثر أبناؤهما وأحفادهما ، وتفرقوا فى الأرض شعوبا وقبائل ، واختلفت ألسنتهم وألوانهم ، واحتوت كل لغة من لغاتهم على الكلمة المرادفة لكلمة « إله » .

والنسيان سريع إلى ذاكرة الإنسان ، كما نسى أبوه آدم ، فما أسرع ما ينسى ، وما أسرع ما يستحوذ عليه جهل عميق ، والجهل يبعث الخوف والفزع دائماً ، وما أسرع ما يخوفه الشيطان من قوى الطبيعة المروعة ، وظواهر الوجود المفزعة التى لا يعرف لها لها سبباً . والتى بثها الله فى الوجود فتنـة وابتلاء للإنسان ، كما قال (ليبـلوكم فيما آتاكم) والإيمان بوجود إله أمر مركوز فى طبائع البشر (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ؛ أفتهلـكنا بما فعل المبطلون ؟)

فصار كلما روعه أمر أو أفزعه ، ولم يعرف سبب ما فيه من بواعث الروعة والإفزاع سمّاه ـ بلغته ـ إلهاً ، ثم قرب إليه ليستدفع ضره ، ويستجلب خيره .

ولمح فى بعض الأشخاص قوة غير مألوفة ، أو ذكاء خارقا أو نفوذاً شخصياً فظن أن بهم قوة غيبية إلهية بزّوا بها من سواهم ، فعبدهم فى حياتهم ، وأقام لهم التماثيل وعبدها بعد مماتهم .

ثم كانت الأمة العربية ، وكان اللسان العربى ، وكانت كلمة (إله) الدالة على المعبود الحق . ومس الأمة العربية جناح من الجهالة ، فأشركت وأطلقت كلمة (إله) على كل ما أخافها وأفزعها ، أو أدهشها وروعها ، أو آنست من جانبـه قدرة على مالا يقدر عليه سوادها الأعظم . ثم استعملتها استعمال النـكرات لتدل على كل شىء يخشى ضره الخفى ، أو يرجى نفعه الغيبى ، وإن كانت فى الأصل أعرف المعارف ، لأنها كانت لا تدل إلا على واحد لا شريك له .

ثم أرادت أن تميز الإله الحق الذى تعتقد أنه فى السماء ، وأنه كبير الآلهة المسيطرة على آلهة الأرض فسمته (الله)[1] بعد إضافة آل العهدية وحذف الهمزة تخفيفاً وأصبح لفظ (الله)

(١) يرى الفيروزأبادى أن الصحيح أن لفظ الجلالة علم غير مشتق وأصله إله كفعال بمعنى مألوه .

عندهم علما على الذات الواجب الوجود الخالق الرازق الذى يملك السمع والأبصار ، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر ، وأبقت كلمة إله لتدل عليه تعالى وعلى غيره مما يعبدون .

وما جرى فى الأمة العربية جرى فى غيرها من الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها بغير اختلاف إلا فى اللفظ اللغوى الذى تسمى به الإله ، وفى الشىء الذى اتخذ إلهاً .

ثم وضعت كل أمة لآلهتها أسماء أخرى ميزت بها بعضها من بعض ، وكثرت آلهة المصريين ، وتعددت آلهة اليونان والرومان ، واختلفت آلهة الفرس والهند والصين ، وتنوعت آلهة العرب ، وجرت على الألسنة فى هاتيك الديار هذه الأسماء : اللات ، والعزى ، ومناة ، وهبل ، وذو الخلصة ، وبوذا وبرهما ، وأهرمن وأفروديت ، وأبللون ، وزفس ، وأزيريس وهوارس وإيزيس وفتاح وآمون ورع وهاتور وأتوبس ، وغير ذلك من الأسماء التى سماها الجاهليون هم وآباؤهم وما أنزل الله بها من سلطان .

والله تعالى لا يترك الناس سدى ، ولا يدعهم هملا ، بل يبعث إليهم من حين إلى حين رسلا مبشرين ومنذرين ، يدعونهم إلى عبادة الله الحق ، ونبذ الآلهة الباطلة ، وقد حدثنا القرآن المبين ببعض ما قالت الرسل لأممهم :

(يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) .

أتتخذ أصناماً آلهة ؟

وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى أليم نسفاً . إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً . أغير الله أبغيكم إلهاً ؟

وكان بعض الأمة يستجيب لدعوة الرسول وبعضها يعرض ، وقد مضت سنة الله إن كل أمة عتت عن أمر ربها ورسله يهلكها ، إما بتسليط عذاب يبيدها ، وإما بأمة أقوى منها تذهب بحريتها واستقلالها وتفنيها فيها .

وقد أخبرنا الله تعالى فى القرآن الكريم ببعض ما قالت الأمم المستجيبة لرسلها وما قالت الأمم العاتية .

فمما قالت الأمم التى استجابت لدعوة الحق :

(ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذاً شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) .

(ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟)

ومما أجاب به الجامدون المعاندون :

(لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسراً) .

(حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) .

(يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) .

(أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟) .

ثم كانت الرسالة الكبرى التى حطمت الأصنام تحطيما ، وسحقت الأوثان سحقاً جاء الإسلام لينهض بالإنسانية من كبوتها ، ويقيلها من عثرتها ، ويسمو بها إلى أوج الكمال العقلى والمقدى ، وأناف بها على بقاع تشرف منه على بطلان ما كانت تعتقد ، وفساد ما كانت تدين ، وعلمها أن هذا العالم بسمائه وأرضه ، وسهوله وجباله ، ووهاده ونجاده ، وعامره وغامره ، وشمسه وقمره ، ونجومه وأفلاكه وسلمه وحربه ، وحبه وبغضه ، وجماله وقبحه ، وخصبه وجدبه ، ليس له إلا إله واحد هو المتصرف وحده فى جميع شئونه وأطواره ، فشل عروش آلهة الشمس والقمر والنجوم ، ورض صوالجة آلهة الحب والبغض ، والسلم والحرب ، وداس تيجان آلهة البحار والأنهار والغيوم والأمطار .

أمر ألا توجه العبادة إلا إلى الله الواحد القهار . وأخبر أن كل شيء سواه سمى إلهاً فهو باطل ، وإطلاق هذا الاسم على غير الله تعالى ، شرك ينحدر بالإنسانية من أفقها السامي إلى الحضيض الأوهد ويجعلها كالأنعام بل أضل سبيلا .

وإليك بعض ما جاء فى القرآن الكريم رداً على هؤلاء الذين يؤلهون الأباطيل ويتخذون آلهة من دون الله :

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم)

(وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)

(قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد)

(أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد)

(فاعلم أنه لا إله إلا الله)

(شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه)

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)

(واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون)

(واتخذوا من دونه آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون)

(قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد)

(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟)

(ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله . إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض)

(ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر : إنى لكم منه نذير مبين)

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)

(أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)

ونفى سبحانه الألوهية عن الملائكة المقربين فقال تعالى :

(ومن يقل منهم : إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين)

وحدثنا سبحانه فى كتابه الحق عما لقى به مشركو العرب محمداً صلى الله عليه وسلم ، وما لقى منهم من خصومة ولدد من أجل تعلقهم بآلهتهم ، فقال تعالى : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشىء يراد) وقال تعالى : (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً : أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ ! وهم بذكر الرحمن هم كافرون .

هذا وأظنك بعد استيعاب ماعرضته عليك فى حاجة إلى أن أورد عليك ما قاله أساطين اللغة فى اشتقاق هذا الاسم الكريم الذى كان خاصاً برب العزة ، وقد أطلقه الجاهلون على غيره سفهاً بغير علم ، فضلوا وما كانوا مهتدين .

اختلف أعلام اللغة فى اشتقاق هذا الاسم الجليل ، ولكل وجهة دفعته إلى أن يقول ما قال .

فقال فريق : إن اشتقاق هذا الاسم من أله بأله أى عبد فالاله بمعنى المعبود ومنه قوله تعالى : وهو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله ، أى هو المعبود فى السماء والأرض . ولعل هذا القول أقرب الأقوال إلى الصواب ، وأدناها من الحق ، وأحقها بالقبول ، ومنه شعار الإسلام لا إله إلا الله ، أى لا مستحق للعبادة إلا الله .

وقيل : إن اشتقاقه من أله بأله إذا تحير ، لأن العبد إذ تفكر فى صفاته تحير فيها ، ولذلك ورد : تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا .

والحق أن الناس لو صرفوا همهم إلى التفكير فى آلاء الله وفيما خلق الله فى السماء والأرض ، وتصوروا عظم هذا العالم ، وتنوع أصناف الخلق ، وكثرة عدده لأخذتهم الحيرة ، وملكت الدهشة قلوبهم وأفكارهم ، وما أله الناس بعض المخلوقين إلا لأنهم وجدوا فيهم ناحية من النواحى راعتهم وأدهشتهم فتحيروا فى أصلها وجهلوا سرها فألهوا صاحبها .

وقيل : إن أصله ولاه فقلبت الواو همزة لأن كل مخلوق والله نحوه إما بالتسخير فقط كالجماد والنبات والحيوان والكفار وإما بالتسخير والارادة كالملائكة ومؤمنى الإنس والجن . ومن هنا قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء جميعاً ! وقد دل عليه قوله تعالى (وأن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وقوله تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب) .

وقوله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم بالغدو والآصال) .

وقيل : من ألِهَ إليه أى فزع ولاذ . أو من أَلَهَهُ أى أجاره وأمنه .

وقيل : من لاه يلوه إذا احتجب . لأن الله تعالى : لا تدركه الأبصار وهو المشار إليه بقوله تعالى . وهو الظاهر والباطن .

وقيل غير ذلك ، فرأينا الاقتصار على أهم الأقوال وأدناها إلى الصواب . وكان حقه ألا يجمع ولكن فساد الاعتقاد سول للأمم أن يجمعوه لاعتقادهم أن هناك آلهة أخرى . ومضى العرب فى جاهليتهم على ذلك حتى أجاء فى لغتهم مجموعا كما جاء فى اللغات الآخرى .

ثبت إذاً من كل ما تقدم أنه لا اله إلا الله . وأن كلمة اله لا يصح أن يسمى بها إلا الله وحده . وإطلاقها على غيره كفر وجهل وضلال وإسفاف . وإهدار لكرامة الإنسان والغاء لعقله .

فما معنى هذا الاسم الجليل بعد كل ما ذكر ؟

معناه ذو القوة الغيبية التى وراء الأسباب الطبيعية ، والتى بها يملك النفع والضر ، والتى من أجلها يعبده العباد ويدعونه خوفاً وطمعاً ، لأن قدرته تدهشهم وتحير عقولهم ، وتدفعهم الى أن يفزعوا إليه إن مسهم مكروه ليدفعه عنهم ، وإلى أن يضرعوا إليه إن فاتهم خير ليرده إليهم .

وإنما وصلنا إلى هذا المعنى بالجمع بين النصوص التى سبق إيرادها لأن كلا منها جدير بالاعتبار .

هذا وأظنك بعد الوقوف على المعنى الجامع الدقيق لهذه الكلمة وعلى تطورها ونشأتها توافقنى على أن الإنسان الذى يعتقد فى أى مخلوق أن له قوة غيبية يسمع بها الداعى من مكان بعيد ، أو يعلم أنه فى حاجة إلى عونه وإمداده فينادية ويناجيه ويضرع إليه ، ويفزع إلى عونه ، ويرجو خيره ، ويخشى ضره . الذى يعتقد ذلك مشرك شركا يخرجه عن الملة الحنيفية السمحة المبينة على التوحيد الخالص ، لأن الأوصاف المذكورة لاتكون إلا للإله الواحد وهو الله رب العالمين .

ولعلك بعد ذلك تدرك السر فى أن الشارع الحكيم جعل شعار الإسلام هذه الكلمة الطيبة : لا إله إلا الله .

ذلك بأن شرك المشركين قاطبة ما نشأ إلا من اتخاذهم آلهة مع الله أو من دون الله يخلعون عليهم الأوصاف السابقة الخاصة برب العزة سبحانه .

ومهما تكن الأسماء التى يطلقونها على الأشياء المتخذة ما دام الاعتقاد فيها أنها تملك القوى الغيبية من العلم والقدرة والعون والنجدة والضر والنفع بغير الأسباب الطبيعية

الممنوحة لسائر البشر فإن اتخاذها والالتجاء إليها ودعاءها والنذر لها شرك صراح فالعبرة للمقاصد والمعانى لا للألفاظ والمبانى .

ولو أتيح لك أن ترى منظراً مما سجلته يد التاريخ القديم على الأحجار والصخور والمقابر والمعابد بصور ما كان يفعله المصريون وغيرهم فى أيام جاهليتهم أمام آلهتهم لم تدرك أى فرق بينه وبين ما يفعله المسلمون الآن أمام أوليائهم إلا فرقاً واحداً هو أن آلهة القدامى كانت متقنة الصنع ، جيدة النحت ، فيها براعة الرسم ودقة التصوير . أما أولياء الحاضر الذين يعتقد فيهم أحبابهم ما كان يعتقد القدامى فى آلهتهم فإن تماثيلهم خالية من أثر الفن ، ومن دقة التصوير وبراعة الصناعة .

ولا شك فى أن الذى يعلم علم اليقين أنه لا إله إلا الله ، وأن إلهه واحد ، لا اله الا هو لا يجعل فى قلبه مكاناً لغيره تعالى ، ولا يسمح لمشاعره وعواطفه أن تتجه بأى لون من ألوان العبادة أو الاستعانة أو الخوف أو الرجاء الى غير إلهه الحق ذى العزة والجلال .

إن الإسلام مبنى على توحيد الألوهية ، لأن المشركين كانوا يعتقدون فى رب الأرباب ولكنهم يعتقدون فى آلهة أخرى ، فجعل الإسلام شعاره (لا اله الا الله) هذه الكلمة الطيبة المشعرة بنفى كل شىء يتوهم فيه أية صفة من الصفات التى استأثر بالإنصاف بها إله الخلق الذى ليس كمثله شىء .

هذا ولو أطلقت للقلم العنان لم يقف عند حد ، لأن الكلام فى هذا الاسم الجليل لا تستوعبه هذه الصفحات القليلة التى خصصتها (الهدى النبوى) لهذا الحديث . وأرانى قد جرت على حق غيرى من كتاب هذه المجلة فاستميحهم عفواً . واستميح القراء صفحا عن التقصير فى إيفاء هذا الاسم الجليل حقه من البحث ، وفى النفس معان تزدحم على القلم ، ولا سبيل إلى الافصاح عنها . وأسأل إله الناس أن يوفقنا لأداء حق هذا الاسم بإخلاص العمل ، وصدق النية والله ولى التوفيق

٢٥ — اللطيف

قال الفيروزأبادى فى القاموس المحيط : لطف كنصر لطفاً رفق ودنا ، ولطف الله لك أوصل إليك مراده بلطف . واللطيف البر بعباده ، المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف . أو العالم بخفايا الأمور ودقائقها واللطف من الله تعالى التوفيق . . .

وقال صاحب الأساس : شىء لطيف ليس بجاف ، ولطفت بفلان رفقت به ، وأنا ألطف به إذا أريته مودة ولطفاً فى المعاملة ، ولطيف بهذا الأمر رفيق بمداراته ، وألطفه بكذا أتحفه به وبره وأهدى إليه .

وقال الراغب : اللطيف إذا وصف به الجسم فضد الجثل وهو الثقيل . يقال : شعر جثل أى كثير . ويعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة وعن تعاطى الأمور الدقيقة . وقد يعبر باللطائف عما لاندركه الحاسة . ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه ، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور ، وأن يكون لرفقه بالعباد فى هدايتهم . قال تعالى : الله لطيف بعباده ، لطيف لما يشاء . أى يحسن الاستخراج تنبيهاً على ما أوصل إليه يوسف حين ألقاه إخوته فى الجب . . .

وقال ابن الأثير : فى أسمائه تعالى اللطيف وهو الذى اجتمع له الرفق فى العمل ، والعلم بدقائق المصالح ، وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . يقال : لطف به وله (بالفتح) يلطف لطفاً إذا رفق . . .

* * *

تتخلص أقوال هؤلاء الأعلام من أئمة اللغة فى أن للطيف أربعة معان

أولها — الذى يوصل المراد بلطف ورفق .

الثانى — الرفيق بالعباد ، البر بهم ، المحسن إليهم .

الثالث — العالم بخفايا الأمور ودقائقها .

الرابع — الذى لا يرى .

وكل هذه المعانى يصح أن يكون مراداً بهذا الاسم الأحسن .

فإذا أردنا المعنى الأول ، وهو الذى يوصل المراد بلطف وجدنا له من الأمثلة فيما يحيط بنا من دلائل لطفه تعالى مالا يدركه العد ، ولا يقع تحت حصر .

فكم من مرة أحسسنا فى أنفسنا ، وشاهدنا فيمن حولنا أن الله تعالى يمضى فينا إرادته ، وينفذ مشيئته من حيث لا نقدر ولا نحتسب ، فقد تصح إرادة العبد على النهوض بعمل من الأعمال ، ويعد له عدته ، ويهيىء له من أسباب تمامه مالا يشك معه فى أنه ظافر بما أمل ، مدرك لما قصد ، ولكن سرعان مايبدل الله إرادة العبد ، ويحول بينه وبين قلبه ، ويصرفه بلطف عن تنفيذ ما كان يريد تنفيذه لتنفيذ إرادة اللطيف الخبير الذى يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر . فالله تعالى قد يصرف إرادة العبد عن شىء يرتجيه وقد يكون شراً له إلى شىء يكرهه وقد يكون خيراً له ، ويوصل إليه الخير الذى يريده له بلطفه ورفقه من حيث لا يدرى .

أراد بعضهم ذات مرة أن يسافر لأمر ذى بال ، فأعد للسفر عدته ، وجهز حقائب سفره واستوى على العربة التى توصله إلى المحط . ولكن حدث فى الطريق ما عوقه ففاته القطار ، فغضب أشد الغضب ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت . ولما علم أن القطار الذى فاته احترق أدرك لطف الله تعالى فى تعويقه ، وأيقن أن اللطيف الخبير سبحانه لم يحل بينه وبين إدراك القطار إلا لأنه أراد أن يبقى على حياته إلى أجل مسمى . فانظر كيف كان الله تعالى لطيفاً بعبده إذ وصل إليه الخير الذى كان يريده له بلطف من حيث لا يشعر !

هل يملك هذا النوع من اللطف أحد إلا اللطيف الخبير سبحانه الذى يوصل إلى عبده لطفه من حيث لا يدرى ولا يحتسب ؟

هل يملك هذا النوع من اللطف الأولياء الذين فتن الناس بعبادتهم ، والتوسل بهم ، والاستغاثة بأسرارهم ، والاستعانة بطول باعهم . وهم لا يملكون شيئاً ويضرعون إلى الله أن يلطف بهم أن كانوا أحياء يرزقون يملكون الضراعة والابتهال أما الموتى فقد تقطعت بهم الأسباب وانقطع ما كانوا يعملون .

أما لو كانوا يملكون ذلك اللطف لدفعوا عن أنفسهم ما أصابهم من مكروه ، ولدرءوا عن أنفسهم الموت أو ما دون الموت من الأحداث التى أصابتهم من حيث لا يملكون لها دفعاً :

لقد اغتيل عمر وعثمان وعلى ، وقتل الحسين بن على ، فما استطاع أحد منهم أن يلطف بنفسه ، ويدرأ عنها هذا المصاب الجلل وما استطاع أحد من أحبابهم الأولياء أن يردوا عنهم سهام القدر .

إذاً فهذا اللطف من خصائص رب العزة سبحانه لا يلتمس عند سواه ولا يطلب من غيره . وأخيب الناس إسهماً ، من طلب اللطف من غير مولاه ، أو أستعان فى الظفر بالخير ودفع والشر بسوى اللطيف الخبير الذى بيده الملك ، وله الخلق والأمر سبحانه وتعالى عما يصفون .

* * *

وإذا أردنا المعنى الثانى وهو الرفيق بالعباد ، البر بهم ، المحسن إليهم ، وجدنا آيات هذا اللطف تتجلى فى كل مكان وتظهر فى كل قيد شعرة فى الإنسان وفى كل قيد أصبع فى السماء والأرض .

أليس من آيات الرفق بالعباد والبر بهم والإحسان إليهم أن خلق لهم ما فى الأرض

جميعاً ، ولم يجعل الإنسان خليفة فى الأرض إلا بعد أن أعد له فيها جميع ما يقوم بحياته ، وجعل له ولذريته فيها معايش يستجدون منها أرزاقهم ، ويستعينون بها على حفظ ذواتهم وبقاء حياتهم إلى الأجل المكتوب » ؟

أليس من لطف الله تعالى بعباده أن جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل ليعلموا عدد السنين والحساب ؟

أليس من لطف الله تعالى بعباده أن خلق لهم الأنعام ليكون لهم فيها دفء ومنافع وطعام وشراب ، ولتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس وأنزل لهم من السماء ماء لهم منه شراب ، ومنه شجر فيه يسيمون ، ينبت لهم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، وسخر لهم البحر ليأكلوا منه لحما طرياً ، ويستخرجوا منه حلية يلبسونها ، وتمخر فيه الفلك مشحونة بالمنافع والخيرات ؟

أليس من لطف الله تعالى بعباده أن رزق الأجنة فى بطون أمهاتها ، ونقلها فى أطوارها ثم أخرجها إلى فسحة الحياة بلطف مع ضيق المخارج ، وحرج المسالك ، ثم هيأ لها من رحمة الأمهات ما يحوطها بالبر ويدرأ عنها كل ضير ؟

أليس من لطف الله اللطيف الخبير سبحانه أن يسرّ لكل كائن حى رزقه . وهيأه للسعى إليه ، ومكنه من الحصول عليه ، فهذه الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ، وليس لها زرع ولا ضرع ، ولا مهنة ولا حرفة ، وإنما هو لطف اللطيف سبحانه أعد لها أسباب العيش ، وهيأ لها مواد الحياة . فطير السماء ، وسمك الماء ووحش الفلاة ، وحشر الأرض أعدت لها أرزاقها قبل أن تدب الحياة فى أبدانها ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) .

ومن آيات لطف الله بعباده أن جعل لهم السمع والبصر والأفئدة ليستعينوا بها فى تدبير أمورهم وجلب أرزاقهم ، ودفع ما يؤذيهم ، ولو خلقهم عميـاً وبكماً وصماً ما وجدوا إلى الحيـاة سبيلا ، ولتعرضوا فى كل نفس إلى خطر الهلاك ، فسبحان اللطيف الخبير الذى أعطى كل شى خلقه ثم هدى . ولم يدع شيئاً ممـا تدب فيه الحياة مهما يكن إلا لطف به ، ومنحه من المشاعر والحواس والأعضاء ما يحفظ عليه الحياة .

أليس من أوضح الآيات الدالة على لطف الله تعالى أن جعل للانسان بعـد يسر له رزقه ـ أسناناً وأنياباً وأضراساً تقطع غذاءه وتمزقه وتمضغـه ، ولعاباً ييسر هذا المضغ ، وبلعوما ينقل الغذاء من الفم إلى المرىء الذى يوصله إلى المعدة التى تهضمه بعصاراتها المتنوعة ، وجعل له أمعاء دقاقاً يصل فيهـا الطعام إلى منتهى هضمه ويصير مادة قابلة لأن تمتصها الأوعية الدموية التى توصلها إلى الكبد لتنقيها مما بها من المواد المؤذية ، وتمنحها ما ينقصها من العناصر وتختزن الزائد على حاجة الجسم منها ، وجعل الدم يخرج من الكبد إلى الرئتين حيث يتلقى من هواء الشهيق الحرارة والنقاء ، ثم يمضى قدماً إلى القلب حيث يدفعه بنبضاته فى مختلف الشرايين التى توصـله إلى جميع أعضاء الجسم وخلاياه فيستحيل إلى سمع وبصر وشم وذوق ولمس وقوة وفهم وتخيل وذكر ، وعواطف ومشاعر وأحاسيس ثم جعل له وسائل لإخراج العناصر الفـاسدة من الغازات والسوائل والجوامد حتى لا تعرض الجسم للضرر الذى يحرمه الحياة . ولعلك تتصور حال الإنسان لو وجد الغذاء بين يديه ثم لم تكن له أجهزة الهضم والتمثيل والإخراج فسبحان ربنا إنه لطيف خبير !

هذا ولم أذكر من آيات لطف الله فى خلق الإنسـان إلا أبرزها وأوضحها ولو رحت أعدد كل ما أعرف من آيات لطفه تعالى فى خلق الإنسان ـ على ما أنا عليه من جهل بالتشريح ـ لضاقت صفحات الهدى النبوى الغراء فكيف لو عرض لمـا عالم بوظائف الأعضاء يوسعها شرحاً وبياناً وتوضيحاً وفيما ذكرت على قلته غنية للمتوسمين .

ومن آيات لطفه تعالى بعبـــاده أنه لم يأخذهم على غرة ، بل أنزل إليهم الـكتب . وأرسل الرسل ليبصرهم بسبيل الرشد ، ويهديهم إلى صراط الحق ، (الله الذى أنزل الـكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب ١٧ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ١٨ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ١٩ ـ الشورى .

ومن شواهد لطفه أن عهد إلى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أن يعلمن نساء المؤمنين أحكام الدين وأن يبلغن ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحـكمة قال تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتـكن من آيات الله والحـكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) .

هذا والذى شرحت لك إنما هو صور من اللطف العـــام الذى يتولى الله به الأحياء عامة والإنسان خاصة . وهناك لطف خاص تولى به بعض المخلصين من عباده .

فمن ذلك لطفه بيوسف عليه السلام حين هيأ له من انتشله من الجب ، ومن أوصله إلى بيت عزيز مصر يجد فيه طعاماً وشراباً وكساء تليق بمن كان فى مثل حاله عليه السلام ، ولطف به حين هيأ له من يدافع عنه من أهل امرأة العزيز حين رمته بما رمته به ولطف به حين أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته . ولطف به حين آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث . وذلك حيث يقول رب العزة سبحانه : (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا . وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لمـــا يشاء إنه هو العليم الحـكيم ـ ١٠٠ يوسف) .

ولطف بيونس عليه السلام حين نجاه من الغم وأخرجه من بطن الحوت وأنبت عليه شجرة من يقطين .

ولطف بنوح وللمؤمنين معه حين أمره أن يصنع الفلك لينجيه من الغرق حين طغى الماء ولم يبق للنجاة موضع .

ولطف بإبراهيم حين ائتمر به قومه ليحرقوه فقال تعالى : « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم » .

ولطف بأيوب حين شكا إليه الضر فكشف ما به من ضر وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى للعابدين .

إلى غير ذلك من آيات لطفه الخاص بعباده المخلصين ، التى تلوح لك واضحة جلية إذا أنت تلوت كتاب الله وحاولت أن تجتليها من بين سطوره النيّرة .

وهذا النوع من لطف الله تعالى ليس لكائن فى الوجود غيره سبحانه ، وقد جلوت عليك أسماء بعض الأنبياء الذين كانوا موضع لطفه تعالى . أفتظن بعد هذا أن الأولياء الذين فتن بهم الناس يملكون هذا اللطف أو يستطيعون أن يقولوا به أحداً من هؤلاء المفتونين بعبادتهم الذين يهتفون بأسمائهم فى القومة والقعدة والحركة والسكون ؟

سبحانك ربى ما قدرك عبادك حق قدرك إذ هتفو بأسماء خلقك والتمسو عونهم فى الشدائد ، وهم أعجز من أن يدفعوا عن أنفسهم شوكة قدرت أن تصيب بعض أناملهم ، أو ذبابة تقذف جرثومة الرمد فى أعينهم ، أو جرثومة الحمى فى طعامهم أو شرابهم .

وإذا أردنا المعنى الثالث وهو العالم بخفايا الأمور ودقائقها فالعالم كله بسمائه وأرضه وطيره ونباته ، وسائله وجامده صفحات شاهدة بلطفة ، فكلها من خلقه ، ومن ثمرات علمه ولطفه ، ولا جرم أنه يعلم بواطنها وخفاياها ، ودقائق تركيبها ، وأسرار عناصرها .

ألم يعلم سر الكهرباء منذ خلق الكون وأمده بها ليجلبها لوقتها ، وقد جعلها سلاحاً لسمك ضعيف يدافع عن نفسه ؟

ألم يعلم أسرار الأثير الذى ملأ به طباق العالم وجعله ساريا فى كل حم ، مالئا لكل فراغ ، وإن كان العلماء لم يقفوا على هذه الأسرار إلا فى آخر الزمان (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه . وما ننزله إلا بقدر معلوم) .

ألم يعلم أسرار الذرة ، وخفايا عناصرها ، ونسب تركيبها ، وعدد ما فى كل ذرة من (بروتونات والكترونات) ؟

ألم يجعل عناصر ذرات المادة الواحدة تتشابة فى عـــدد (بروناتها) و (الكنزوناتها) ولم يجعل العناصر تتنوع وتختلف ! لا لاختلافها فى تركيب ذراتها .

وقد هدى الإنسان أخيراً لحكمة يعلمها ، وسر قد يخفى علينا إلى وسائل تحطيم الذرة ، وتسخير القوى المذخورة فى كيانها فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . (إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . يعلم السر واخفى) . (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

وبعد فهذا لطف اللطيف الخبير سبحانه فماذا يملك منه الأولياء ؟ ماذا يعلمون من خفيات الأمور ، وهى لله وحده ؟

ماذا يعلمون من دقائق الأشياء وحقائق الوجود (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا . وما تدرى نفس بأى أرض تموت) .

(يا بنى . إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أوفى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) .

اللهم يالطيف أسألك اللطف بعبادك ، وتوفيقهم بلطفك إلى معرفة الحق فى أمر عقائدهم حتى يعلموا أنه لا إله إلا الله وأن الغيب لك لايعلمه نبى مرسل

ولا ملك مقرب . فكيف بمن يجهلون عالم الشهادة ؟ فكيف بمن يجهلون أنفسهم ؟ .

اللهم إنك أنت وحدك اللطيف الخبير .

وإذا أردنا المعنى الأخير . وهو الذى لا يرى . فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى برهان . فما زالت عيون البشر طامحة إلى أن تجتلى سبحات وجهه الكريم ، ولكنها لا تزال تنقلب إلى أهلها خاشعة حسرى ، فلا تزال الحجب حجب الأنوار دون وجهه الكريم مسدلة ، وكيف يحيط الفانى بالباقى ، أو يدرك المخلوق حقيقة الخالق ، أو يصل البصر المحدود إلى واهب الأبصار .

لقد قالت بنو إسرائيل لموسى : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) .

وطمحت نفس موسى إلى اجتلاء الأنوار الإلهية فقال : (رب أرنى أنظر إليك . قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل . فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال : سبحانك ! تبت إليك . وأنا أول المؤمنين) .

وقد سئل أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟

فقال : نور ! أنى أراه وحجابه النور ؟

وسأل مسروق عائشة رضى الله عنهما : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت . لقد قف شعرى مما قلت : أين أنت من ثلاث : من حدثكهن فقد كذب ؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ـ (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ـ ثم قرأت : (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) ومن حدثك أنه كتم فقد كذب . ثم قرأت : (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) . (البخارى) .

وأنت خبير بأن كل هذا فى الدنيا ، وأما الآخرة فلها نظام غير هذا النظام « وجوه يومئذ . ناضرة إلى ربها ناظرة » .

والآن وقد تبين لك أن هذه المعانى جميعها صحيحـــة ، ويصح إطلاقها على رب العزة اللطيف الخبير سبحانه فلا مانع فيما أرى من تضمين هذا اللفظ الـكريم . جميع المعانى التى جلوتها عليك . وإذا ذكرت ربك باسمه (اللطيف) فلا عليك[1] أن تستحضر هذه المعانى جميعاً ليذكرك ربك بفضله ولطفه ، وإحسانه وبره ، وبلطف بك فى إيصال مراده من الخير إليك من حيث لا تشعر ولا تحتسب .

اللهم يالطيف يامن لطفت بالأجنة فى بطون أمهاتها ، ألطف بنـــا لطفاً تسعدنا به فى دنيانا به للسعادة فى أخرانا . إنك لطيف خبير .

٢٦ — الخبـــير

الخبير : اسم من الأسماء الحسنى التى يدعى بها رب العزة سبحانه .

وللوقوف على حقيقة معناه ينبغى أن نلم بالمعاجم التى عرضت لتفسير هذه المادة . ففى النهاية لابن الأثير الخبير العالم بما كان وبما يكون ، وخبرت الأمر عرفته على حقيقته . وفى مفردات الراغب : الخبرة العلم ببواطن الأمور ، وفى القاموس المحيط . الخبير : العالم بالأخبار : والعالم بالله تعالى . وقد ذكر هذا الاسم الجليل فى القرآن الـكريم ٤٣ مرة جاء فى ٣٧ منها مجرداً من « ال » وفى الباقى محلى بها وورد فى ٢٦ منها غير مقرون بغير من الأسماء الحسنى وفى ٤ مقارناً باسمه تعالى (العليم) وفى ٤ أخرى مقروناً باسمه تعالى (الحـكيم) وفى ٥ مقروناً باسمه (اللطيف) وفى ٤ مقارناً لاسمه تعالى (البصير) .

والذى يمكن استنباطه من نصوص المعاجم التى سبق الأيماء إليها أن معنـــاه العليم

---

(١) لا يضر .

ببواطن الأمور وحقائقها . ما كان منها وما يكون ، وما هو كائن ، المحيط بأخبارها وأسرارها .

ومن لطفه تعالى بعباده ورحمته بهم أن أخبرهم أنه خبير بأعمالهم أى عليم ببواطنها ، وبالنيات التى حركتها ، والمقاصد التى دفعت إليها ليصححوا أعمالهم . ويجعلوا النوايا التى تصاحبها مرضية له تعالى ، إن من الناس من لهم أعمال ظاهرها حسن جميل مستقيم ، وباطنها قبيح بشع معوج ، كالمنافقين والمرائين ، وباغى القرب والعبادات ، وأولئك الذين يصطنعون الحيل الشيطانية التى يسمونها ـ كذباً وزوراً — بالحيل الشرعية ليتوسلوا بها إلى إضاعة حق الله تعالى ، أو اقتراف ما حرم ، فأخبرهم سبحانه وتعالى أن من أخص صفات الألوهية : العلم بالنوايا والخبرة ببواطن الأمور حتى إذا أراد الشيطان أن يخدعهم عن أنفسهم ، ويخيل إليهم أن الله لا يعلم كثيرا مما يعملون . أو لا يدرى حقيقة ما يفعلون ، استطاعوا أن يكونوا بنجوة من كيده وخداعه ، وبمأمن من شراكه وأحابيله ، وقد جلى لهم سبحانه حقيقة الأمر ليقفوا الحياء ، ويجعلوا بواطن أمورهم مطابقة لظواهرها ، ويربئوا بأنفسهم عن النفاق والرياء ، ولا يحاولوا أن يخدعوا ربهم وهو العليم بما تخفى صدورهم ، ويجعلوا عبادتهم خالصة له وحده ، لا يشاركه فيها رغبة فى كسب مال ، أو حرص على اقتناء عرض من أعراض الحياة الدنيا ، فإن فعلوا ذلك فقد وقوا أنفسهم العقوبة التى ينال الله تعالى بها من يتلونون بشىء من تلك الرذائل الممقوتة .

وهذا يفسر لنا السر فى أن رب العزة سبحانه كلما نبه الناس فى آية من آيات القرآن الكريم إلى وجوب عمل من الأعمال التى قد تكون فى الخفاء أو تحتاج إلى الإخلاص وتطهير النية ، ذيل هذه الآية بمثل قوله تعالى (والله بما تعملون خبير) وقوله (وكان الله بما تعملون خبيراً) وقوله (إن الله كان عليما خبيرا) وقوله (إن الله خبير بما تصنعون) .

قال تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرن أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير ٢٣٤ ـ البقرة) .

وقال تعالى (إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير ٢٧١ ـ البقرة) .

وقال تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيرا ٣٤ ـ الأحزاب)

وإذا كان الإنسان الذى لم يؤت إلا قليلا من العلم إذا أتقن صناعة من الصناعات استطاع بالنظرة العابرة أن يميز الخبيث من الطيب ، فاستطاع الحاذق أن يميز الذهب الابريز من الزائف . فكيف برب العزة الذى خلق الإنسان وخلق له العقل الذى يدبر به ؟ والذهن الذى يحيله ، والفكر الذى يهتدى به إلى غاياته ، فلا جرم أنه العليم الخبير الذى يميز الأعمال بعضها من بعض ، وإن تشابهت فى الظواهر . وتماثلت فى رأى العين ، ويميز الأقوال ، وإن توافقت فى أجراسها واتحدت فى معانيها ، وتشاركت فى وقعها فى الآذان ؟ .

يقف ألوف الألوف من المصلين فى كل وقت من أوقات الصلوات الخمس للصلاة ، فينظر سبحانه إلى قلوبهم جميعاً كأنها قلب رجل واحد ، ولا يخفى عليه ما يجول فى كل قلب ، وما يهجس به كل خاطر ، وما توسوس به كل نفس ، يجازى كل مصل على قدر إخلاصه وقربه وإقباله على ربه ، وخشوعه بين يديه وتبتله إليه فصلوات المصلين تكاد تكون متماثلة فى مظهرها الخارجى وحركاتها الظاهرة أما فى روحها ، وصورها الباطنة فهى مختلفة أشد الاختلاف ، متباينة أعظم التباين ولا يقدر هذا الاختلاف ولا يميز هذا التباين إلا العليم الخبير سبحانه .

وخير علاج لمن يؤانس من جانب نفسه أعراض هذه الأمراض النفسية الخبيثة أمراض النفاق والرياء والاحتيال والشرك ـ أن يذكر اسمه تعالى : الخبير ويجعل معناه نصب عينيه ، ومشهد قلبه ، وأن يثابر مع ذلك ، ما وسعته المثابرة ، فإن فعل كان خليقا أن تصح نفسه ، ويبرأ قلبه وتزايله هذه العلل القاتلة للضمير، المميتة الوجدان، المحيطة للأعمال .

لا يزال الإنسان منذ فطره بارىء النسم يبحث عن خواص مايحيط به من الكائنات، ولا يزال كل جيل يضيف ثمرات بحثه إلى معارف الجيل الذى سبقه ومع هذا لم يصل إلى معرفة أهل القليل من هذه الخواص ، ولكن الخبير سبحانه محيط بهذه الخواص والمزايا جميعاً منذ أنشأ هذه الكائنات ، ومن قبل أن ينشئها لأنه برأها على علم وخبرة ، لتكون موضعاً لهذه المزايا . ومستقراً لهذه الخواص يجلى هذه الخواص لوقتها ، ويهدى الإنسان لكشفها فى الوقت الذى قدره بحكمته فسبحان العليم الخبير الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

فهو سبحانه خبير بخواص الذرة وإمكان تحطيمها وتفجيرها ، ومايتمخض عن ذلك من قوى مدمرة ، أو نافعة ، هو خبير بذلك من قبل أن يخلق السموات والأرض ، وهو خبير بالوقت الذى قدر أن يمنح البشر فيه العلم بذلك فلما جاء الوقت المحدد . ووافى الأجل المسمى هدى البشر إلى هذا السر ، الذى ظل مطويا طوال هذه الأجيال ليترتب على كشفه ما قضى الله أزلا أن يترتب عليه فى آخر الزمان .

وكان سبحانه خبيراً بأسرار الكهرباء والمغناطيسية من قبل أن يخلق الزمان والمكان ، ولما أراد أن يغير وجه العالم كشف الحجاب عن هذه الخفايا ، وأماط اللثام عن تلك الأسرار ، ليظهر سيطرة الإنسان على ما حوله من الكائنات وليهيىء له وسائل للعيش خير من وسائل أسلافه ، وليحقق ناموس الترقى الذى أخضع له سائر الموجودات .

وكان سبحانه خبيراً بطرق الوقاية والمناعة من الأمراض من قبل أن يخلق الجراثيم الفتاكة التى كانت تفتك ببنى الإنسان ، وتخلى منهم رقاعا واسعة من الأرض ، ليفيض الخير ، وتزيد ثمرات الأرض على حاجة الناس ، فيحرقوا العفو منها قرباناً لله . فلما أراد

الخبير العليم سبحانه أن يخرج الإنسان من حياة الدعة والخمول إلى حياة الجد والكفاح والتنافس وتنازع البقاء هداه إلى الوسائل التى يتغلب بها على الرصد ، ويقضى على الوباء ، ويفتك بالجراثيم ليزدحم الناس على رقعة الأرض ، ويعمل كل منهم على أن يكسب مادة عيشه بين هذه الجموع المتقاتلة المتنافسة بعد أن كان وادعا يأتيه رزقه رغداً من كل مكان .

وهو سبحانه خبير بأسرار الأصوات وأمواجها وترددها قبل أن يهدى الإنسان إلى تسجيلها على أقراص من الشمع تدور تحت إبرة تتصل بجهاز خاص فينبعث الصوت ، كما انبعث من صاحبه يوم تسجيله ، وهو خبير بأسرار الأمواج الضوئية وإمكان تحويلها إلى أمواج صوتية على شريط الخيالة فتسمع أصوات المتكلمين حتى بعد أن يرتحلوا من هذا العالم الفانى إلى العالم الباقى . وإنما هدى الناس إلى معرفة ذلك فى الأجل الذى اقتضت فيه حكمته أن يزيل الأستار عن هذه الأسرار .

وهو خبير بأسرار الإشعاع والأشعة والعجائب التى تحدثها فى هذا الوجود فالراديو وأسراره ، والرادار وعجائبه ؛ والتليفزيون وروائعه وغيرها من روائع الاختراع ، وبدائع الابتكار مما كان الله به عليما خبيراً قبل أن يذرأ الأشعة ، ويخرجها إلى هذا الوجود ، ولكنه ادخر كشف أسرارها وهداية الإنسان إلى مزاياها إلى الأجل الذى قدره فى الأزل السحيق .

والإنسان مستمتع بحواس وأعضاء تؤدى وظائف ، وتحقق منافع وأغراضاً ، فهو ينتفع بهذه الوظائف ، ولكنه لا يدرى كيف تؤدى ؟ لا يدرى كيف يسمع ولا كيف يبصر ، ولا كيف يدرك الروائح والملامس والطعوم ؟ ولكن الله تعالى خبير بكل ذلك لأنه هو الذى خلق المشاعر ، وأودعها مزاياها وضمنها أسرارها الخفية التى لا يدركها إلا هو .

وفى الإنسان وعجائب خلقه وتكوينه وما فيه من خواص الأعضاء وأسرارها ووظائفها وما فى بدنه من سوائل وجوامد ومن شرايين وأوردة وأعصاب وأربطة وخلايا،

وكرات دموية حمر وبيض ، وغدد صم وإفرازات متنوعة ما لو منحه الإنسان فضل تأمل لملكه العجب ، واستخوذت عليه الدهشة . وأخذ عن نفسه وحسه ، لروعة ما يدرك من آثار قدرة العليم الخبير .

ومن الأمراض مالا يزال نطس الأطباء وحذاقهم عاجزين عن علاجها والطب لها ، ولكن اللطيف الخبير سبحانه محيط بأسرار دوائها من قبل أن تسن الحمأة التى فطر منها البشر ، وسيلهم الأطباء أو غير الأطباء كشف هذه الأسرار يوم تقتضى حكمته العالية إبرازها للوجود .

وكم فى الطبيعة من أسرار لا يزال البشر يجهلونها ، ولكن الله تعالى خبير بها ، محيط بدقائقها وروائعها ، وسيجليها لوقتها يوم تقضى الحكمة بتجليتها ليمكن الإنسان من السيطرة على قوى الطبيعة جميعا ، ويسخر له ماشاء تسخيره من أسرار الوجود ، ويحقق قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) .

وهو سبحانه الخبير بطبائع الأمم واستعدادها ، ومن أجل ذلك ينزل لها الشرائع التى تواثم مداركها وغرائزها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، كما أنه خبير بطبائع النفوس واستعدادتها ، فلا يكلف نفسا إلا وسعها ، ولا يحملها مالا طاقة لها به .

وهو خبير بما يصلح لهذا العالم من السنن والنواميس ، فوضع منها مالا يتم عمران هذا الكون إلا به ، وجعله من الثبات والدوام بحيث لا يقبل تغييراً ولا تبديلا (سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

وبعد ، فهذا معنى اسمه تعالى الخبير ، كما جلوته عليك ، فهل تجد هذا المعنى على تمامه وكماله فى ملك مقرب أو نبى مرسل ؟

وإذا كان ربك هو الخبير بحق فهل نظنه فى حاجه إلى من يخبره بمصالح خلقه أو بأنهم فى حاجة إلى رحمته وعونه ولطفه وفضله ؟

هل هو فى حاجة إلى من يخبره بضعف عباده وحاجتهم إلى عنايته ورعايته ؟ فلم يلجأ الناس إلى المخلوقين يستعينونهم ، ويستغيثونهم ، ويدعونهم من دون الله أو مع الله ويسألونهم أن يرفعوا إلى الله حاجتهم . أهم أعلم أم الله ؟ أهم أخبر أم اللطيف الخبير ؟ فقد ضلوا وما كانوا مهتدين .

جاء فى القاموس المحيط أن الخبير هو العالم بالأخبار ، وليس فى الوجود كله أعلم بأخبار السموات والأرض والجن والإنس والملائكة من العليم الخبير سبحانه ، فهو سبحانه عليم بالأخبار جميعا ، ماعلم الناس منها وما لم يعلموا ، ماذكر الناس منها ومانسوا ، مالا يزال ماثلا للعيون وما صار فى عالم الغيب . قال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وقال تعالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)

فهو سبحانه خبير بالأنباء جميعاً محيط بالأخبار كلها . يطلع أنبياءه ورسله على مايشاء فتتجلى حكمته ، وتنفذ مشيئته (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ويقص على خلقه من أنباء ماقد سبق لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً . (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

وفى القاموس المحيط : الخبير هو العالم بالله تعالى ، وليس أعلم بالله من الله فان كان العارفون يعرفون أسماءه وصفاته ومظاهر أسمائه وصفائه فهو سبحانه خبير بحقيقة ذاته ، وأدق معانى صفاته ، وحقائق أسمائه ، وقد وصف سبحانه نفسه بالصفات العلا ، وهو أخبر بنفسه من خلقه . فما على المخلوقين إلا أن يتقبلوا عن ربهم ما أخبرهم به من صفاته القدسية وأسمائه الحسنى ، بغير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل . فليس الناس بأعلم بالله من الله ، ولا أحرص على تنزيهه من نفسه ، وقد رضى لنفسه سبحانه صفات وأسماء ،

وقد أخبرنا بها لنصفه بصفاته ، وندعوه بأسمائه ، فلنكن شجعانا فى الحق ، صرحاء فى الاعتقاد ، ولنصف ربنا سبحانه بما وصف به نفسه على مراده ، مع تنزيهه عن كل مالا يليق بعظمته وجلاله . فهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . وليس كمثله شىء وهو السميع البصير سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

٢٧ — العليم

هو المحيط علمه بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها ، خفيها وجليها ، على أتم الوجوه وأكمل الأحوال .

واشتقاقه من العلم ، وهو بالقياس إلى المخلوقين الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل .

فالشك والظن ليسا بعلم ، لعدم الجزم واليقين . وإدراك الشىء على غير الحقيقة والواقع ليس بعلم لعدم مطابقته للواقع ، والإدراك الجازم المطابق للواقع عن محاكاة وتقليد لا عن دليل وبرهان ليس بعلم كذلك لأن صاحبه لايستطيع أن يأتى بالبرهان على صحته .

ونستطيع أن نقول : إن العلم هو إدراك الشىء بحقيقته ؛ ولذلك الإدراك ضربان : أحدهما إدراك ذات الشىء ، وهو الذى يعبر عنه أصحاب المنطق بالتصور كإدراك ذات الساعة مثلا .

والثانى الحكم على الشىء بثبوت شىء له أو نفيه عنه وذلك ما يعبرون عنه بالتصديق كالحكم على الساعة بالجدة أو نفى القدم عنها مثلا .

وهذا وعلم البشر نوعان : نظرى وعملى ، فالنظرى يتم بمجرد الإحاطة به كالعلم بشىء من موجودات هذا الكون .

والعملى لايتم إلا بالممارسة العملية وهو الذى يعبر عنه بالفن كالموسيقا مثلا فالعلم بقواعد الأنغـام وأوزانها وطريقة الايقاع نظرى ؛ والقدرة على اخراج أنغام مضبوطة موزونة بريئة من النشوز عملى أو فنى لايتم إلا بالمزاولة العملية

وللعلم تقسيم آخر من جهـة أخرى ؛ فهو سمعى وعقلى ، فالسمعى ما يتلقى بالسماع بغير أن يـكون للعقل مجـال فى الوصول إليه كالعلم بوجود الملائـكة والجن وأحوال الآخرة . والعقلى ما يمـكن الاهتداء إليه بالتفـكير وإحالة الذهن كسائر القضايا العلمية .

وله تقسيم آخر من وجه ثالث . فهو قسمان كذلك بدهى ونظرى فالبدهى مالا يحتاج إلى استدلال والنظرى مايحتاج إليه .

هذا وما ذكرت هذه الأقسام كلها إلا لتعلم أن علم الله تعالى فوقها جميعاً ، وأن هذه التقسيمات لا تلحق علمه سبحانه بل هو منزه عنها ومبرأ منها ، فعلمه تعالى ذاتى لاينشأ من إحالة فـكر ، ولا اضطراب حاسة ، وهو محيط بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها ، دقيقها وجليلها ، حسيها ومعنويها على السواء .

وكل ما أنت راء فى هذا الوجود مجال ومظاهر لعلمه تعالى .

هذا النظام الرائع البديع .

هذه الـكواكب والنجوم التى تسبح فى أفلاكها بحركات منظمة أتم نظام وأروعه ، بغير أن يصطدم بعضها ببعض ، وبغير أن يسلك بعضها طريقاً غير الطريق الذى رسم له مع هذا التماسك بين المجموعات المختلفة من النجوم التى تجرى معا بغير أن تتغير المسافات التى تفصلها فى رأى العين من لدن وضعها الله فى مواضعها من هذا الفضاء الهائل إلى أن تمـكدر فى اليوم الموعود

وهـذه الشمس التى يبعث بهـا الضوء والحرارة إلى ما يدور حولهـا من الـكواكب وتوابعها .

وهذه الأرض التى جعل فى أديمها المادة التى خلق منها الإنسان وما خلقه من أجله من الحيوان والنبات .

وهذا القمر الذى جعله مصباح السماء ليلا يضىء للسارى والمقيم .

وهذه المصابيح التى زين بها السماء الدنيا وجعلها رجوما للشياطين ونثرها فى أكناف السموات ليهتدى بها الناس فى ظلمات البر والبحر .

وهذا الحب يلقيه الزارع فى الأرض فيمتص كل نوع من أنواعه من عناصرها مابه قوامه ونماؤه ، والتربة واحدة ، والماء واحد ، والهواء واحد .

وهذا الإنسان وهو العالم الأصغر ، أقامه على قدمين ، وجعل له يدين يبطش بهما ، وأصابع يتناول بهـا الدقيق من الأشياء ، وجعل له أعصابا للحس وأخرى للحركة والإرادة ، فلا يريد شيئاً إلا سرت الإرادة فى أعصـاب الحركة فحركت العضو المراد فى أقل من لمح البصر ، وجعل له عقلا يدبر به مصالحه ويدرك أمور معاشه ومعاده ، وجعل له السمع والبصر ليحصل بهما معارفه ، وجعل له الأسنان والأنياب والأضراس لقطع الطعام وتمزيقه ومضغه ليسهل على المعـدة هضمه . وإن فى خلق الـكبد لآية بينة على العلم الذى وسع كل شىء ، فهى تمد المعـدة بالصفراء التى تعين على هضم المواد الدهنية ، والـكبد تمسك السموم أن تنتشر فى الجسم فتؤذيه ، وتختزن السكر الزائد على حاجة الجسم لتمده به إذا تناول طعاما يقل فيه المقدار اللازم لحاجته .

وإن فى القلب لآية . هذه الحركة الدائمة بدوام الحياة ، وهذا النبض الذى لا يسكن ليلا ولا نهاراً ولا يقظة ولا مناما بدون أن يخضع لإرادة الإنسان إذ لو خضع لها لمات الإنسان إذا نام وتعطلت إرادته .

وفى الرئتين اللتين تنقيان الهواء وتمسكان الاكسجين الذى يمنح الحرارة والحياة وتطردان الحامض الـكربونى الذى فيه المضرة والهلاك .

وفى الدورة الأموية وعجائبها ، وفى العين وعجيب تركيبها . وفى الأذن ودقيق تكوينها ، وفى الجلد ومسامه ، وفى الشعر والأظفار وإمدادها بالقوة التامة وحرمانهما من الحس والشعور حتى إذا قص الشعر وقلمت الأظفار لا يشعر الإنسان بأقل ألم . وفى أجهزة التنفية كسارب العرق ، ومالك البول وفى الأجهزة الجنسية وعجائبها ومراتب تكوينها وإحساسها ووظائفها . .

كل هذه العجائب التى تراها فى نفسك وفى غيرها ، وترى مثلها فى الحيوان كبيره وصغيره ، آيات بينات على أن ربك بكل شىء عليم . (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . ١١)

وما ذكرت لك إلا أمثلة ونماذج تقيس عليها وتهتدى بها فى البحث والنظر والتأمل والتدبر ، وأقل ذرة من ذرات هذا العالم سمائه وأرضه وجباله وبحاره وعامره وغامره تصلح وحدها موضوعا لسفر ضخم يوضح لك من عجائب علم الله ماتأخذك معه الدهشة والحيرة . وما يزيدك إيماناً ويقيناً وخشية من الله وحياء .

تصور مافى السموات وما فى الأرض من كائنات لايحصرها العد واعلم أن ربك قد أحاط علما بكل ذرة من ذراتها وعلم أقدارها وأحجامها وألوانها وعناصرها وتركيبها وخواصها وما فيها من نفع أو ضر وقد أشار إلى ذلك كله فى قوله تعالى فى سورة سبأ : (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين)

سبحانه قد استوى أمام علمه السر والعلن ، والباطن والظاهر ، والخفى والبادى وقد أحاط علما بخطرات الأفكار ، وخلجات النفوس ، ومسارح الأمانى ، ومطارح الآمال يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ولقد استأثر سبحانه بعلم الغيب فلم يظهر عليه أحداً من خلقه إلا المرتضين من رسله

أخبرهم ببعض الغيوب لتكون أدلة على ثبوتهم ، وبراهين على صدق رسالتهم كما قال تعالى فى سورة الجن (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) وقال تعالى (وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء) وقال تعالى : (إنما الغيب لله) .

وقال تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

وقال تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) .

وإذا كان الغيب لله وحده فمن الجهل والحمق والسفه إتيان العرافين والعرافات والدجالين والدجالات وسؤالهم عما أضمر القدر فى صدره للسائلين والسائلات . إذ لو كانوا يعلمون الغيب لاستكثروا من الخير وما احترفوا الدجل والاحتيال . وإذا كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب فكيف يعلمه أولئك الدجالون .

والعجب للمسلمين الذين يقرءون القرآن وهم عن معانيه غافلون

ألم يتلوا قول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون(الأعراف : ١٨٨) وتصديق العرافين من أوضح الدلائل على نقص العقل ، وضعف الإدراك كما أنه آية على ضعف الدين

ويقول صلى الله عليه وسلم : « من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » .

ويقول : « من صدق كاهنا أو عرافا فقد كفر بما أنزل على محمد »

فانظر كيف يحرص الشارع الحكيم على عقول الناس ويحول بينهم وبين تعطيلها وإهدارها .

ويعجبنى هنا قول الشاعر .

لعمرى ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقوله : لا يعلم المرء ليلا بصيحته إلا كواذب مما يخبر الفال

والفال والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

هذا واستحضار هذا الاسم الجليل من خير ما يدفع الإنسان إلى أن يستحيى من الله حق الحياء فيجتنب كبائر الإثم والفواحش ، ويحذر ما يسخط الله من قول أو عمل .

وجدير بمن يذكر قول الله تعالى : (وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)

وقوله تعالى : (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات والأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم » .

جدير بمن يتلو هذه الآيات الكريمة ويتدبرها ألا يسمح لنفسه أن تقلوث بسبة أو تلم بخطيئة ، وألا يأذن لضميره أن يهجس بشر أو أن يضطرب بسوء .

ورد هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم فى ستة وأربعين ومائة موضع وما ذلك إلا لإيقاظ القلوب ، وتنبيه البصائر ، وأحياء الضمائر ، وتربية خلق الحياء من الله تعالى ومراقبته ، وتوجيه الأذهان إلى أن الله جل شأنه وتبارك اسمه مطلع

على كل شيء وعليم بكل شيء فإذا امتلأ قلب المؤمن يقينا بهذه الحقيقة كان من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه لعلمهم أنهم إن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، ويعلم ما أكنوا فى أنفسهم وما أضمروا فى صدورهم وما أظهروا من أعمالهم .

إذا استحضر المؤمنون معنى هذا الاسم الجليل وعملوا بما يقتضيه استحضاره سعدوا فى الدنيا والآخرة واختفت من بينهم أشباح الفقر والمرض والجهل فالغنى الذى يوقن بأن الله عليم بالمال الذى رزقه إياه لا يضن على الفقراء والمساكين بحقوقهم فيه ، والفقير الذى يوقن بأن الله عليم بما يعمل يقنع بما فى يده لا يتطلع إلى ما فى يد غيره فتبرأ الجماعة المؤمنة من شرور السرقة والنصب والاحتيال والغش وتطفيف الكيل وإخسار الميزان ويكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ويحب كل لأخيه ما يحب لنفسه ، وتسود روح المرحمة والتعاون ويتعلم الجاهل ويصح المريض .

لو أيقن هؤلاء الوسليون أن ربهم بكل شيء عليم وأنه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور لكفوا عن سؤاله تعالى بالمخلوقين وتوسلهم إليه بذواتهم واتخاذهم وسطاء وشفعاء لديه ، فهو تعالى غنى عن يعلمه بحاجات عباده فهو وحده مطلع عليها ، وهو وحده يجيب المضطرد إذا دعاه .

فسبحانه يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون يعلم الماضى والحاضر والمستقبل علما تفصيليا بجميع الدقائق والجزئيات والأفراد من جميع الأحداث والكائنات ، والعواطف والانفعالات وهو عليم بذات الصدور ؟

٢٨ — الغفار . ٢٩ — الغفور

هذا الاسم الجليل من أسمائه تعالى الحسنى التى تزف البشرى للمؤمنين وتسوق الطمأنينة إلى قلوبهم ؛ والأنس إلى أنفسهم ، وإليك ما قال أعلام اللغة فى تحقيق معناه :

قال الفيروزابادى : غفره ستره ، وغفر الله ذنبه يغفره غفراً وغفرة حسنه (بالكسر) ومغفرة وغفوراً وغفراناً وغفيراً وغفيرة غطى عليه وعفا عنه .

وقال الراغب : الغفر إلباس الشىء ما يصونه من الدنس ، ومنه أغفر ثوبك فى الوعاء ، واغفر ثوبك فإنه أغفر للوسخ . والغفران والمغفرة من الله تعالى وهو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب

وقال ابن الأثير : الغفار الساتر لذنوب عباده وعيوبهم ؛ المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم . وأصل الغفر التغطية يقال غفر الله لك غفراً وغفراناً ومغفرة ، والمغفرة إلباس الله تعالى العفو للمؤمنين . . . اه .

والذى يستنبط من مجموع هذه النصوص أن الغفار هو الكثير المغفرة وأن المغفرة ستر الذنوب والتجاوز عنها والعفو عن مقترفيها وصونهم من أن يمسهم العذاب بسببها ، وإلباسهم العفو عن خطيئاتهم فالله سبحانه وتعالى غفار أى كثير الستر لذنوب عباده المؤمنين ، عظيم التجاوز عنها ، والعفو عن مقترفيها يصونهم بمغفرته من أن يمسهم العذاب ويذيقهم حلاوة العفو

وقد بشر الله تعالى عباده فى كتابه الكريم ليطمئنوا إلى مغفرته ، ويأنسوا بعفوه ؛ ويسكنوا إلى تجاوزه ولا يقنطوا من رحمته : فقال تعالى فى سورة الزمر : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم ٥٣ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون

٥٤ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون ٥٥ ان تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ٥٦ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ٥٧ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ٥٨ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ٥٩) فقد بشر الله الغفار سبحانه عباده المسرفين على أنفسهم بواسع مغفرته ونهاهم عن أن يقطنوا من رحمته مهما يسرفوا فى اجتراح السيئات ، ومهما يقترفوا من كبائر الإثم والفواحش ، وبشرهم بأنه يغفر الذنوب جميعاً دقت أو جلت ، كبرت أو صغرت . وكل ماعليهم إن صدقت رغبتهم فى هذه المغفرة وسمت نحوها آمالهم : أن ينيبوا إلى ربهم ويسلموا له ، ويقلعوا عن آثامهم ويتطهروا من أوضار الخطايا بالتوبة النصوح . ولا ينبغى المؤمن أن يتلو آية البشرى وحدها ثم يطير بها فرحا قبل أن يتلوا الآيات التى تتصل بها لئلا يكون من الذين جعلوا القرآن عضين ، فآيات القرآن يفسر بعضها بعضا ، ففى هذه الآيات البينات حين بشر الله بهذه المغفرة الشاملة طلب من هؤلاء الذين ساق إليهم هذه البشرى أن ينيبوا إليه ويسلموا له من قبل أن يأتيهم العذاب ثم لاينصرون . وإنما تتم البشرى لهؤلاء الذين يقومون بتحقيق ماطلب منهم فيما يلى من الآيات .

يؤيد هذا قول الله تعالى فى سورة طه : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى . ٨٢) .

لم يقل الله تعالى : إنى لغفار لكل من دب ودرج من العصاة والآثمين : بل قال سبحانه إنى لغفار لمن تاب ولم يقتصر على ذكر التوبة حتى ذكر الإيمان ، ولم يقف عند ذكر الإيمان حتى ذكر العمل الصالح ثم توج ذلك كله بالهداية ، فمن تحققت منه التوبة والإيمان والعمل الصالح والهداية رجيت له المغفرة . وفى هذا قضاء على غرور المغترين ، وطمع الطامعين ، وأمانى المفتونين ؛ الذين يتمنون المغفرة بغير عمل صالح قدموه ، ولا حسنة أدخروها لمعادهم ، بل توكلوا على أشياخهم ومن يمتون إليهم بصلة

القربى من الأولياء والصالحين ، أو على محض رحمة الله التى وسعت كل شيء . وينسون أن رحمة الله التى وسعت كل شيء أخبر بأنه سيكتبها لفريق خاص من الناس هم أحق بها وأهلها فقد قال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ١٥٦ الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون : ١٥٧)

وللرسول عليه الصلاة والسلام كلمة جامعة حكيمة لو قرأها أسرى الأمانى وتدبروها لصرفت أبصارهم عن خدع الشيطان الذى يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ولأقبلوا على الصالحات يبتغون بها الوسيلة إلى مغفرة الله وجنته ، فاستمع اليه صلوات الله عليه يقول (ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقة العمل . إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) .

هذا ولعلك تتدبر ماقصه الله علينا من استغفار الملائكة للمؤمنين إذ يقول : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم . ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ٧ ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ٨ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ٩ . غافر)

وعسى أن تتدبر قوله تعالى فى سورة الرعد : (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ٢٣ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار : ٢٤) .

فى هذه الآيات وأشباهها ما يقضى على غرور المغترين وآمال المسرفين الذين تفوق أنفسهم إلى مغفرة الغفار بغير توبة نصوح ولا صالح عمل ولا حسنات يذهبن ما اقترفوا من السيئات .

علم الله تعالى ضعف الإنسان وغلبة الغرائز عليه وتحكم العادات والبيئات والأهواء والشهوات فيه ، فيسر له سبيل الخلاص ولم تؤيسه من مغفرته مهما تبلغ أوزاره ، بل فتح له باب القبول ودعاه إلى التوبة ليخلص من أوضاره ؛ وبطهر من أدرانه على أنه وعد بمغفرته الواسعة الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ؛ قال تعالى فى سورة النجم (ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ٣١ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم من اتقى : ٣٢)

إن مغفرة الله الواسعة تسع كل ذنب وتأتى من وراء كل خطيئة مادامت لم تنحط إلى درك الشرك . قال تعالى فى سورة النساء : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما : ٤٨) ولكن لا ينبغى أن يخدع بهذه الآية المغرورون فيسوفوا التوبة أو يفرطوا فى جنب الصالحات ، إذ من لهم بأنهم ممن يشاء الله أن يغفر لهم ؟

ويبدو أن كثيراً من الناس يخطئون فهم المشيئة ويحسبون أن الله تعالى يشاء ما ينافى حكمته أو ما تتبدل معه سنته . وحاش لله ! لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد . ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . فمشيئته تعالى موافقة لحكمته جارية على سنته والآية الكريمة واضحة أتم الوضوح ، جلية أنصع الجلاء ؛ فقد بين تعالى أنه لا يغفر لمن كان مشركا به تعالى ثم مات على هذا الشرك قبل أن يطهر نفسه بالإيمان وتجريد التوحيد .

ويتحقق الشرك بأن يعتقد الإنسان أن غير الله يستطيع أن يجلب له خيراً أو يدفع عنه ضراً فى الدنيا والآخرة بقوة غيبية وراء الأسباب الكونية فيدعوه أو يعتمد عليه مع الله تعالى . وكذلك يتحقق بأن يتبع الإنسان بعض الناس فى العقائد أو العبادات أو التحليل والتحريم ؛ مخالفا نصوص الكتاب الكريم أو سنة سيد المرسلين .

ويتضح من هذا أن الشرك ضربان : شرك فى الألوهية . وشرك فى الربوبية فالشرك فى الربوبية هو اعتقاد أن لغير الله تعالى سلطانا وتأثيراً وراء الأسباب والسنن الكونية ، وكل قول أو عمل يثمره هذا الاعتقاد .

وأما الشرك فى الألوهية فهو أن يتعبد الإنسان لله تعالى بما شرعه الناس مخالفاً لما أنزل الله على رسوله .

هذا وقد سرى الشرك فى الألوهية والربوبية إلى كثير ممن ينتمون إلى الإسلام من عهد بعيد وناهيك بالباطنية ومن على شاكلتهم . فهذا الشرك بنوعيه هو الذى لا يغفره الله تعالى . والحكمة فى ذلك واضحة ، فما شرع الله الدين إلا لتزكية الأنفس وتطهير الأرواح والسمو بالعقول . والشرك هو أسفل درك تنحط إليه الأنفس والأرواح والعقول ، وهو أصل النقائص والرذائل جميعاً بل ينبوع المفاسد التى تهوى بالأفراد والأمم إلى مكان سحيق

أى إسفاف وانحطاط وتدهور وراء أن يعمد ابن آدم الذى كرمه الله وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضّله على كثير من خلقه تفضيلا — إلى مخلوق مثله أو دونه فيرفعه إلى درجة العبادة والتقديس ؛ وينسب إليه من الشئون ما ليس إلا للخالق سبحانه ثم يذل له ويخضع ويتوجه إليه ويضرع معتقداً أن له قوة غيبية وراء الأسباب

الكونية وسنن الوجود ، وأن طاعته طاعة لله ؛ وأن التقرب إليه تقرب إلى الله ، وأن مرضاته مرضاة لله ؟؟؟ .

ما نشأ استبداد السادة والكبراء واعتسافهم وإذلالهم للناس إلا من هذه العقائد الشركية عياذاً بالله منها ومن أصحابها .

أما التوحيد فهو أن يعتق الإنسان نفسه من رق العبودية لأى مخلوق مهما يسمو قدره أو يعزز علمه ، وأن يكون حراً كريماً عزيزاً بالإيمان لا يخضع خضوع عبودية مطلقة إلا لمن خضعت لسنته الكائنات ، وقامت بأمره الأرض والسموات

إن أرواح الموحدين تسمو بالإيمان وتجريد التوحيد إلى الدرجات العلا وأما أرواح المشركين فأنها تنحط بهم وتهوى إلى أسفل درك ، ومهما يعمل المشركون من الصالحات فعملهم باطل لا أثر له فى تزكية أنفسهم ولا فى تطهير أرواحهم . أما المؤمنون الموحدون فهما يعملوا من الآثام فإن آثامهم لا تحيط بأرواحهم ، ولا تفسد جواهر أنفسهم ، ولا تطغى ظلمتها على أنوار قلوبهم ، بل الإيمان يدعوهم دائما إلى أن يرجعوا إلى ربهم ، ويتوبوا من ذنوبهم ، فيعود إلى نفوسهم صفاؤها ، وإلى أرواحهم نقاؤها وإلى قلوبهم نورها وضياؤها ، كما قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وكما قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

فهم بتوحيد الله تعالى ومعرفته تسمو فضائلهم على رذائلهم ، ويغلب خيرهم على شرهم . وترجح حسناتهم بسيئاتهم فتذهب بها كما قال تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات) وكما قال عليه الصلاة والسلام (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) وإذا امحت السيئة وذهب أثرها من النفس فذلك هو الغفران .

إن النفوس تعلو بالصالحات كما يعلو الزئبق فى (الترمومتر) بالحرارة وتنحط بالسيئات كما ينحط بالبرودة . وما العقاب إلا أثر طبيعى للذنب ينشأ منه ويترتب عليه كما تنشأ المسببات من الأسباب وتترتب عليها . فالذنوب التى لاتبلغ درك الشرك فى إفساد النفوس وتنسيتها مغفرتها ممكنة تتعلق بها المشيئة الإلهية فمنها ما يكون تأثيره فى النفوس قويا ، يقتضى العقاب ، ومنها ما يكون أثره ضعيفاً يغفر بما يزيل هذا الأثر من صالح الأعمال فعلى الإنسان أن يكثر من الصالحات حتى إذا أعجله الموت عن التوبة كانت حسناته مذهبة لسيئاته ، وكانت سيئاته مرجوة المغفرة بمشيئة الله تعالى .

ومما يتعلق بهذا البحث الاستغفار وهو سؤال الله المغفرة ، فيجب أن يكون قولا باللسان وعملا بالجوارح فقد قيل : الاستغفار باللسان بدون الأفعال فعل الكذابين .

وربك سبحانه غفار ، لا تعتاص على مغفرته سيئة مهما تعظم ؛ ولا يشق عليه أن يغفر ذنوب عباده وخطيئاتهم ، ولو كانت أمثال الجبال ، فهو قادر على أن يغفر الذنوب التى اقترفها العباد منذ دب الإنسان على الأرض إلى أن يرث الأرض ومن عليها . كما أنه قادر على أن يغفر ذنوب كل شخص ولو كانت كزبد البحر بمشيئته الحكيمة .

ونسألك اللهم يا واسع المغفرة أن ترزقنا توحيداً خالصاً تعزبه أنفسنا ، وعملا صالحاً يمحو سيئاتنا ، ويطهر قلوبنا ، وتوبة نصوحا تتجاوز بها عن آثامنا إنك عزيز غفار

٣٠ — الغالب

الغلبة : القهر والعزة والامتناع

والله تعالى غالب أى قاهر تنفذ إرادته فى كل مخلوق ، ويمضى أمره فى كل كائن ، ولا يدركه طالب ، ولا يفوته هارب ، ولو اجتمعت قوى الإنس

والجن والملائكة على أن تناول منه مالم يرد ، لباءت بالخيبة ، وردت مغلوبة على أمرها .

وكل مافى السموات والأرض لغلابيته

فأول مظاهر غلبته تعالى : أن غلب العناصر الأولى على أمرها وفطرها ألوانا من الفطرة . فاستوى إلى فريق منها ضم بعضه إلى بعض بقدر معلوم فقضاه هواء . واستوى إلى فريق آخر فجعله ماء ، وجعل فريقاً منها ناراً ، وفريقاً تراباً . وما أكثر العناصر التى ينطوى عليها أديم الأرض ، منها ما عرفه الإنسان وانتفع به ومنها مالم يعرفه بعد ، وهو جاهد فى كشفه .

ما استعصى من هذه العناصر على الله الغالب شىء ، ولا أى كائن أن يكون كما أراد رب الأكوان . غلب عناصر فجعلها سوائل فلم تمتنع عليه ، وغلب أخرى فجعلها جامدة فلم تخالف عن أمره .

جعل من هذه العناصر سموات وأرضين وشموساً وأقماراً . وكواكب ونجوما فكانت طائعة ذلولا لمشيئته

وجعل منها إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً فخضعت لإرادته

واستوى إلى ما وراء المادة فسوى العقول والأرواح والأنفس والملائكة والجن والشياطين . وأقام كلا منها حيث أقامه فقام مغلوبا على أمره ، خاضعاً لأمر الله ومشيئته .

وغلب عناصر الذرات من (بروتونات) و (إلكترونات) فألزمها أن تحتبس فى غلفها ، وأن يبقى وراء جدرانها ، وبنى منها ما خلق من الأجسام الحية والجامدة ، والغازية السائلة ، فألقت بأيديها خضعاناً للحى القيوم الغالب وإلى هذه المعانى يشير قوله سبحانه (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ،

قالتا : أتينا طائعين ١١ فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ١٢ : ٤١) وقوله تعالى (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال وقوله تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب) فإن السجود هو الخضوع ، والخضوع أثر الغلبة فى المغلوب

ومن مظاهر غلابيته سبحانه : أن غلب الجن والشياطين والمردة ، وحال بينهم وبين التمكن من إلحاق الأذى المادى بينى الإنسان ، وهم أعدى أعدائهم ، ولو لم يغلبهم الله على أمرهم ويكف بقدرته وقهره أذاهم لفتكوا بهم الفتك الذريع ، ولعدوا على المؤمنين والصالحين والمصلحين فلأذاقوهم النكال ، وأروهم الويلات ، لأنهم يرون الإنسان من حيث لا يراهم ، فلو أتيح لهم أن يسطوا به لكانوا على الثأر منه أقدر ، وعلى النكاية به أقوى ، ولكن العزيز الغالب سبحانه غلبهم وحفظ بنى آدم من شرهم فلم يمكنهم إلا من الإغراء بالشر ، والإغواء بالفساد ، والوسوسة فى الصدور امتحانا للبشر ، وابتلاء لبنى آدم . وقد نبه البشر إلى عداوتهم ليأخذوا حذرهم ويحتاطوا لأمرهم فقال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل (وكذلك غلبهم الله على أمرهم وحال بينهم وبين استراق السمع ، وحفظ السماء من أن يتخذوا منها مقاعد للسمع ، وجعل من الكواكب رجوما تقصيهم عن مرادهم قال تعالى (وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ٦ وحفظاً من كل شيطان مارد ٧ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ٨ دحوراً ولهم عذاب واصب ٩ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ١٠ : ٣٧)

وسخرهم الله تعالى لسليمان يعملون بأمره ما يشاء . قال تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) وقال تعالى (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد)

ولما دعا نوح ربه : أنى مغلوب فانتصر ، انتصر الله له وغلب غالبيه ، وسلط عليهم الطوفان الذى قطع دابرهم ، ولم يذر منهم على الأرض ديارا ، ولما تبجحت عاد واستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ ونسوا قوة الغالب القهار ، قصمهم وسلط عليهم أضعف جنده الهواء الذى لم يكونوا يحسبون له حسابا . قال تعالى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ٦ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ٧ فهل ترى لهم من باقية ٨ : ٦٩)

وسلط على ثمود الصيحة فكانوا كهشيم المحتظر . وأما القرية التى كانت تعمل الخبائث فقد جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل . ولما أقسم السحرة بعزة فرعون : إنا لنحن الغالبون ، أوحى الله تعالى موسى أن يلقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وهكذا كلما تمرد جبار وعتا وبغى فى الأرض بغير الحق غلبه الله ، وقصمه وأذاقه نكال الآخرة والأولى

مكر بيوسف إخوته حتى ألقوه فى غيابة الجب ، ومكرت به امرأة العزيز حتى ألقته فى غيابة السجن ، ولكن الله الغالب رفع قدره وأعلى شأنه وأنجاه من كيد الكائدين ومكر الماكرين ، وجعله على خزائن الأرض (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

تفكرت الأمم لرسلها وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، ولكن الله الغالب أخذهم أخذ عزيز مقتدر قال تعالى (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلى . إن الله قوى عزيز) وقال تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) .

يجمع الله الكافرين يوم القيامة فى صعيد واحد منذ دبت الحياة على وجه الأرض إلى أن تطوى السموات بيمينه ، ثم يسوقهم إلى جهنم وردا . فانظر إلى كثرتهم الكثيرة ، ومنهم الملوك والجبارون والمستبدون والمعتسفون وأولو الحول والطول فلا يستطيعون أن يمتنعوا عليه أو يفروا من بين يديه (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد)

ولو فكر كل إنسان فى مجرى حياته لرأى آيات بينات تعد بحق مظاهر لاسمه تعالى « الغالب » ولكن الناس فى غفلة ساهون ، وعن آيات ربهم معرضون إذا تدبر الناس شكوى نوح وهو رسول من أولى العزم وضراعته إلى الله تعالى وقوله (إنى مغلوب فانتصر) أفلا يكون لهم فى ذلك موعظة حسنة تصرفهم عن المخلوقين إلى الخالق ، وعن المغلوبين إلى الغالب . هذا نوح وهو من أولى العزم لم يملك أن ينال من أعدائه منالا ، فلجأ إلى عزة الله وغلبته يشكو اليه ما ناله من قومه . فمن من غير الأنبياء يملك للناس نفعا أو خيرا ؟

يا للغفلة ! يا للجهالة ! يا للضلالة !

ياحسرة على العباد . يضرعون فى حاجتهم إلى الموتى وأصحاب القبور الذين غلبهم الله بالموت وقهرهم وأخرجهم من الحياة أحرص ما كانوا عليها ، وأذاقهم الموت أبغض ما كانوا له ، وينسون ربهم الغالب الذى لا يعجزه شىء ولا يغلبه مرام ، ولا يستعصى

عليه مراد . فاللهم خذ بأيدى عبادك إلى مراشدهم ؛ وبصرهم بالرشد من أمرهم وأهدهم صراطك المستقيم ؟ .

٣١ — القاهر

فى القاموس المحيط : القهر : الغلبة

وفى النهاية لابن الأثير : القاهر : الغالب على جميع الخلائق وقال الراغب . القهر : الغلبة والتذليل معا ويستعمل فى كل واحد منهما وقد سبق شرح هذه المادة عند الكلام فى اسمه تعالى (القهار) ولكنا نعيده هنا للتذكرة والتكملة فنقول :

جاء هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم وصفاً لرب العزة مرتين فى سورة الأنعام .. الأولى فى قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ١٨) والثانية فى قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ٦١)

وحكى الله تعالى فى سورة الأعراف عن فرعون عليه اللعنة أنه قال (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم . وإنا فوقهم قاهرون ١٢٧) . فالقاهر اسم جليل من أسماء الله الحسنى يدل على الغلبة والتذليل وسعة السلطان ، وقوة البطش ، ومضاء الحكم

وقبل أن تفكر فى معنى اسمه تعالى القاهر فكر فى كل مافى هذا العالم من قوى فكر فى قوة الملائكة وقوة الجن والشياطين وقوة الإنسان وقوة الحيوان فكر فى قوة العناصر الطبيعية : قوة الرياح ، وقوة البخار وقوة الكهرباء ، وقوة المغناطيس وقوة الحرارة .

فكر فى قوى الآلات التى هدى الله الإنسان إلى صنعها وتسخيرها ثم علمه أن يصنع بها العجائب المدهشات .

ثم فكر فى القوى المعنوية : قوى الملوك والعاهلين والأمراء والسلاطين . فكر

فى قوى الجيوش وما تستخدمه من شتى آلات التخريب والتدمير كالطائرات والقاذفات والمدمرات والغاسفات والغائصات .

إذا أنت فكرت فى هذه القوى جميعاً ، ومثلتها لعين بصيرتك ، وتصورت أنها اجتمعت فى صعيد واحد ، وكان بعضها لبعض ظهيراً ، فاعلم أن ربك يقهرها جميعاً ، ويغلبها جميعاً ويذلها جميعاً ؛ بغير إعداد ولا تجهز ، ولا إعمال جارحة ، ولا بذل جهد (بل إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون) فسبحانه من رب قوى قاهر بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجع الأمور

فمن دلائل قهره أنه كتب الموت على كل حى . وكتب الهلاك على كل شىء . قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت)

وقال تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه)

وقال تعالى (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)

وكفى بالموت قهراً للجبارين والظلمة والعتاة والباغين والملوك والأمراء والسلاطين . يخرجهم من ديارهم آنس ما يكونون بها ، ويسلبهم ملكهم أكثر ما يكونون اطمئنانا إليه ، وحرصاً عليه واغتباطابه ، لاتغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم ، ولا قوتهم ولاجيوشهم ولا عدتهم ولا عتادهم . ولا أنصارهم ولا أعوانهم . إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة .

ومن دلائل قهره : أن أمره نافذ فى خلقه لا معقب لحكمه ، ولا مبدل لكلماته إن أراد أحداً بخير فلا راد له ، وإن أراده بسوء فلا كاشف له . قال تعالى فى سورة يونس (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ١٠٧)

وقال تعالى فى سورة الرعد (وإذا أراد الله بقوم سواءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ١١) .

وقال تعالى فى سورة فاطر (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ؟) .

فإذا أنت تدبرت هذا الاسم الجليل وحققته وآمنت بمسماه الذى سمى به نفسه لم تخش ولم ترج أحداً إلا الله الذى تغلب مشيئته كل مشيئة ، وتقهر إرادته كل إرادة ، ويمضى حكمه فى كل كائن فى الأرض والسماء . وكل من رام تغييراً أو تبديلا فى سننه التى أخضع لها الأفراد والأمم رجع مقهوراً ذليلا واضح الغلب بين الذلة .

ومن مظاهر قاهريته سبحانه وتعالى : أن أخضع العالم كله سماءه وأرضه لقوانين حكمه ونواميس قهره فلا يملك كائن من هذه الكائنات السماوية أو الأرضية أن يخرج عن هذه القوانين أو يخالف عن هذه النواميس .

فأنت ترى كل جسم قذف فى الهواء لا بد أن يعود إلى الأرض مقهوراً بناموس الجذب الذى يحدد ثقله ووزنه ، وأنت ترى كل حبة ألقيت فى الأرض الصالحة وأجرى عليها الماء لا بد أن تنبت وتنمو ، وأنت ترى كل أمة تؤمن وتعمل الصالحات يستخلفها الله فى الأرض ويمكن لها دينها ويبدلها من بعد خوفها أمناً . وأنت ترى كل أمة تشرك بربها وتمعن فى اقتراف السيئات يسلط الله عليها من يخيفها ، ويسلبها حقها فى الحرية والاستقلال ، والحياة الطيبة . تلك سنن الله القاهر فوق عباده لا تجد لها تبديلا . ولا تجد لها تحويلا . فسبحان من قهر الكائنات وسخر العناصر .

ومن آيات قاهريته فى الآفاق : أن سخر السحاب بين السماء والأرض يسوقه إلى الأرض الجرز فيخرج به زرعا يأكل منه الناس والأنعام وسخر الرياح لتزجى السحاب إلى حيث يشاء القاهر المدبر .

وسخر البحر ليأكل منه الناس لحماً طريا ويستخرجوا حلية يلبسونها .

وتجرى الفلك فيه بما ينفع الناس . وسخر الأنهار لينتفع الناس بما فيها مما خلقت من

أجله . وسخر الليل والنهار دائبين بتسخير الأرض لدورتها اليومية المستمرة حول الشمس لبث الضوء والحرارة فيما حولها من العوالم .

قال تعالى (والسحاب المسخر بين السماء والأرض)

وقال سبحانه (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر النجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

وقال عز من قائل (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)

وقال تعالى (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ٣٢ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار)

ومن مظاهر قاهريته سبحانه : أن ذلل الحيوان الضخم القوى للإنسان يستخدمه فى حاجته ثم يذبحه لطعامه قال تعالى فى سورة يس (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ٧١ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ٧٢ ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ٧٣)

فترى البعير الضخم أو الثور القوى يسوقه غلام أو تقوده وليدة ، وهو خاضع مستسلم ذلول فسبحانك يا قاهر ، يا من بيدك نواصى عبادك ، تعز من تشاء وتذل من تشاء .

وأنت إذا ذكرت اسم ربك القاهر سهلت عليك الاستجابة له ، فوقفت من اليتيم موقف الوالد الرحيم ، وشملته بعطفك ، وحببته ببرك ، وتوليته برعايتك وإحسانك ، استجابة لقوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر) فلم تغلبه على حقه ، ولم تذقه طعم المذلة والهوان . ووقفت كذلك من كل ضعيف حتى لاتنازع ربك صولجان قاهريته .

ومن مظاهر قاهريته سبحانه : إعادة الحياة إلى الناس بعد الموت ليثيب المطيعين ويعذب العصاة والكافرين ويذيقهم العذاب المهين (قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة . فسينغضون إليك رؤسهم ويقولون : متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا)

إضرب بطرفك حيث شئت فى ملكوت السموات والأرض تجد فى كل موضع أمثلة آية من آيات قاهريته ، وعلما من أعلام سلطانه ولاجرم أن ذلك يدفعك إلى أن تعبده وحده وتدعوه وحده وتستعينه وحده ، وتعلم أن له وحده دعوة الحق ، وأن الذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال والله يهدى من يشاء .

٣٢ — القهار

قال الفيروزابادى : القهر الغلبة

وقال الراغب : القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل فى كل منهما

وقال ابن الأثير : القاهر الغالب على جميع الخلائق . قهره يقهره فهو قاهر . وقهار للمبالغة

من هذه النصوص نرى أن اسمه تعالى القهار معناه الذى يغلب على كل شىء ويبسط سلطانه على كل مخلوق ، ولا يعتاص عليه ما أراد ، ولا يفلت من قبضته جبار تمرد على جبروته ، ولا متكبر نازعه رداء كبريائه بل هو سبحانه آخذ بنواصى عباده فمن تمرد عليه قصمه وأذله ومن خالف عن أمره أخذه نكال الآخرة والأولى وجعله عبرة ومثلا .

بسط جل شأنه سلطانه على العناصر جميعاً فاستجابت لأمره وخضعت لحكمته ، وسارت على النهج الذى رسمه . رفع السموات بغير عمد فأذعنت وقامت حيث أقامها

ونثر النجوم حيث نثرها فى فسحة الفضاء فلزمت مسابحها ، ودارت فى أفلاكها وأدار الكواكب فى مجاريها فلم تخالف عن أمره ، وأجرى الرياح من مهابها فجرت ، وأسرى الغمامات فى مساريها فسرت ؛ وأفرز الأطواد فى أماكنها فقرت ؛ وأنبتت الأشجار من منابتها فنبتت ، وسخر الشمس والقمر دائبين ، وسخر الليل والنهار ، وسخر الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر الأنهار . فجميع هذه الكائنات خاضعة لسلطانه ، مذعنة لمشيئته ، مقهورة لإرادته ، وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة النحل (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ٤٩ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون : ٥٠) وإذ يقول سبحانه فى سورة الحج (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب . ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء : ١٨) .

قامت جميع الكائنات حيث أقامها القهار سبحانه . وحققت ما سخرت له مقهورة مكرهة مغلوبة على أمرها . لأنها مخلوقة لمنفعة الإنسان ولو منحت الإرادة والاختيار لخالفت فتعطلت مصالحه وتعذرت عليه حاجاته . أما الإنسان فأمره عجب : قهره الله تعالى فى أمور فكان القهر سبب حياته ولو وكل إلى نفسه واختياره طرفة عين لهلك . فنبضات قلبه وجريان الدم فى عروقه ، وحركات معدته وأمعائه . وإفراز غدده المختلفة وغير ذلك من أسرار هذا الهيكل الذى بناه الخالق الحكيم القهار كلها حركات قهرية لم يتركها الحكيم العليم لإختيار الإنسان ولو تركها لاختياره لهلك . إذ كيف تعمل هذه الأعضاء لو كانت خاضعة لإرادة الإنسان إذا قهره النوم وعطل إرادته ؟

وكلفه الله تعالى أموراً النهوض بها فى طاقته وفى وسعه ، فإن نهض بها أثابه ، وإن لم يفعل أرهقه صعوداً واضطره إلى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة فمن الناس من استجاب لدعوة ربه ففاز ، ومنهم من خالف فأعد الله له عذابا غليظاً .

أطاعت العناصر كلها فقامت حيث أقامها الله ، أطاع الجماد فحقق ما خلق من أجله ؛ أطاع النبات فحقق ما خلق من أجله ، أطاع الحيوان فحقق ما خلق من أجله ولم يخالف إلا الإنسان الذى خلقه الله لعبادته فأبى أكثر الناس إلا كفورا وصدق قول الله تعالى فى سورة الأحزاب (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا : ٧٢)

كل كائن من الكائنات أدى أمانته ، ولم يخنها إلا الإنسان لظلمه وجهله ، ولو تدبر الإنسان معنى اسمه تعالى (القهار) وأيقن أن الله تعالى قادر على أن يقهره ويذله فى الدنيا والآخرة لأذعن وانقاد طائعاً مختاراً ولكن استحوذ عليه شيطان الغفلة والجهالة فصده عن الحق وأعماه عن الرشد .

ولقد اقتضت رحمة الله بالإنسان أن ينبئه من أخبار الأفراد والأمم الذين خالفوا عن أمره فأصابهم العذاب الأليم ليكون له فى ذلك موعظة وذكرى .

حدثنا الله عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ؛ وحدثنا عن فرعون وقارون وحدثنا عن غيرهم ممن ظلموا أنفسهم بمعصية الله فصب الله عليهم العذاب صباً . كانهم يسيراً من الأمر لا يخرج عن توحيده واتباع سبيله التى تفضى بهم إلى السعادة فلما لم يذعنوا سلط عليهم قوى الوجود المسخرة بأمره من الماء والهواء والبخار والكهرباء فسحقهم سحقاً ، ومحقهم محقاً وطهر الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم وأعد لهم فى الآخرة عذاب الهون .

أهلك قوم نوح بالماء حين فتح أبواب السماء بماء منهمر ، وفجر الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وأهلك عاداً بالهواء حين أرسل عليهم الريح العقيم ، ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وأهلك ثمود بالكهرباء حين أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر .

وأحدث بيخار الماء زلزالا هائلا ، وبركانا جاحما جعل عالى القرية سافلها ثم أمطرت مطر سوء فهلك قوم لوط

وخسف الأرض بقارون وداره فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وساق فرعون وقومه إلى البحر حيث القوا حتفهم تحت أمواجه المتلاطمة وطباقه المتراكمة

والقهار سبحانه سنن قهر بها كل عظيم ؛ وأخضع لحكمها كل جبار عنيد وتتجلى لك مظاهر اسمه تعالى القهار إذا نظرت إلى مصاير الأمم التى اغترت بقوتها فامنعت فى الظلم ، وأسرفت فى الطغيان فكان بغيها وبالا عليها قال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد)

وقال تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين)

وقهر سبحانه الأخيار والأشرار بل كل ذى روح بالموت الذى يدركهم أينما يكونون ولو كانوا فى بروج مشيدة وصدق الله إذ يقول (حتى إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا — إن كنتم غير مدينين — ترجعونها إن كنتم صادقين)

وقهر العباد بالبعث ولو استطاع الأشرار سبيلا إلى الفرار من البعث لآثروا أن يكونوا ترابا على أن يعودوا إلى الحياة ليلقوا ما أعد لهم من عذاب الهون جزاء بما كانوا يعملون (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا)

هذا وقد ورد هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع : أولها فى سورة الرعد حيث يقول الله تعالى (قل : من رب السموات والأرض قل الله : قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل

تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار : ١٦) .

بدأ سبحانه فأشار إلى مظاهر قهره وطاعة العناصر له من خلق السموات والأرض . ثم أشار سبحانه بهذا الأسلوب المقنع إلى أن الأعمى والبصير لا يستويان كما لا تستوى الظلمات والنور ليوجه الأذهان إلى أن الذى خلق السموات والأرض هو الجدير بأن يخصه الناس بالعبادة وإلى أن أولى الألباب أحرياء أن يوازنوا بين الأعمى والبصير ، حتى إذا تبين لهم فضل البصر على العمى انتقلوا إلى التفكير فيما يعبدون من دون الله من أصنام ليس له أعين تبصر بها أو أشخاص مهما يبلغوا من حدة البصر فما هم بمدركى ما وراء الأفق ، فهم عمى إذا قيس بصرهم إلى بصر السميع البصير الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . ثم أشار سبحانه إلى أن أولى الألباب جديرون أن يوازنوا بين من يتخبط فى الظلمات لا يعرف حيلة ولا يهتدى سبيلا ومن يسير فى نور وضاح ينير له المناهج ويكشف السبيل فلا يضل ولا يتعثر .

ثم أشار إلى ضلال الضالين الذين انصرفوا عن عبادة الله ودعوا سواه . ماذا صرفهم عن عبادة الواحد القهار ؟ أظنوا أن له شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، واختلط الأمر فى أعينهم ، فلم يميزوا بين خلق الله وخلق غيره فعبدوا من حسبوهم خالقين مع الله . ولكن قليلا من التدبر والنظر يكفى للاقناع بأن الله سبحانه خالق كل شيء ومليك كل شيء ، وأنه لا رب غيره ولا خالق سواه إذ نطقت جميع الأدلة بأنه الواحد القهار .

وثانيها فى سورة ابراهيم فى قوله تعالى (يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار : ٤٨) إذ يشير سبحانه إلى بعض مظاهر القهر إذ تنفذ مشيئته فى السموات والأرض فيبدل منهما غيرهما وتمضى إرادته فى الناس جميعاً فيجمعهم ليوم لا ريب فيه لا يخفى عليه منهم شيء . ولا جرم أن الذى يستطيع أن يغير العالم كله أرضه

وسمواته ، وأن يجمع الناس جميعاً ليجزيهم بأعمالهم دون أن يعترض إرادته معترض أو يحول دون تنفيذ مشيئته حائل لا بد أن يكون إلها واحدا لا معقب لحكمه ، ولا شريك له فى ملكه ، فهو يفعل ما يشاء ولا بد أن يكون قهاراً غالبا على كل شىء ولا يغلبه شىء سبحانه هو الواحد القهار

وثالثها فى سورة ص فى قوله تعالى : (قل إنما أنا منذر وما من اله إلا الله الواحد القهار) وفى هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى رسوله الأمين أن ينفى عن نفسه جميع صفات الربوبية والألوهية ، وأن لا يثبت لها إلا صفة واحدة وهى الرسالة التى أخص مظاهرها أن ينذر الناس بطشة الله . كما أمره أن يبين للناس أنه ليس فى الوجود إلا إله واحد هو الله الواحد القهار

رابعها فى سورة الزمر فى قوله تعالى « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لا صطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار : ٤ » ينبه سبحانه الأذهان إلى أنه إنما يرغب فى الولد من يرغب فيه ليشد به أزره ، ويستكثر به من قلة ، ويعتز به من ذلة ، وليخف الولد إلى نجدته ويسارع إلى نصرته . ويكون عصا شيخوخته ، ويعود عليه بفضل ماله عند الكبر والحاجة أما الواحد القهار الذى خضع لأمره كل شىء وبسط سلطانه على جميع قوى الوجود فهو غنى عن العالمين لأنه خالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم ولو شاء أن يتخذ ولداً لا صطفى من خلقه ما يشاء ، ولكنه سبحانه لا يشاء ما يخالف الحكمة وينافى الكمال سبحانه هو الله الواحد القهار .

وخامسها فى سور غافر فى قوله تعالى (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) يشير سبحانه إلى يوم القيامة حين يجتمع الناس فى صعيد واحد لا يمتاز عظيم من حقير ولا غنى من فقير ولا ملك من سوقة يوم يرث الواحد القهار الأرض ومن عليها ، ويسترد الملك من كل ذى ملك والسلطان من كل ذى سلطان ويشهد الخلق جميعاً أن الملك لله الواحد القهار .

والمتدبر لمعنى هذا الإسم الكريم يدرك شناعة الخطأ الذى يتورط فيه أولئك الذين يلجأون إلى غير الله من الأحياء والأموات. يستعينونهم على نوال المطالب ويلتمسون منهم الحاجات. والعجب لهم كيف سول لهم الشيطان أن يتركوا القهار إلى المقهورين وينصرفوا عن الغالب إلى المغلوبين ، وجميع أسمائه الحسنى تنادى بتجريد توحيده . وبأنه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؟

٣٣ — الوهاب

قال فى الأساس : الوهاب الكثير المواهب

وقال الفيروزابادى : الموهبة العطية

وقال الراغب : الهبة أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض

وعلى ضوء هذه النصوص نستطيع أن نفسر اسمه تعالى (الوهاب) بأنه كثير العطايا والمواهب ؛ الذى يؤتى فضله من يشاء بغير عوض

وإن نظرة إلى هذا الوجود لتهدى أولى البصائر والأبصار إلى عظم المواهب التى منحها الكريم الوهاب خلقه بغير أن يتقاضى منهم ثمنا أو ينال عوضا .

أول مواهبه تعالى للأحياء : أن أفاض عليهم نعمة الحياة التى بها صاروا أحياء يحسون ويتحركون وينسلون . وهبهم الحياة من قبل أن يسألوها ، ودون أن ينتظر منهم عوضا . وهبهم الحياة وهى أثمن المواهب وأغلاها ، وأجلها وأسماها وبها يتمكن الحى من أن يستمتع بما سواها من ألوان العطايا وأصناف المواهب

سبحانك يا كريم ياوهاب: ما أعظم هباتك ، وما أكثر عطاياك أية نعمة مما يستمتع به الأحياء لم تكن موليها ومعطيها ؟ وأى فضل مما ينعمون به . لم تكن واهبه ومسديه

تعال أيها القارىء الكريم ننظر : كم من كائن حى أفاض الله عليه نعمة الحياة منذ خلق السموات والأرض ؟ وانظر أتستطيع أن تحصى الأحياء فى الأرض والماء والهواء فى بقعة واحدة من بقاع هذا العالم الفسيح . عجيب أمر هذه الحياة !

وهب الله الحياة أحياء أغناهم عن الهواء والماء والغذاء .

ووهبها أحياء لا يستغنون عن الهواء والماء والغذاء .

وإذا صرفنا البصر عن النبات مع اختلاف ألوانه وضروبه وفصائله ؛ وعن الحيوان كذلك . وعن الكائنات الغيبية التى لا تراها العين ، ولا تلمسها اليد ، وقصرنا نظرنا على الإنسان وحده . فكم من إنسان وهبه الله الحياة من لدن منحها للنفس الواحدة التى خلق منها زوجها .

اضرب بطرفك حيث شئت فى فسيح هذه الأرض وانظر كيف ازدحمت الأقطار وامتلأت الديار ببنى آدم من رجال ونساء وشبان وشيب ، ثم ارسل رائد الفكر إلى الأجيال الغابرة جيلا بعد جيل لتعلم كم وهب الله من الحياة لهذا التراب الذى صار بشراً ينتشرون .

ولم يهب الله الحياة عطلا مما يصح الانتفاع بها ، بل وهب معها العقل والحواس من سمع وبصر وشم وذوق ولمس ليتمم للناس استمتاعهم بالحياة . ووهب غير الإنسان إلهاماً وغرائز تسوقه إلى احراز ما يحفظ عليه الحياة .

وهب الناس ما يحفظ عليهم نعمة الحياة من طعام وشراب وكساء : وذكرهم بهذه الهبات كلها فى قوله تعالى فى سورة عبس (فلينظر الإنسان إلى طعامه ٢٤ أنا صببنا الماء صبا ٢٥ ثم شققنا الأرض شقا ٢٦ فأنبتنا فيها حبا ٢٧ وعنبا وقضبا ٢٨ وزيتونا ونخلا ٢٩ وحدائق غلبا ٣٠ وفاكهة وأبا ٣١ متاعا لكم ولأنعامكم ٣٢) .

وكم وهب الله سبحانه من صحة وعافية وقوة ، وكم وهب من جمال وحسن وملاحة وكم زان بالحور عيوناً ، وبالنضرة خدوداً ، وباللين والهيف قدوداً إلى غير ذلك من ألوان المواهب الحسية التى لاتحصى ولا تحصر . وكم له تعالى من مواهب معنوية لايحصرها حساب ، ولا يحويها كتاب ، فكم وهب من ذكاء وفطنة ، وحزم وبصر

بالأمور ، وعلم وحكمة وشجاعة وإقدام ؛ وقوة إرادة ، ونفاذ كلمة ، وصدق بصيرة، وصحة فكر . وصفاء ذهن ، وقوة إيمان وكمال توفيق وتقوى وإحسان .

وليس فى وسع هذا القلم العاجز أن يحصى مواهب الكريم الوهاب ، وإنما ذكرت ما ذكرت لأهيب بالقارىء الكريم لعله يتفق ساعة يستجلى فيها بعض ما أفاض الله عليه من كريم مواهبه ؛ وجلائل نعمه . وما هو ببالغ من ذلك أربا فقد قال تعالى وقوله الحق : (وأن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) .

وقد ذكر الكريم الوهاب فى كتابه العزيز بعض هباته المصطفين الأخيار من عباده لتكون فيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد :

قال تعالى فى شأن إبراهيم عليه السلام من سورة مريم : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ٤٩ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ٥٠) .

وقال تعالى فى شأن موسى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ٥٣) .

وقال تعالى وهو يذكر مريم المصطفاة المطهرة (قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا) وإنما نسب روح الله الهبة إلى نفسه لأنه السبب فى توصيل هبة الله تعالى إليها ، فالإسناد مجازى علاقته السببية . وإنما الواهب الحق هو الله سبحانه الكريم الوهاب .

وقال تعالى وهو يذكر زكريا عليه السلام فى سورة الأنبياء (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ٩٠) وقال تعالى فى شأن أيوب عليه السلام (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) .

وقد علمنا الله تعالى كيف يستوهبه الراسخون فى العلم لنتسج على منوالهم ؛ ونقتفى آثارهم فى دعائهم فقال تعالى فى سورة آل عمران (والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وعلمنا كذلك كيف يستوهبه الأنبياء وهم أعلم الناس به وبما ينبغى له من تجريد التوحيد والإخلاص فى الدعاء والعبادة فقال تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام : (هنالك دعا زكريا ربه . قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء : ٣٨ آل عمران) وقال تعالى : (وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً : ٦) وقال تعالى فى شأن سليمان ؟ (قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) . وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : (رب هب لى من الصالحين) .

وعلمنا سبحانه أنه رب المواهب لأنه رب كل شىء ومليكه فلا يصح أن تلتمس المواهب من غيره فقال تعالى : (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء . يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) وفى هاتين الآيتين الكريمتين يبصر الله الناس ، لو كانوا يستبصرون ، ويقفهم على الحق الذى هم عنه معرضون ، ويعلمهم أن الفضل كله بيده وحده يأتيه من يشاء ، وأنه واهب الذرية فلا ينبغى أن تلتمس من غيره لا من نبى مرسل ولا من ملك مقرب . وإذا تدبرت هاتين الآيتين الكريمتين أدركت قبح الخطأ الفاضح الذى يتورط فيه أولئك الذين يلتمسون الذرية من ولى صالح أو من قبر هامد أو من جبل أو صخرة أو شجرة أو ينبوع ماء أو غير ذلك مما يشد الرجال والنساء إليه الرحال ، فى طلب النسل والذرية .

وثنية شر من وثنية الجاهلية ، وكفر عميق بقدرة الكريم الوهاب ؛ وإعراض

عن رب العزة الذى بيده ملكوت كل شيء . وانقياد اوسوسة الشيطان ثم يزعمون بعد أنهم مسلمون ؛ ولا أدرى متى يثوب هؤلاء إلى رشدهم ، ويقفون على الحق من أمرهم ، ويعرفون حقيقة دينهم ، ويجردون توحيد ربهم ؟ لا أدرى متى ينتبه الناس لمكان الشيطان . ويقبلون على توحيد الرحمن ويعلمون أن لله الخلق والأمر ، فلا يلتمسون من سواه حاجة ، ولا يبتغون من غيره لبانة ؟ (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون).

هذا ولم تذكر المواهب الخاصة التى يختص الله الكريم الوهاب بها من يشاء من عباده فقد يهب لله لبعض عباده مخيلة قوية خصبة تعينه على أن يخترع من الآلات ما يكون له أحسن الأثر فى عمران هذه الدنيا ، وفى إيتاء الأرض زينتها وزخرفها. والآلات التى جادت بها قرائح المخترعين أكثر وأظهر من أن تستوعب فى هذه العجالة .

وقد يهب الله لبعض عباده ملكة البيان والتبريز فى الخطابة أو الكتابة أو الشعر فيأتى بالمعجب المعرب الذى يجعل الجماهير مفتونة بقائله معلقة القلوب بلسانه أو بنانه ؛ يقيمهم ويقعدهم ويبكيهم ويضحكهم ، ويسيطر على عواطفهم وأفكارهم ويأمرهم وينهاهم فيكونون أطوع من ظله ، وأذل له من نعله .

وقد يهب الله لبعض عباده نفوذاً ذاتياً يستحوذ به على الناس ويتحكم فى إرادتهم فيصبح لهم زعيما يأمرون بأمره ويتجهون حيث يوجههم وهم له منقادون . ولأمره مطيعون فاللهم هب لنا من التوفيق ما نصلح به ديننا الذى هو عصمة أمرنا ومن الخير ما تصلح به دنيانا التى فيا معاشنا ، ومن المغفرة ما نصلح به آخرتنا التى إليها معادنا . وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

٣٤ — الفتـــاح

اسم فاعل للمبالغة من الفتح وهو إزالة الإغلاق ؛ والمطر ، والنصر وافتتاح دار الحرب ، والفهم ، والحكم بين خصمين .

فإن فسرناه بالمعنى الأول . وهو إزالة الأغلاق كان معناه الذى يكثر من فتح أبواب الرزق والرحمة لعباده .

ومن غير الله يفتح أبواب الرزق والرحمة للعباد وهو الذى كفل الرزق لسائر الأحياء فقال عز من قائل (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) .

ومن ذا الذى لا ينعم برحمة الله وقد وسعت كل شىء .

فما أكثر ما يفتح الله لعباده من أبواب الرزق والرحمة ، إذ مامن حى إلا فتح له باب رزق يقيم أوده ويبقى على ذمائه ؛ ويمسك بحوبائه ما قدر له أن يعيش والأحياء جميعا مغمورون برحمته وأرزاقه المعنوية ؛ من الهداية والتوفيق والذكاء ، والعلم والإلهام ومضاء الكلمة لا تدخل تحت حصر .

وإذا فتح الله تعالى للناس بابا من أبواب رحمته الواسعة فلن تستطيع قوة فى الوجود دون قوته تعالى ، أن تمسك هذه الرحمة أو توصد ذلك الباب .

قال تعالى فى سورة فاطر (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ؛ وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) .

وقال تعالى فى سورة الزمر (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله أن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ٣٨) .

لقد ألحد فى أسماء الله تعالى من ابتغى فتح أبواب الرزق والرحمة من غير الله تعالى ؛ لأنه جرد هذا الاسم الجليل من معناه ، وخلع هذه الصفة القدسية على غير مولاه ؛ والفتاح العليم يقول (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) ويقول تعالى (قل لو

أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الانفاق وكان الإنسان قتورا ١٧ : ١٠٠) .

فمن أعجب العجب ومن أدل الأشياء على تعطيل العقل وشلل الإدراك ، أن يترك الإنسان أبواب الفتاح العليم الذى وسعت رحمته كل شىء . ويبتغى حاجته عند القتور الذى أحضرت نفسه الشح .

إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين .

الذين يؤمنون إيمانا يملأ قلوبهم ، ويسيطر على أنفسهم بأن الفتاح اسم من أسماء الله الحسنى لا يبتغون الفتح عند غيره ، ولا يلوذون بباب أحد سواه ، بل يستفتحون أبواب فضله ورحمته ، وكلهم ثقة به وتوكل عليه ، وقد جعل الله تعالى من مفاتح رحمته الإيمان والتقوى ، فمن استفتح بالإيمان والتقوى أبواب الرحمة فتح الله عليه ، وآتاه من لدنه رحمة قال تعالى فى سورة الأعراف (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ٩٦) .

وقد يعترض بعض الغافلين قصار النظر بأن الكفار والفاسقين كثيراً ما ينعمون بأرزاق واسعة . ونعم ضافية وهم ليسوا على شىء من إيمان ولا تقوى . ولو أن هؤلاء المترضين تدبروا الأمر بعض التدبر لتبين لهم أن للأرزاق أسبابا تتوقف عليها ، ووسائل تؤدى إليها ، واتخاذ هذه الأسباب إيمان بنواميس الله وسننه ، واتقاء لأسباب الفقر والعوز . فمن اتخذ للرزق أسبابه وسلك إليه سبله آتاه الله منه وهو سبحانه يقول (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب) ويقول عز من قائل (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ١٨ ومن أراد الآخرة وسعى

لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ١٩ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ٢٠) الإسراء .

هذا وقد يجعل الله ما يفتح به من الخير على بعض الناس فتنة واستدراجا ، لينظر كيف يعملون . قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وقال تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) .

وقال تعالى فى سورة المؤمنين (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ٥٦) .

وقال تعالى فى سورة ن (ذرنى . ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ٤٤ وأملى لهم إن كيدى متين ٤٥) .

وقال تعالى فى سورة الأنعام (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ٤٤) .

والعاقل الأريب من ينتفع بالعظات والنذر ، ويعتبر بما أنزل الله فى كتابه من البينات والعبر .

فإذا فتح الله عليك نعمة من نعمه ، فلتحرص على أن تشكر له ، وأن تؤدى حق هذه النعمة ، بأن تستعملها فى الوجوه التى حقها أن تستعمل فيها ، ليزيدك الله من فضله ورحمته (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

والمعنى الثانى : وهو المطر لا يبعد عن الأول كثيراً فقد جاء فى الأساس : فتح الله عليهم فتوحاً كثيرة إذا أمطرهم أمطاراً . فيكون معنى الفتاح . على هذا مرسل المطر . والمطر أصل الرزق قال تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون) .

وقال تعالى فى سورة الروم (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ٤٨ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ٤٩ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) .

وقال تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فرحمته هنا هى المطر الذى يبشر به إرسال الرياح .

فالفتاح الذى يفتح أبواب السماء بماء منهمر . وينزل الغيث ليحيي به الأرض بعد موتها ، هو الله تعالى وحده لاشريك له ، فالنماس المطر من غيره تعالى شرك ، ونسبة المطر إلى غيره تعالى كفر .

روى البخارى فى صحيحه من حديث زيد بن خالد الجهنى : أنه قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال (أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب) .

وإذا كان الفتح بمعنى النصر كان معنى الفتاح الكثير النصر الذى ينصر رسله ، وينصر أولياءه ، وينصر المجاهدين فى سبيله ، وينصر من ينصره .

وللنصر أسباب أوجب الله على أوليائه أن يأخذوا بها منها الإيمان والتقوى الثبات ومضاء العزم وتصحيح النية على إعلاء كلمة الله تعالى وإعداد العدة .

قال تعالى فى سورة الحج (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ٣٨)

وقال تعالى (ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز)

وقال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ٤٥ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ٤٦) وقال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)

تلك بعض أسباب النصر كما بينها الفتاح العليم جل شأنه فمن أخذ بها فتح الله عليه ونصره ومن اعتمد على غيرها خذله الله

عزم الروس على افتتاح بخارى فقال أهلها : إن شاه نقشبند حاميها ، وأغفلوا الأخذ بأسباب النصر اعتماداً على شاه نقشبند فخذلهم الله

وعزم الفرنسيس على امتلاك مدينة فاس بمراكش فقال أهلها إن مولاهم إدريس حارسها ؛ وفرطوا فى أسباب الدفاع عنها ، فخذلهم الله وما أغنى عنهم مولاهم إدريس شيئاً . وعزم نابليون على فتح مصر ، فجلس علماء الأزهر فى مسجدهم يتلون صحيح البخارى . وليست تلاوة صحيح البخارى من الأسباب التى جعلها الله تعالى للنصر . فغلبوا على أمرهم

فربك هو الفتاح الذى يؤيد بنصره من يشاء قال تعالى (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين)

فالفتح فى هذه الآية الكريمة هو النصر الذى يؤيد الله به الذين آمنوا وجاهدوا فى سبيله .

وإذا فسرنا الفتح بمعنى افتتاح دار الحرب فيكون معنى الفتاح قريباً من المعنى السالف ، ويفسر بالكثير المعون للمؤمنين الذى يؤيدهم بنصره .ويفتح لهم بلاد أعدائهم ويورثهم أرضهم وديارهم ويكون من هذا المعنى قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) إذا فسر الفتح بفتح مكة حرسها الله

وإذا فسر الفتح بالإلهام كان معنى الفتاح الذى يكثر أن يلهم من شاء من عباده من العلوم والمعارف ، ما يكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته العلا . ومن هذا المعنى قوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون) وقد فتح الله على أنبيائه ورسله بما علمهم من الكتاب والحكمة ، وفتح على أوليائه بما منحهم من العلوم المعارف التى هداهم بها صراطه المستقيم ، وأنار بها قلوبهم وبصائرهم ، وقربهم من حظيرة قدسه ، وفتح على العلماء الذين علمهم أسرار كتبه ، وهداهم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ليقفوا على أسرار ملكوته ، وفتح على الباحثين الذين وقفهم على أسرار الوجود ، وعلمهم نواميس الكون ؛ وهداهم إلى معرفة القوانين الأزلية والسنن الكونية التى نظم بها هذا العالم ، وأخفاها على الناس ليفتح بها على من شاء من خلقه ممن تعرضوا بجدهم واجتهادهم لهذه النفحات الإلهية ، كقوانين الجاذبية والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وآثارها من البرق السلكى وغير السلكى والمذياع وغير ذلك من أسرار هذا الوجود ، وكجراثيم الأمراض والأدوية التى تفتك بها وتقى الناس شرها وغير ذلك مما فتح الله به من العلم والمعرفة على من اختارهم ليكونوا مظهراً لاسمه تعالى الفتاح تبارك وتعالى .

وإذا فسر الفتح بالفصل بين خصمين أو الحكم بين الناس كان معنى هذا الاسم الجليل الكثير الفصل بين العباد .

ويبدو أن هذا المعنى هو أصح ما يفسر به هذا الاسم الجليل من أسمائه تعالى الحسنى

وإذا تدبرت وجدت جميع المعانى السابقة منطوية فيه .

ففى فتح أبواب الرزق والرحمة لعباده ، إذ منهم من يقضى له ببسطة العيش وسعة الرزق ومنهم من يقدر عليه ويقضى عليه بالحرمان

وفى إرسال المطر حكم بين العباد كذلك ، إذ يصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء بمقتضى حكمته ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين

والنصر حكم بين الغالبين والمغلوبين ، والمؤمنين والكافرين وافتتاح دار الحرب كذلك حكم بالنصر والتأييد للمؤمنين ، وبالهزيمة والخذلان على الكافرين

وإذا تدبرت الآية الفذة التى ورد بها هذا الاسم الجليل ، ألفيتها توائم هذا المعنى كل المواءمة . تدبر قوله تعالى فى سورة سبأ (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) تجد الله تعالى يأمر نبيه الأمين أن يقول لهؤلاء المشركين الذين كذبوه وأنكروا رسالته : سيجمع الله بيننا يوم القيامة ثم يحكم بيننا بالحق وهو الحكم العدل الذى يقضى بحق ويحكم بعلم ، وسيتضح المحق منا والمبطل .

ويؤيد هذا قوله تعالى فى سورة الأعراف (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ٨٩) أى ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت أحكم الحاكمين وقوله تعالى فى سورة السجدة (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ٢٨ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ٢٩) .

يقص الله تعالى علينا أن الكفار يسألون النبى صلى الله عليه وسلم سؤال المنكر المكذب المستهزئ فيقولون : متى يأتى اليوم الذى يقع فيه الفصل بين الناس ؟ ويخبرنا تعالى أنه يأمر نبيه الأمين أن يقول لهم : إذا جاء يوم الفصل انقطعت الأطماع ، وضاعت الفرص ويئس الكافرون من رحمة الله ، إذ لا ينفع الإيمان عند معاينة العذاب ، والفصل بين العباد

وربك هو الفتاح العليم : فكم فتح بين الأنبياء وأقوامهم !

لقد فتح بين نوح وقومه فأغرقهم بظلمهم ، ونجى نوحا والذين آمنوا معه برحمته ، وفتح بين هود وقومه ، فأرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . ونجى برحمته هوداً والمؤمنين معه . وفتح بين صالح وقومه حين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر وكتب لصالح النجاة والسلامة مما أصاب الظالمين .

وفتح بين لوط وقومه فنجاه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . أمطروا مطر السوء وكانوا من الهالكين . وفتح بين شعيب وقومه فأنجاه وقطع دابرهم . وفتح بين موسى وفرعون ، فنجى موسى ومن معه من بنى إسرائيل ، وأغرق فرعون وجنده بما كانوا يظلمون.

ولم يزل سبحانه فتاحا عليما يقضى بالحق ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء . فتح بين المؤمنين والمشركين يوم بدر . فنصر الموحدين وكانوا أذلة ، قليلا عددهم وعتادهم ، وهزم الكافرين وكانوا كثرة موفورة العدد والعتاد . نصر المؤمنين فى جميع المواقع مع المشركين ولكنه أذن أن يصيبهم القرح يوم أحد ويوم حنين تربية لهم وتأديباً حتى يعلموا أن سنة الله مطردة لا تتخلف وأن النصر من عند الله . وهو يقضى بين الأمم المحتربة إلى يوم القيامة . فيكتب النصر لمن أخذ بأسبابه والهزيمة على من فرط فى جنب أسباب النصر . قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

٣٥ — الحليم

قال الفيروزبادى فى القاموس المحيط : الحلم الأناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم .

وقال الراغب : الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وجمعه أحلام ، وليس الحلم

هو العقل ، ولـكن فسروه بذلك لأنه من مسبباته .

وقال ابن الأثير : الحليم هو الذى لا يستخفه شىء من عصيان العباد ، ولا يستفزه الغضب عليهم ، ولـكن جعل لـكل شىء مقدار فهو منته إليه .

والحلم الأناة والتثبت فى الأمور وذلك من شعار العقلاء وقال الفيومى فى المصباح المنير : حلم بالضم حلما بالـكسر صفح وستر فهو حليم .

وفى الأساس : الله حليم عن العصاة لا يعاجلهم بالعقاب .

هذه أقوال أساطيل أئمة اللغة ومنها تدرك أن الحليم إذا وصف به المخلوق فهو الأناة والتثبت فى الأمور والعقل وما يترتب عليه من ضبط النفس عند هيجان الغضب .

وإذا وصف به رب العزة سبحانه فهو الصفح والستر وعدم المعاجلة بالعقاب على عصيان العباد .

فربنا سبحانه حليم لا يستخفه شىء من عصيان عباده ، ولا يستفزه الغضب عليهم إذا أذنبوا ، ولـكنه يستر ويصفح عن الصغائر إذا اجتنبت الـكبائر ، ولا يعاجل بالعقوبة مرتـكبى الـكفر والشرك والنفاق وكبائر الإثم والفواحش بل يجعل لهم موعدا لن يجدوا من دونه موئلا .

إذا استقرأنا ألفاظ لغة العرب وغيرها من لغات البشر التى نعرفها ، لم نجد لغة منها وضعت ألفاظاً خاصة لتعبر عن صفات رب العزة وأسمائه تعبيراً صحيحاً دقيقاً يصور حقائقها ، ويوضح عين المراد منها ، فـكان لزاماً أن نستعير الألفاظ الدالة على صفات البشر لنعبر بها عن صفات الله تعالى مع اليقين بأنها لن تبلغ حقيقة المعنى ، ولن تصور منه إلا الجانب الذى تستطيع عقول البشر القاصرة أن تدركه وتتصوره ، وحقائق صفات البارىء وأسمائه فوق مدارك المخلوقين ، ووراء متناول عقولهم .

وقد اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن خاطبهم بلغاتهم ، ووصل إليهم القول متخذاً ألفاظها أداة للتعبير عن أسمائه وصفاته ، وأنزل الكتب السماوية متضمنة للألفاظ الدالة على هذه الأسماء الحسنى والصفات العلا ليدرك منها البشر ما يتسنى لعقولهم أن تدركه ، ويبلغوا من العلم بها ما يتيسر لمداركهم أن تبلغه ، فإن الإحاطة بحقائق هذه الأسماء والصفات ودقائق معانيها مما ينبغى ألا تطمح إليه العقول . ومثل ذلك — ولله المثل الأعلى — كمثل النقطة الهندسية التى لا يمكن رسمها فى حقيقتها مهما يبلغ القلم من الدقة والرقة ، وما النقطة التى يضعها المهندس بقلمه على الورق إلا دليل على مكانها ، أما حقيقتها فلا يمكن إصابتها بقلم ولا رسمها بمداد .

إن بين حلم الله تعالى وبين حلم المخلوقين من الفرق ، أبعد مما بين السماء السابعة والأرض . فنحن نطلق كلمة الحليم على الرجل العاقل الكامل الحجا الذى يضبط نفسه عند موجبات الغضب ، ويكفها عن أن تسترسل مع النزوات ، يبتدرك سفيه بكلمة خبيثة تثير الغضب ، وتنبه الحفيظة ، وتوقظ الحمية وتستفزك إلى الانتقام ، لكنك تصطنع الأناة وتستجيب لنداء العقل ، فتكظم غيظك ، وتملك نفسك ، وتفتأ حرارة غضبك ، وتقلم أظفار ضغنك ، وتلقاه كأنه لم يقل ، وكأنك لم تسمع ، فأنت إذاً الحليم الرشيد الذى يستوجب الثناء من عارفيه ، ويستحق الحمد من معاشريه .

فهأنت ذا قد استحققت وصف الحليم لأنك صبرت على كلمة نابية وكظمت دونها غيظك .

فإن شئت أن تعرف كيف يكون الحلم حقا ، وكيف يتجلى فى أروع مظاهره وأجمل سوره ، فذلك حلم ربك تعالى جده .

تصور مبلغ ما يقع من البشر فى كل طرفة عين ، وفى كل بقعة من بقاع الأرض من الفظائع والمنكرات والفواحش والموبقات التى حرمها رب العزة مع إمهاله تعالى

لمقترفيها ، وإملائه لمجترحيها ، لم يعاجلهم بالعقوبة ، ولم يؤاخذهم بما كسبوا وهو على سحقهم إذا يشاء قدير (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) .

ذلك هو الحلم حقا ، ذلك هو الحلم إذا وصف به رب العزة ذو الجلال والإكرام ، ذلك هو الحلم الذى يسع سفه الخلق جميعاً ، سفه دنيا طافحة بالشرور والآثام على حين أن أحلم حلماء البشر لحلمه حد ينتهى إليه ، وغاية يقف دونها .

ذلك هو الحلم حقاً ، حلم المنعم المتفضل الذى منح الناس نعمة الحياة والصحة بعد نعمة الوجود ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وزود أجسامهم بما هو ضرورى لحياتها من الوظائف والأعضاء ، وأمدهم بأنواع من الهدايات تكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، وخلق لهم مافى الأرض جميعاً ، وأمدهم بنعم لو حاولوا إحصاءها لم يستطيعوا إليه سبيلا . ثم هم بعد ذلك ينكرون وجوده أو يشركون به إنساناً لا يملك لهم نفعاً ولا ضرا ، أو ميتاً قد انقطع عمله بانقطاع حبل حياته ، أو حيواناً لا عقل له ، أو طيراً لا يرد عن نفسه سهم الصياد ، أو شجرة لاتدفع عن نفسها فأس الحطاب ، أو حجراً جلموداً يستطيع أقل الناس قوة وأضعفهم منة أن يحطمه ويجعله جذاذاً أو يخلعون صفاته العلا على المخلوقين العاجزين ، فينسبون لهم القدرة على النفع والضر ، وشفاء الأمراض وتيسير الأرزاق وهبة الذرية ، وهم من أجل ذلك يعبدونهم ، ويدعونهم ، ويضرعون إليهم ، ويستعينونهم ، ويستغيثونهم ، وينذرون لهم ، وقد يسفون فيعبدون أعوادا يطوفون من حولها ، ويتمسحون بها ، ويحلقون رءوس أبنائهم عندها ، ويلتمسون منها البركات وتفريج الكربات ، ودفع الأزمات ، أو يجاهرونه بالمعصية ، وينتهكون حرماته ، ويتعدون حدوده ، ويعادون أنبياءه ورسله ، ويملأون صدورهم سخائم وضغائن وإحناً على من يأمرون بالقسط من عباده .

ثم هو بعد هذا كله لا يزال يبقى عليهم نعمة الحياة والصحة والرزق ،

ويتولاهم بالحفظ والرعاية ، فلا تزال قلوبهم تنبض ، وتوزع الدم على أعضاء الجسم ليمده بما فيه قوام الحياة ، ولا يزال يحفظ عليهم أسماعهم وأبصارهم وسائر حواسهم لا يكلهم إلى أنفسهم ، ولا يأمر الأرض أن تميد بهم ، ولا الجبال أن تطبق عليهم ؛ ولا الكواكب والنجوم أن تتهاوى رجوما فوق رءوسهم بل ما برحت الأرض تقلهم والسماء تظلهم ، والأنهار تجرى من تحتهم ، والغيوث تنهل من فوقهم ، وما انفك الهواء ينسم لهم ويندى على أكبادهم ، والشمس تبعث أشعتها الهفافة تضىء لهم وتبعث الدفء فى أبدانهم .

هذا مثل من الأمثلة التى توضح لك بعض مظاهر حلم الله تعالى على عباده وإنك لواجد فى كل لحظة ونفس وفى كل موضع أنملة من سطح البسيطة مظهراً رائعاً من مظاهر اسمه تعالى « الحليم »

غير أن حلم الله تعالى ليس بانفعال ولا يكبت عاطفة ، ولا يكبح نزوة ، ولا بتهدئة ثورة ولا يضبط نفس . ولا إجالة ذهن ، ولا حركة فكر ، ولا تفكير فى عاقبة ، ولا بشىء مما يبعث الحلم فى نفوس الحلماء من المخلوقين ، وليس له غاية يقف عندها ، ولا حد ينتهى إليه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ورد هذا الاسم الجميل من أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم فى اثنى عشر موضعاً . جاء فى ستة منها مقارنا لاسمه تعالى الغفور ، سابقا عليه مرفوعا فى أربعة مواضع ، ولاحقا له منصوبا فى موضعين وورد مقارنا لاسمه تعالى العليم فى أربعة مواضع ، ومقارنا لاسمه الشكور مرة ، ولاسمه الغنى مرة .

فاذا تدبرت الآيات الكريمة التى ورد فيها مقارنا لاسمه تعالى « الغفور » تبين لك أنه يشير إلى أنه تعالى لعظم حلمه لا يعاجل عباده بالعقاب ، ولا يعاقبهم فور اقترافهم الخطيئة بل يمهلهم طول حياتهم حتى إذا تابوا فى أى وقت قبل احتضارهم جبت التوبة ما اجترحوا من الذنوب ، وغفر لهم وكفر عنهم سيئاتهم .

وإذا تدبرت الآيات التى جاء فيها مقارنا لاسمه تعالى العليم ظهر لك أنها تشير إلى

أن الله تعالى مع علمه بما يقترف العباد فى سرهم وعلنهم ، وبما يسرون من المعاصى وما يعلنون يحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة بل يؤخرهم إلى الأجل الذى كتب لهم .

وعليك أن تتدبر الآيات الأخرى التى ورد فيها ذلك الاسم الجميل ليكشف لك تدبرها ما تنطوى عليه من أسرار .

سبحانك ربى وتعاليت !

من ذا الذى يحيط علما بحقائق أسمائك الحسنى ، وأسرار صفاتك العلا ؟ جمعت فى أسمائك الحسنى بين الأول والآخر ، والباطن والظاهر ، والمنتقم الجبار ، والحليم الغفار فبصرنا اللهم بأسرار أسمائك وصفاتك

يا ممد الوجود يشف عنك لكى نرى غضب الحليم ورحمة الجبار

٣٦ — المقيت

اسم فاعل من أقات الشىء إذا حفظه ، أو شهده ، وأقاته أعطاه قوته ، وأقات عليه اقتدر . فهو بمعنى حافظ ، أو شاهد أو معطى القوت أو مقتدر .

وقد اتصف رب العزة سبحانه ، بهذه المعانى كلها على أكمل الوجوه ، وأتمها وأشملها وأعمها .

فأيا ما أردت منها بهذا الاسم الجليل فهو حق والله تعالى متصف به ما دامت اللغة تقره ، والواقع لا يأباه ، والعقل لا يرفضه .

فإن قلنا : إن المقيت هو الحافظ ، فهو سبحانه الحافظ لكل ما فى السموات والأرض يحفظ النجوم فى أفلاكها ، والكواكب فى مداراتها ، والطير فى جو السماء ، والسمك فى أعماق الدأماء ، والرياح فى مهابها ، والنمال فى مدابها ، والحشر فى مساربها . يحفظ للأرض خواص إنباتها ، وللشمس قوة إشعاعها وقوة حرارتها ، ولمعة ضيائها ، وللحياة

تقلباتها من بخار إلى سحاب إلى أمطار تجرى بها الأنهار ، ويحفظ الحياة على كل كائن حى ، ويحفظ الفلك تجرى فى البحر بأمره ، والسماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، والأرواح فى أبدانها ، والأشباح فى مقلبها ومثواها ، والأذهان فى مجالاتها ،والأفكار فى خلجاتها ، والأناسى فى غدوهم ورواحهم ، ويقظتهم ومنامهم ، والشياطين حين يغوصون والجن حين يعملون (ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) وما من شىء فى السماء والأرض ، ولا كائن فى الوجود إلا هو مقات بإقاتته ، محفوظ بحفظه ، قائم برعايته . إن ربى على كل شىء حفيظ .

فسبحانه من مقيت يتولى خلقه بالرعاية ، ويحوطهم بالعناية ، ولو تركهم لأنفسهم طرفة عين لكانوا من الهالكين .

ولا يصح أن ترجى الإقاتة والحفظ إلا منه سبحانه إذ لا يملكها سواه ، فطلبها من غيره شرك به تعالى وإلحاد فى أسمائه الحسنى ، وإنكار لتفرده بصفاته العلا . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وإن قلنا : إن المقيت معناه الشاهد ، فهو سبحانه الشاهد لكل شىء وعلى كل موجود لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ما جانت عين ، ولا اختلج فكر ، ولا هجس خاطر ، ولا طمحت نفس ، ولا تكلم لسان ، ولا بطشت يد ،ولاسعت قدم إلا كان على ذلك مقيتاً شاهداً له لا يغيب عنه ولا يخفى عليه (وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

فهو المقيت الشاهد لكل شىء ، المطلع على الظواهر . والبواطن ، والخفى والمعلن ، وطاعة المطيعين وعصيان العاصين ، وحكم الحاكمين (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) .

ولو استشعر الناس إقالة الله تعالى بهذا المعنى لحال الحياء منه دون اقترافهم المعاصى ، وانغماسهم فى الآثام ، ولأضنوا أنفسهم فى طاعته وعبادته ، ولكن (قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) :

وإن قلنا : إن المقيت معناه من يعطى كل حى قوته ، فهو جل شأنه مقيت كل حى من الحيوان والنبات ومعطيه قوته . فقد سبق فى علمه وحكمته أنه سيجعل فى الأرض خليفة فقدر لهم أرزاقهم من قبل أن يخلقهم حتى إذا مشوا فى مناكب الأرض وجدوا فيها أقواتهم ، قدر لهم أرزاقهم من الحيوان والنبات والمعدنيات ، وقدر للحيوان والنبات أقواتهما كذلك فجعل فى الأرض غذاء النبات ، وجعل النبات غذاء الحيوان (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها . وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) .

سبحانه ماشق فماً . إلا أجرى له رزقاً ، ولا خلق معدة إلا هيأ لها طعاماً ، ولا أوجد كائناً حياً إلا أعد له قوتا (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) .

ومن عجب أن الجيل يمضى ويخلفه الجيل ، فيجد أقواته تامة موفورة ، وأرزاقه كاملة ميسورة ، تمطر السماء وتنبت الأرض ، وتنمى الحرارة ، وتنضج الشمس ، وتتيسر الأرزاق ، وتتوافر الأقوات ، بيد أنه علقها على أسبابها ، وناطها بوسائلها (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور) .

فمن ضرب فى مناكب الأرض سعيا وراء رزقه تيسر له ، ومن لزم عقر داره جر الحرمان إلى نفسه (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

نوّع الله سبحانه أسباب الإقالة ، فهذا يقتات من زراعته ، وذاك من تجارته

وذلك من صناعته ، وآخرون من أعمالهم المتنوعة ، وأسبابهم المختلفة . والطير تغدو خماصا ، وتروح بطانا ، والأفرخ الضعاف الزغب الحواصل ، وصغار الحيوان سخرت لها أمهاتها ترضعها ألبانها أو تزقها .

أقات سبحانه كل ذى روح حتى الأجنة فى بطون الأمهات ، ورزق كل حى حتى الطفيليات .

والشجر والنبات لعجزها عن الغدو والرواح جعل الله قوتها فى الهواء المحيط بها ، والتربة المثبتة لها .

وسخر الحكومات فى أوقات الشدائد والأزمات ، تنشىء لنموين الشعوب إدارات ووزارات ، حتى لا تقتلهم الحاجة ، ولا تفتك بهم المجاعات ، إن فى ذلك لآيات بينات ، تشهد بأنه المقيت الحق واهب الأقوات ، ولكن أكثر الناس عن فضله غافلون ، وبالضعاف الفقراء من خلقه متعلقون .

وإن قلنا : إن المقيت معناه : المقتدر ، فهو سبحانه مقتدر على كل شىء وكل ما فى الوجود من أرض وسماء ، وظلام وضياء ، وشموس وأقمار . وسحب وأمطار ورمال وأحجار ، وجن وبشر ، وطير وشجر ، وصادح وباغم ، وصامت وناغم ، آيات شاهدة باقتداره ، ناطقة بمجد آثاره .

إن قانون الماء فى تبخره من البحار ، وهطوله فى الأمطار ، والزرع فى إخراج شطئه ، واستوائه على سوقه ، ثم نضجه لأروع الآيات على اقتدار القادر المقيت سبحانه (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا) .

وبعد فهل نجد معنى من هذه المعانى فى نبى مرسل أو ملك مقرب ؟ فكيف نجده فى صديق من الصديقين أو صالح من الصالحين ؟ .

أم كيف نجده فى شهيد من الشهداء أو ولى من الأولياء ؟ .

فلم يدعوهم الناس من دون الله ؟ .

ولم يسألونهم شفاء الأمراض ، وقضاء الحاجات ، وجلب الخيرات ، ودفع المضرات وليس أحد منهم على شىء بمقتدر ولا مغيث ؟ ولم يعرضون عن المليك المقتدر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ .

هذه جاهلية نعوذ بالله منها !

هذه وثنية نبرأ إلى الله من معتنقيها ! .

هذه هى الثمرة المرة للغفلة المستحوذة ، والضلال المستحكم ، وامتهان الكرامة الإنسانية ، وإهدار العقل الذى هو أجل هبات الله تعالى للعباد .

وآيات الله تعالى فى كل موضع أدلة فى السماء والأرض ناطقة بوحدانيته ، وتفرده بالتصرف فى ملكه ، وقدرته المطلقة ، وإفاقته للأحياء من خلقه ، وليس لكائن معه تصرف فى مثقال ذرة (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

تلك آيات الله تتلى على الناس بالحق ، ولكن أكثرهم عنها غافلون (فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

ولم يرد هذا الإسم الجليل فى القرآن الكريم إلا فى موضع واحد ، وهو محتمل لأكثر المعانى التى ذكرنا ، وذلك حيث يقول الله تعالى فى سورة النساء (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شىء مقيتا) .

نسألك اللهم يامقيت أن تجعل القرآن الكريم قوت قلوبنا ، وأن تبصرنا بمعانى أسمائك الحسنى وصفاتك العلا ، إنك على كل شىء مقيت .

٣٧ — الشاكر . ٣٨ — الشكور . (أيضا)

الشكر عرفان الجميل ونشره . أو تصور النعمة وإظهارها . أو مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية . فيثنى من وصلته النعمة على المنعم بلسانه . ويذيب نفسه فى طاعته ويعتقد أنه موليها .

ذلك ماقاله أئمة اللغة فى تعريف الشكر . وقالوا : إنه مأخوذ من شكرت الدابة إذا ظهر عليها أثر المرعى أو العلف . لأن الشاكر يظهر عليه أثر نعمة المشكور ، أو من شكر الضرع إذا حفل وامتلأ باللبن ، لأن الشاكر يمتلئ من ذكر من أنعم عليه . ومهما تختلف عبارات اللغويين عن الشكر فإنها تلتقى جميعاً عند معنى واحد يتألف من ثلاثة عناصر . اعتقادى . ولفظى : وعملى .

فالاعتقادى : هو اليقين بأن هذه النعمة جاءت على يد هذا المنعم ومن طريقه . وهو ما عبر عنه بعض اللغويين بقوله : تصور النعمة . وعبر عنه غيره بقوله عرفان الجميل . وهو المراد بقول الآخر : مقابلة الفعل الجميل بالنية .

واللفظى : هو الثناء الجميل على المنعم . أى إظهار النعمة باللسان ، ومقابلتها بالقول الكريم .

والعمل إظهار النعمة ونشرها بالعمل واستعمال الجوارح فى طاعة المنعم . فاذا علمك صانع صناعة تستدر منها رزقك ، فانطوى قلبك على الاعتراف بفضله وأثنيت عليه بلسانك ، وأسديت بيدك إليه عونا كنت له شاكراً .

ولا يتم الشكر إلا بتوافر هذه العناصر الثلاثة .

قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

والشكر مثل الحمد إلا أن الحمد أعم منه ، فانك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة ومواهبه كما تحمده على معروفه ، ولكنك لا تشكره إلا على معروفه دون صفاته ومواهبه .

وربك الكريم هو مولى النعم جميعا .

فلن تبلغ حقيقة الشكر له تعالى إلا إذا امتلأ قلبك يقينا بأنه سبحانه المسدى جميع ما تنعم به من خير ، ثم أعربت عن عقيدتك هذه بلسانك ، وأوضحتها ببيانك ، وأثنيت عليه الثناء الحسن الجميل ، وأنت موقن أنك لا تحصى ثناء عليه ثم صرفت كل نعمة من نعمه إلى الوجه الذى من أجله سبحانه تفضل بها عليك .

وقد حرص الشيطان — عليه اللعنة — على أن يصد الإنسان عن بلوغ حقيقة الشكر . وقد أخبرنا الله تعالى بذلك لنأخذ منه حذرنا ، فقال تعالى (قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين) .

وعلى الرغم من أن الله سبحانه حذرنا كيد الشيطان وبصرنا بوسوسته أبى الإنسان بغفلته إلا أن ينقاد له ويتبع خطواته ، كما قال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) .

ولا جرم أن هذا الفريق هو القليل الذى ذكره رب العزة بقوله (وقليل من عبادى الشكور) هذا ولصعوبة الارتقاء إلى ذروة الشكر لم يثن الله تعالى بالشكر إلا على اثنين من أولى العزم من الرسل ، وهما نوح وإبراهيم عليهما السلام .

قال تعالى (ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً) .

وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه ، وهداه إلى صراط مستقيم) .

وكان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يبلغ حقيقة الشكر ويكون من الشاكرين ، فكان يقوم الليل فى عبادة ربه حتى تورمت قدماه فلما قيل له : كيف تفعل ذلك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

هذا هو شكر المخلوقين بعضهم لبعض ، أو شكرهم لرب العزة سبحانه :

و إنما كتبت فيه بإفاضة وإسهاب ليكون تمهيداً لبيان حقيقة الشكر الذى وصف رب العزة به نفسه ، وقد رأيت أن شكر المخلوقين فى مقابل نعمة نالت الشاكر ، وأنت على يقين من أن ربك سبحانه مولى النعم كلها ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، بل هو الكريم الوهاب الذى غمر الخلق بنعمته . فما حقيقة الشكر المضاف إليه تعالى ؟ .

إذا شئت أن تقف على حقيقة الشكر الذى أثنى به رب العزة على نفسه وسمى نفسه بالوصف المشتق منه — وهو الشاكر والشكور — فتصور العناصر الثلاثة التى جلوتها عليك لتخلص من تصورها إلى الوقوف على حقيقة الشكر .

أما العنصر الاعتقادى أو النفسى فيقابله علم الله تعالى بما يأتيه العبد من نوايا الخير ، وأفعال البر ، وصادق الطاعات وما يدعه من نيات الشر ، وأعمال السوء وقبيح المعاصى. ولذلك تجده تعالى يقرن الشكر بالعلم فى قوله تعالى (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) وفى قوله تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكراً عليما) .

وأما العنصر اللفظى فيقابله ثناؤه تعالى على المطيعين المخلصين من عباده كقوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون

بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) .

وقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ، والذين يقولون : ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) .

وقوله تعالى : (إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة . وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) أما العنصر العملى فيقابله ما أعده الله تعالى للعاملين من حسن المثوبة وعظيم الأجر والنعيم المقيم كما قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب . ويلبسون ثيابا خضرا : من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا) .

ومن كل ماتقدم تستطيع أن تستنبط أن معنى اسمه تعالى « الشاكر » . أنه الذى يعلم مايعمل العباد من خير ، ويثنى عليهم بنسبته إليهم ، ثم يجزيهم به الجزاء الأوفى .

وأما اسمه تعالى « الشكور » فمعناه كمعنى الشاكر ، ولكن لأنه على صيغه المبالغة التى تدل على زيادة المعنى يزيد عليه أنه الذى يضاعف الثواب ويجزى الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر من ذلك إلى مالا حد له ، ويجعل الحسنات يذهبن السيئات ، وتتسع مغفرته للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . ولذلك نجد اسمه الشكور مقروناً باسمه الغفور

فى قوله تعالى (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور) وفى قوله تعالى (وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) وفى قوله تعالى (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً . إن الله غفور شكور) .

ولما فيه من معنى الصفح عن زلات الذين يجتنبون الكبائر قرنه باسمه تعالى الحليم فى قوله (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم) .

وعلى ذلك يكون معنى « الشكور » : الذى يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء ويغفر لهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويزيدهم من فضله .

فإذا نحن وقفنا على حقيقة هذا الاسم الجميل من أسماء الله تعالى الحسنى ، وآمنا إيماناً حقا بأن ربنا سبحانه لا بد أن يعامل عباده بمقتضاه معاملة تتجلى فيها مظاهره الرائعة ، دفعنا ذلك الإيمان إلى أن نبذل منتهى وسعنا فى صالح العمل ، وفى بذل العفو من ذات أيدينا ، ونحن واثقون بشكر الغفور الشكور سبحانه لنا أى بحسن ثوابه ، وعظيم أجره والمزيد من فضله .

إذا تقرر هذا أهبت بك أن تنظر بعين الإنصاف إلى تصرف فئة من الناس تعتزى إلى الإسلام وتلقى بأموالها فى ثقوب الصناديق التى علقها الخبثاء الماكرون فى المقاصير المضروبة حول قبور بعض الموتى ، وتقرب الجداء والكباش والعجول إلى هؤلاء الباطلين المتمطلين الذين احترفوا سدانة الأصنام المنصوبة على هذه القبور ، ثم تخبرنى هل تشكر لها هذه الأصنام ماقربت إليها من قربان ، أم هل يجزيها السدنة بما قدمت إليهم من حيوان ؟ أم هل يشكر لها ربها الغفور الشكور ماعملت وهى لم تعمل ابتغاء وجهه الكريم . ولا طلباً لمرضاته ، ولا فراراً من سخطه ؟ .

ألست تقرنى بعد هذا على القول بأن هذه الفئة من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . ذلك بأن سعيهم غير مشكور ، وعملهم غير مأجور : ينفقون أموالهم ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يبوءون بصفقة

الخاسرين (ويجعلون لمالا يعلمون نصيبا مما رزقناهم . تالله لتسألن عما كنتم تفترون)

وهناك فئة أخرى بلغ بها السفه أو البله إلى أن تفرض فى أموالها ضريبة تدفعها إلى شيخ من شيوخ الطرق الأغنياء الذين يغزون المدن والقرى والدساكر بعد موسم الحصاد ليجمعوا هذه الضرائب التى فرضها الدجل والختل والمكر والخديعة وأقرها الجهل والغفلة والغباء والبله والفتون والوثنية .

والقرى التى تفرض فيها هذه الضرائب فقراء لا يجدون ماينفقون ، ومساكين تعوزهم اللقمة التى تمسك الدماء ، والخرقة التى تستر السوءة ، ولا يحفل بهم أحد ، ولا يعنى بشأنهم إنسان ، فيسقطون صرعى تحت كلاكل الأمراض أو يدفعهم ضغط الحرمان إلى الانفجار بالشر والجريمة والفتك والبغى والفساد .

ولو أن هذه الضرائب التى تصرف إلى هؤلاء الأغنياء المترفين لتزيدهم ترفا إلى ترفهم ورفاهية إلى رفاهيتهم بغير شكران ولا اعتراف بجميل — لو أنها تصرف إلى هؤلاء الفقراء المعوزين لكان لهم منها سداد من عوز ، وطعام من جوع ، وكساء من عرى ، ولشكر الغفور الشكور للباذلين مابذلوا وزادهم من فضله . ولكن وا أسفاه ! إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وفقنا الله تعالى لما يحب ويرضى من العقيدة والقول والعمل ، وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته آمين .

٣٩ — نور السموات والأرض

النور فى اللغة : هو الضوء المنتشر الذى يعين على رؤية الأشياء ، وهو عامل خارجى عن العين يؤثر فى أعصابها تأثيرا يُعَبَّرُ عنه بالأبصار .

وقد اتسع محيط علمنا بالضوء فى العصور الحديثة إتساعاً عظيما بفضل هداية الله تعالى طائفة من العلماء ، أنار بصائرهم ، ووفقهم إلى كشف كثير من الحقائق العلمية التى تتصل بالضوء والتى كانت تخفى على البشر ، فى العصور الماضية .

ومما أجمع العلماء عليه : أن العين لاترى جسما إلا بما يصل إليها من ضوئه ، سواء أكان ضوئه ذاتياً أم مرتدا : أى منعكسا عن الجسم من آخر ، والانعكاس هو الوسيلة إلى رؤية الأشياء التى لاتضىء بذاتها .

ومما اتفق عليه أكثر العلماء : أن هناك شيئاً يملأ الفضاء ، وهووسيلة انتشار الضوء ، وذلك الشىء هو المسمى بالإثير Ether . وهو مرن ، عديم الذرات ، قليل الكثافة لا تدركه الحواس ، يتخلل جميع الأجسام ، وينفذ فيها ، مهما تكن كثافتها أو صلابتها وهو مائج مذبذب دائما ، وأمواجه هى التى تنقل الضوء إلى الأبصار إذا بلغت عددامعينا فى الثانية ، فإذا زاد عددها أو نقص عجزت الأبصار عن رؤية مايحمله إليها من الضوء .

هذا وقد كشف العلماء أن ضوء الشمس مركب من سبعة ألوان مرتبة على هذا الوضع ؛ الأحمر ، فالبرتقالى ، فالأصفر ، فالأخضر ، فالأزرق ، فالنيلى ، فالبنفسجى .

واختلاف عدد أمواج الأثير أو ذبذباته فى الثانية : هو الذى يؤثر فى شعورنا بهذه الألوان وقرروا كذلك أن هناك أشعة لاتدركها أبصارنا وهى الأشعة تحت الحمراء ، وفوق البنفسجية ، وقد دلت عليها العلماء آلات خاصة هدوا إلى ابتكارها من عهد قريب . وقد التقطت هذه الآلات أشعة لايعرف مصدرها فسماها العلماء الأشعة الكونية ، وقرروا أيضا أن سرعته فى الفضاء هى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية تقريبا . وهناك حقائق أخرى كثيرة تتصل بالضوء ضربنا عنها الذكر صفحا أن كان إدراكها يشق على من لم يتمرسوا بالعلوم الطبيعية .

وقد صار الضوء علما مستقلا يدرس فى المدارس له مبادئه وقوانينه وأجهزته ، وإنما ألمعنا إلى الحقائق التى ألمعنا إليها لنبين للقارىء الكريم أنه كلما زاد إلمام الناس بقوانين الضوء اتسع فهمهم لمعنى اسمه تعالى « نور السموات والأرض » .

هذا والنور نوعان : حسى ومعنوى وكل ما كتبناه إلى الآن إنما هو فى النور الحسى ، أما النور المعنوى : فهو نور العقول والأذهان والبصائر والأفهام ، ونور الهداية والإرشاد المستمد من الكتب السماوية ، وحكم الأنبياء والمرسلين ، وتعليم الهداة والمرشدين.

قال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) وقال تعالى: (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين) .

هذا وكل نور حسى أو معنوى فى السماء والأرض ، وفى الدنيا والآخرة . فرب العزة سبحانه هو موجده ، ومن أجل ذلك أخبر سبحانه عن نفسه أنه نور السموات والأرض أى منورهما بما خلق ودبر ووهب ومنح من أنوار حسية ومعنوية ، وبما هدى وأرشد وأوحى وألهم .

سمى نفسه نور السموات والأرض مبالغة : لأن هذا النور لا يملكه غيره . ولا يقدر عليه سواه ولو اجتمع من فى السموات ومن فى والأرض على أن يوجدوا ومضة نور أو شعاعة ضوء ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

إن فى اختراع النور الحسى الآية بينة على القدرة التى لا حد لها ، والعلم الذى لا نهاية له والحكمة التى لا غاية لها .

ماذا يكون مصير هذا العالم لو ساده الظلام ، ولم يشرق فيه نور ؟ .

ماذا يكون مصير النبات والحيوان والإنسان لو لم يكن فى هذا العالم نور يستمد منه النبات لونه ونماءه ، ويستمد منه الحيوان نموه وقوته ويهتدى إلى ضروريا ته ، ويزاول فيه الإنسان عمله الذى تعتمد عليه حياته ؟

ولقد جعل الله السماء مصدر النور الطبيعى ، وهدى أهل الأرض إلى اختراع نور يستعيضون به عن ضوء السماء إذا احتجبت الشمس ، فجعل النار مصدر النور ، وجعل

من الأجسام ما يتصل بالنار أى يحترق فيبعث النور كالخشب والفحم والزيت والنفط والشمع وغيرها من الأشياء التى اتصلت بالنار أشعت نوراً يمحو الظلام عن المكان الذى يريد الإنسان أن ينوره .

ولقد هدى الله سبحانه إلى الاستضاءة بالكهرباء الفاشئة من تحاك بعض الأجسام ، أو تفاعل بعض العناصر ، فإذا مرت بسلك دقيق من فلز معروف موضوع بنظام خاص فى زجاجة مفرغة توهج السلك وأحدث ضوءاً قوياً أو ضعيفاً طوعاً لحجمه . وهذه آية من آيات الله ظلت خفية أحقاباً متطاولة ثم جلاها سبحانه لوقتها ، حين هدى بنوره إليها من وفقه إلى كشفها .

ولقد هدى الله سبحانه الإنسان منذ القرون الأولى إلى أن احتكاك الصوان بقطعة من الصلب تحدث شرراً . فكان يتلقى هذا الشرر فى مادة قابلة للاحتراق فتشتعل وتحدث النار والنور .

وكان قد هداه من قبل ذلك إلى أن احتكاك أغصان الشجر بتأثير الريح العاصف يحدث النار والنور ، فكان يحاكى الطبيعة ويحرك قضيبين من الحطب بعضهما فيشعل النار ويبعث النور .

وقد منح الله الإنسان والحيوان والطير والحشرات أبصارا تدرك النور وتبصر ما يقع عليه أو يرتد عنه . وماذا يكون الشأن لو خلق الله النور . ولم يخلق الحاسة التى تدركه ، وماذا يكون الشأن لو خلق الحاسة التى تدرك النور حيث لا نور ؟

ولكن نور السموات والأرض خلق النور وخلق الحاسة التى تدركه فتمت الفائدة وتحققت الحكمة وقامت الحجة .

وأعود فأقول : إن ابتداع النور لأمر رائع ، ونبأ عظيم ، وما أبلغ دلالة على القدرة الشاملة ، والعلم الواسع ، والحكمة البالغة !

ما الشأن لو أن الدنيا كلها ظلام دامس ، وليل سرمدى لا يعقبه نهار ، ولا صبح له ولا مساء ؟

إن اختراع الغريزة والذهن والفكر والعقل والبصيرة والوجدان وهي مصادر الأنوار المعنوية لآية بينة على قدرة الخالق المبدع وواسع علمه وبالغ حكمته ، وعلى أنه نور السموات والأرض والدنيا والآخرة .

كتلة من اللحم والدم والعصب والعظم تفكر وتقدر وتخترق وتبتدع ، وتأتي بالمدهشات والأعاجيب من ثمار العقل ، ونتائج الفكر وروائع التدبير بفضل ما أفاض عليها نور السموات والأرض من نور سبحانك يانور السموات والأرض !

من منحته النور فقد هديته إلى سبيل الرشاد ، ومن حرمته فإنه يضل ضلالا بعيداً . ووحى الله تعالى إلى رسله وأنبيائه ، وشرائعه التي أنزلها لعباده نور يهتدون به طريق السعادة . وأعداء الحق يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلى أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

فمن اهتدى بنور الشرائع فى الدنيا ، وسار على هداه متعه الله بالنور الأخروى الذى يشع من المؤمنين ولا يخضع لقوانين النور المعروفة فى هذه الحياة الدنيا .

قال تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) وقال تعالى : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) وقال تعالى : (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير)

* * *

هذا وقد جعل رب العزة النور حجاباً له دون خلقه رحمة بهم ورأفة بضعفهم . روى أن جبريل عليه السلام قال : لله دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربنا .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ـ حين سئل : هل رأيت ربك ؟ ـ : « نور أنى أراه وحجابه النور ؟ ـ وفى رواية ـ ولو كشفه لأحرقت سبحات وجه كل شىء

أدركه بصره » أى لو انكشف من أنوار الله التى تحجب العباد عنه شىء لأهلك كل شىء وقع عليه ذلك النور ، كما خر موسى صعقاً ، ودك الجبل دكا لما تجلى الله سبحانه وتعالى.

ولربنا سبحانه نور ذاتى لا يشبهه شىء مما نعرف ومما لا نعرف من هذه الأنوار المخلوقة قال تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) وقال عليه الصلاة والسلام من دعاء الطائف المأثور « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك » .

وكان السراج المنير صلى الله عليه وسلم يحب النور نور الحق والخير والفضيلة ويسأل الله أن يجعل النور فى كثير من أعضائه . فمن مأثور دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نورا وعن يسارى نورا ، وفوقى نورا وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا » .

ومراده عليه الصلاة والسلام : أن يدعو ربه — وهو نور السموات والأرض — أن يجعل مداركه كلها تنصرف دائماً إلى الحق والخير والفضيلة ، وأن يجعل سبيله دائما إلى الحق والخير والفضيلة ، وأن يجعل الهداية والتوفيق ملازمين له فى سائر تصرفاته ، وجميع أعماله ومعاملاته حتى يتم له الفضل من جميع جهاته ، ويحظى برضوان الله فى جميع أوقاته .

وقد جعل الله النور حظ المؤمنين الأتقياء فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم) .

نسأله تعالى بنور وجه الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يجعل لنا نورا نمشى به ، يسعى بين أيدينا وبأيماننا ، وأن يكتب لنا التوفيق والهداية إلى أمثل طريق . أنه أكرم مسئول ونعم المجيب .

٤٠ — الحميـــــد

يطلق الحمد فى اللغة على الشكر ، والرضا ، والجزاء ، وقضاء الحق ، وهى معان متقاربة لايبعد بعضها عن بعض كثيراً ، ولا تتفاوت إلى قليلا ، فمن حمد لمحسن فعله فقد شكر له ورضى عمله ، وجزاه به ، وقضى حقه .

غير أن الحمد يكون على نعمة نالت الحامد ، وعلى فعل جميل ينفع من المحمود لاينال الحامد منه شيء . أما الشكر فلا يكون إلا عن نعمة نالت الشاكر .

فأنت تحمد فلانا لأنه أسدى إليك صنيعة ، وتحمده لأنه يسهم فى أعمال الخير ، ويشارك فى مشروعات البر ، ولا تشكره إلا إذا نالتك أنت منه نعمة ، ومسّك منه جناح خير .

والحمد أخصّ من المدح ، وأعم من الشكر ؛ فإن المدح ثناء حسن على ما كان من الممدوح باختياره ، وعلى مالم يكن له فيه اختيار . فقد تمدح إنساناً لتبرعه لمشروع خيرىّ ، وهو عمل اختيارى أتاه باختياره . وقد تمدحه بشدة عارضته ، أو سرعة بديهته ، أو حدة ذكائه ، أو قوة بدنه ، أو طول قامته ، أو ماثل ذلك من الأمور التى لا اختيار للممدوح فيها . أما الحمد فلا يكون إلا على الجميل الاختيارى

والشكر لا يكون إلا فى مقابل نعمة وصلت إليك ممن تشكر له .

أعتقد أن هذا البيان كافٍ لتوضيح حقيقة الحمد .

وقد سمى رب العزة نفسه « الحميد » وأكثر ما قرن هذا الإسم الكريم فى القرآن باسمه الغنى . قال تعالى : (والله غنى حميد — ومن كفر فإن الله غنى حميد — والله هو الغنى الحميد — وكان الله غنياً حميداً — إن الله هو الغنى الحميد) .

وقد وَرَدَ مقرونا باسمه تعالى « العزيز » قال تعالى : (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد — ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) .

وقد ورد مقروناً باسمه تعالى « الحكيم » قال تعالى : (تنزيل من حكيم حميد) كاورد

مقروناً باسمه تعالى الولى قال تعالى : (وهو الولى الحميد) .

فما معنى هذا الإسم الجليل ؟

ليس من شك فى أن الحميد مشتق من الحمد . فهو فعيل بمعنى فاعل : أى حامد ، أو بمعنى مفعول : أى محمود . وكلاهما صحيح بالإضافة إلى رب العزة: جل شأنه. فإن كان بمعنى فاعل أى . حامد . فإنه سبحانه يحمد من يستحق الحمد من عباده ، ويثنى عليهم ، ويشيد بأعمالهم التى أتوْها باختيارهم ابتغاء وجه ربهم؛ ليستنهض الهمم إلى الاقتداء بهم، والائتساء بأعمالهم والنسج على منوالهم ، واتباع سبيلهم .

حمـــد جل ثناؤه ملائكته وأثنى عليهم ، فقال : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون (وقال عز شأنه : (بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون) وقال تعالى : (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون)وقال تعالى : (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) وقال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون)والحق أن الملائكة مختارون فيما يفعلون ، وإن كانوا لا يختارون إلا ما فيه لله رضا، وبذلك استحقوا حمد الله تعالى إياهم ، وكذلك الأنبياء الذين هم مع عصمتهم مختارون مستحقون لحمد الله إياهم .

حمد سبحانه ملائكته المكرمين ؛ ليبين للناس أن الملائكة مع سمو منزلتهم وعلو مكانتهم وطهارة عنصرهم لا يستنكفون عن عبادته ولا يستحسرون، ولا يتقاعسون ولا يستكبرون: تخليق بالإنسان الذى خلق من صلصال من حمإ مسنون : أن يقنى الحياء ، ويخلع الكبرياء ، وأن يتقى الله ما استطاع ، وأن يسمع ويطيع، وأن يسمو بهذه الطينة حتى يجعلها أهلا لسكنى جنات الفردوس ؛ يجد فيها مستقراً ومقيلا .

وحمد سبحانه عباده الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؛ ليكون فيهم لغيرهم أسوة حسنة ، وليلهب فى نفوس المؤمنين الشوق إلى أن يظفروا من ربهم الحميد بسعادة الرضا .

فقد حمد سبحانه نوحاً عليه السلام ، فقال : (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) .

وحمد إبراهيم عليه السلام ، فقال:(وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) . وقال : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) . .

وحمد سبحانه إسماعيل عليه السلام ، فقال:(واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) .

وحمده سبحانه وحمد معه إدريس وذا الكفل ، فقال سبحانه : (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) .

وحمد موسى وهرون عليهما السلام ، فقال:(سلام على موسى وهرون . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين) .

وحمد سبحانه زكريا وزوجه وابنهما ، فقال : (وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

وحمد سليمان عليه السلام ، فقال : (ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد إنه أواب) .

وقال فى شأن أيوب عليه السلام : (إنا وجدناه صابراً . نعم العبد إنه أواب) .

وحمد خاتم النبيين محمداً صلى الله عليه وسلم والذين معه ، فقال جل من قائل : (محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم . تراهم ركعاً سجداً . يبتغون فضلا من الله ورضواناً . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) .

وقال تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقال : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

والحق أن الخُلُق أمر كسبى اختيارى يكسبه المرء بالتخلق . قال الشاعر :

إن التخلق يأتى بعده الخلق

وقال آخر : ولن تستطيع الحلم حتى تحلما

وحمد سبحانه مريم عليها الرضوان ؛ ليكون فيها لنساء العالمين أسوة حسنة، فيتعلمن منها العفاف ، ويصن جمالهن عن مهانة التبذل ، ويربأن بأنفسهن عن دنس المضاجع لتطهير

الأنساب ، وتسلم الأعراق . قال تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

وحمد سبحانه الصالحين من عباده الذين ليسوا بملائكة مقربين ، ولا أنبياء مرسلين؛ ليعلم من عداهم أن التقوى فى وسعهم ، وأن الطاعة فى استطاعتهم ، وأن الصلاح ميسر لهم وأنهم لو صحت عزائمهم وقويت إرادتهم ، وطابت نياتهم لكانوا كأمثالهم الذين سبقوهم بالإيمان ، وبدروهم إلى الإحسان ، فقال : (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون)

هذا الحمد آية الرضوان ، وأمارة القبول والغفران . فما أسعد هؤلاء الذين رضى عنهم ربهم ، وحمد سعيهم . وسجل فى الذكر الحكيم ثناءه عليهم ، ورضاه عنهم ، وحمده إياهم .

يشعر الرجل برضى رئيس عاجز ضعيف فقير لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فيكاد يخرج من إهابه فرحاً وسروراً ، وزهواً وغروراً ، فكيف بمن يرضى عنهم ربهم القوى القادر الغنى الحميد سبحانه ؟ لاجرم أنهم السعداء حقاً ، بل هم أسعد السعداء حقاً . ومن رأى السعادة فى غير رضوان الله فقد افترى إثما عظيما .

هذا على تقدير أن فعيلا بمعنى فاعل : أى أن الحميد بمعنى الحامد . وهو صحيح كما رأيت . ولكن أصح منه : أن يقدر فعيل بمعنى مفعول : أى أن الحميد بمعنى المحمود ؛ لأن النصوص التى تؤيد هذا التقدير أصرح وأكثر . وقد جاء فى القرآن الكريم : (الحمد لله ـ ولله الحمد) أى أن الله تعالى خليق بأن يحمد ، بل هو وحده المستحق للحمد على التحقيق . وهذا مايؤيد أن الحميد بمعنى المحمود .

وقد حمد رب العزة نفسه فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ؛ ليعلم عباده كيف يحمدونه رحمة بهم وتفضلا عليهم ؛ لعلمه أنهم مهما ترسخ أقدامهم فى العلم ، ومهما يعظم

حظهم من الذكاء فلن يحصوا ثناء عليه ، ولن يبلغوا حقيقة الحمد الجدير به سبحانه ، فحمد نفسه بنفسه وبين ذلك لعباده ليحمدوه بمحامده التي حمد بها نفسه .

وقد حمد جل ثناؤه نفسه بما أنعم به على عباده من نعم الخلق والرزق ، وتيسير المنافع وتسخير قوى الوجود التي خلقها للإنسان . قال سبحانه : (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم) وقال جل شأنه : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) . وقال عز من قائل . (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات : أن لهم أجراً حسناً . ماكثين فيه أبداً) وقال جل ثناؤه . (الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض ، وله الحمد في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير) وقال تبارك اسمه : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق مايشاء) .

وكل هذه النصوص تؤيد كذلك أن حميداً بمعنى محمود .

وقد أمر سبحانه نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يحمده ناسباً إليه الكمالات التي تليق بجلاله وعظمته ، فقال تعالى : (وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل) .

وأمره أن يحمده إذا جادله الكافرون ، فانتصر عليهم ، وظهر حقه على باطلهم ، ودحضت حجتهم ، فقال : (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ! قل : الحمد لله . بل أكثرهم لايعقلون) وقال تعالى : (ضرب الله مثلا : رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلماً لرجل . هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله . بل أكثرهم لايعلمون) .

كما أمره سبحانه أن يبدأ حجاجه واستدلاله بحمد الله ، والسلام على المصطفين من عباده فقال : (قل : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أم مايشركون ؟

أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) وقال تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) وقال تعالى : (وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده) .

وأخبر سبحانه عن أصحاب الجنة أنهم يحمدونه حين يرون صدق وعده ، فقال وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين) وقال تعالى : وآخر دعواهم : أن الحمد لله رب العالمين) .

وأخبر تبارك إسمه : أنه محمود فى كل مكان وفى كل زمان ، فقال : (وله الحمد فى السموات والأرض ، وعَشِيًّا ، وحين تظهرون) .

إن ربوبيته تعالى لكل شىء فى السموات والأرض تستوجب أنه يحمد فى السماء والأرض . قال تعالى : (فلله الحمد . رب السموات ورب الأرض رب العالمين) وقال تعالى : (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ، له الملك ، وله الحمد) وقال تعالى : (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

إن مجرد وجود الكائنات أقطع دليل على عظيم فضله تعالى ، وواسع كرمه إذ أفاض عليها نعمة الوجود ، وأنشأها من العدم . فإن لم تكن الموجودات ذوات ألسنة تنطق بها وتعرب عن حمدها لبارئها سبحانه فإن لسان حالها أفصح إعرابا ، وأبلغ تعبيراً ، وأصدق حمداً . إن كل حمد وجه إلى غيره تعالى فهو الأجدر به ؛ لأنه واهب النعمة التى من أجلها حمد المحمود . فهو سبحانه المحمود بكل لسان ، وبكل جارحة وعلى كل نعمة وعلى كل حال .

يحمد سبحانه على المحبوب الممتاع به ، ويحمد على المكروه لأن له نعما كامنة فى طيه لا يدركها إلا الموفقون الذين استنارت بصائرهم ، وسمت مداركهم ، وعلموا أن للحق سبحانه حكما عالية وأسراراً دقيقة فى كل ما يفعل ، فحمدوه على السراء والضراء . ولو

لم يكن فى الحمد على المكروه إلا الظفر بثواب الصابرين الذين يوفون أجرهم بغير حساب ، لكان ذلك من أعظم موجبات الحمد له .

هو الغنى الحميد ؛ لأنه لا يضن بفضله كما يضن الأغنياء . وهو العزيز الحميد ؛ لأنه مع عزته لا يظلم أحداً كما يظلم الأعزاء .

وهو الحكيم ، الحميد لأنه لا يضل ولا ينسى كما يضل وينسى الحكماء . وهو الولى الحميد لأنه لا يخذل من والاه كما يخذل الأولياء . فله الحمد هو نور السموات والأرض وما فيهن ، وله الحمد هو قيم السموات والأرض وما فيهن ، وله الحمد هو الحق ، وقوله حق ، ولقاؤه حق .

قد استحمد إلى خلقه بما والى عليهم من عظيم نعمه ، وما يزالون فى المزيد من فضله ما داموا فى المزيد من حمده . فله الملك وله الحمد . وهو على كل شىء قدير .

٤١ — الماجد . ٤٢ — المجيد

تقول العرب : مجدت الإبل إذا حصلت فى مرعى كثير واسع ، وقد أمجدها الراعى إذا أسامها فى هذا المرعى الكثير الواسع . وتقول : مجدت الغنم مجودا إذا أكلت البقل حتى هجع غرثها أى ذهب جوعها ، وتقول : رأيت أرضاً قد مجد شاتها وبعيرها أى أرضاً غنية بالعشب والكلأ قد شبعت الأنعام التى ترعى فيها ، وبدت عليها علامات الشبع من الشحم واللحم .

هذا أصل هذه المادة ، فهى تدل فى أصلها على كثرة المرعى وسعته ثم انتقل المعنى من المحسوسات إلى المعقولات ، فصار فى سعة الشرف ، فقالوا : نحن — بنى هاشم — أمجاد أنجاد أى أشراف كرام .

وقال الشاعر :

دعنى أماجدْ فى الحيـاة فإننى إذا دعا داعى الوفاةِ — مجيبُ

أى أكاثر وأتوسع فى الشرف

فصار معنى المجد الشرف الواسع . وكانوا لا يدركون الشرف إلا بالبذل والسخاء، فمن بذل وتوسع فى الكرم اعتبروه ماجداً أى شريفاً كريماً سخياً . ولما كان البذل ملازما للوجد والسعة ، لأنه لايكون فى غالب الأمر إلا عن ظهر غنى لوحظ فيه كذلك اتساع الثروة والغنى ، وقالوا : رجل ماجد أى مفضال كثير الخير شريف . والمجيد فعيل منه للمبالغة .

ولما كان من شأن الناس وطباعهم الغالبة أن يحبوا من يحسن إليهم ، ويبذل لهم المال ، ويحترموه ، ويرفعوا قدره كما قال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

صار مما يكمل معناه أيضاً رفعة القدر ، وعلو المنزلة ومضاء الكلمة .

وأصبح المجد جامعا لكل هذه المفاخر : الغنى والكرم ، والسخاء ، ورفعة القدر مع التوسع فى جميعها .

فالماجد من يتوسع فى الاتصاف بكل هذه المفاخر ، والمجيد من يبالغ فى التوسع فى الاتصاف بها .

ذلك مجد المخلوقين .

فما معنى مجد الخالق سبحانه ؟

إن شئت أن تدرك معنى مجد الخالق سبحانه ، فاعلم أن رب العزة تبارك اسمه قد سمى نفسه بأسماء تعبر عما اتصف به سبحانه من الصفات العلا ، وألفاظ هذه الأسماء مما تعرفه العرب فى لغتها ، وتدرك معناه إدراكا صحيحا ، فحين أخبرها — سبحانه — بها انصرفت أذهانها إلى تلك المعانى التى تعرفها ، ولكن رب العزة سبحانه كان أبرّ بها ، وأرحمَ من أن يَذَرها تهيم فى أودية المعانى التى تناسب المخلوقين ؛ فتدارکها سبحانه بلطفه ورحمته وأخبرها بأنه (ليس كمثله شىء) ، فأصبحت تجعل المعانى المعروفة لديها أساسا لإدراك هذه الصفات ، ثم تتسامى بها عن أن تشبه صفات المخلوقين .

وفى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نسير فى تفسير اسميه الكريمين: الماجد: والمجيد فمعناهما الغنى الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما، الذى لا يفتقر إلى غيره، وكل ما عداه ومن عداه مفتقر إلى فضله ورحمته، الكريم المنزه عن أدنى شائبة من شوائب النقص فى ذاته وصفاته وأفعاله، ذو الفضل العظيم، والإحسان الكريم الذى غمر بفضله وإحسانه كل حى فى السماء والأرض، رفيع الدرجات الذى سما قدره فوق جميع الأقدار، ونفذت مشيئته فى جميع الأقطار وعنت له الوجوه، وخشعت الأصوات، وسجد له من فى السموات والأرض.

أما ما يشهد بمجده تعالى من الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق. فأكثر من أن تستوعب فى الأسفار والأوراق، وحسبك أن فى كل مقبت شعرة من كل حى آية ناطقة بمجده، وفى كل قيد أنملة من فجاج الأرض وآفاق السماء آيات شاهدات لو ترجمت شهادتها إلى اللغات، وعبر عنها بالألفاظ والكلمات لضاقت عنها صحائف الأرض والسموات.

وأما آيات مجده فى القرآن الكريم فكثيرة، أورد عليك منه ما تطمئن به القلوب وتقر العيون.

فما يشهد بغناه المطلق - والغنى عنصر من عناصر المجد - قوله تعالى فى سورة فاطر: (٣٥ : ١٥ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغنى الحميد).

وقوله تعالى فى سورة المائدة: (٥ : ١٧ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء، والله على كل شىء قدير).

وكل ما فى أيدى المخلوقين من النعم التى خولهم الله إنما هى عوارى مستردة وودائع إلى حين.

وإذ قد ثبت أن من آيات مجده تعالى الغنى المطلق وافتقار جميع الخلق إلى فضله ورحمته، وجب ألا تطلب الحاجات إلا إليه، ولا تلتمس الرغبات إلا عنده، ولا يدعى فى الجلى إلا هو، ولا يغيبن عن ذهنك قوله تعالى فى سورة سبأ: (٣٤ : ١٢ قل: ادعوا الذين

زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير) .

وإذا كان الكرم من دلائل مجد الكريم الوهاب سبحانه ، الذى لو اجتمع من فى السموات والأرض منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة ؛ وسأله كل منهم أقصى ماتطمح إليه نفسه ، وتتراءى إليه آماله وأمانيه ، فأعطاه أضعاف ما سأل لم ينقص ذلك من ملكه إلا كما ينقص الخياط من البحر إذا غمس فيه .

أفيسوغ فى قضية العقل ـ مع هذا ـ أن يترك باب هذا الماجد الكريم الوهاب الذى يعطى بغير سؤال ليطرق باب مخلوق عاجز ضعيف فقير ، كل ما بين يديه من فضل الله ورحمته ؟ .

ياحسرة على عقول أضاعها أصحابها ، وألقوها فى الرغام ؛ وداسوها بالأقدام ! .

ومن آيات مجده تعالى أنه رفيع الدرجات ذو العرش، خضع لعلوه كل شىء وذل لعزته كل عزيز ، وعنا لسلطانه كل ذى سلطان ، بيده نواصى العباد جميعاً ، وما منهم إلا عبد ذليل خاضع مسخر ، قال تعالى فى سورة الرعد : (١٣ : ١٥ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) وقال تعالى فى سورة الإسراء : (١٧:١٤ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً) وقال تعالى فى سورة مريم : (١٩ : ٩٣ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) وقال تعالى فى سورة طه : (٢٠ : ١٠٨ ـ ١١١ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما) وقال تعالى فى سورة غافر : (٤٠:١٥ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) وقال تعالى فى سورة البروج : (٨٥ ، ١٥ ، ١٦ ذو العرش المجيدُ . فعال لما يريد) وقال تعالى فى

سورة الحج : (٢٢ : ١٨ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ،وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب، ومن يهن الله فماله من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء) .

ذلك هو الله المجيد الذى سخر لعظمته كل شيء ، وتصرف بقدرته فى كل موجود وقهر بالمرض والموت كل جبار عنيد .

أيحسب الإنسان الظلوم الجهول أن غيره يملك معه مثقال ذرة من السموات والأرض فيدعوه للجُلّى ويلتمس منه الحاجات ، ويهتف باسمه فى الغدوات والروحات ؟ !

أيحسب الإنسان الظلوم الجهول أن الله الحميد المجيد تعالى جده جعل مشيئته سيّقة للمخلوقين يوجهونها كيف يشاءون ، ويبرمون منها ما يحبون وينقضون منها مايكرهون؟ تعالى ربنا الحميد المجيد عما يقول الظالمون ! ! .

أيحسبون أن ربنا الحميد المجيد لايجيب سؤال السائلين إلا إذا توسلوا إليه بحجيب من أحبابه ، كفساق الحكام الذين لا يقضون حاج ذوى الحاج إلا إذا قادوا له من يحب من الحسان ، أو مرد الغلمان ؟

ومن آيات مجده تعالى الشاهدة بسعة سلطانه : قدرته على تأييد رسله بأمور خارجة عن طوق البشر ، وعلى إكرامهم بما لم تجر به عادة الناس ، فرق البحر لموسى وقومه ، وفجر لهم الماء من الصخر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل عيسى يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وجعله يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، وأصلح زوج زكريا بعد العقم والإياس ،:ووهب لها غلاماً زكياً ، ووهب لإبراهيم بعد شيخوخته وشيخوخة زوجه غلاماً من الصالحين حتى لقد عجبت امرأته أشد العجب حين بشرتها به الملائكة ، و (١١ : ٧٢ قالت : ياويلتى ، أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشيء عجيب ! قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد) .

وهو سبحانه خالق العناصر فكيف لا تطيعه العناصر ، وموجد الكائنات فكيف لا تخضع له الكائنات ؟ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

أفليس ذلك الإله المجيد الفعال لما يريد، القادر على خرق العادات ، والتأييد بالمعجزات والكرامات أخلق وأجدر بأن يدعى ويستغاث من هؤلاء المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟؟؟

هذا وقد وصف القرآن الكريم — وهو كلام الله تعالى — بالمجد فى قوله تعالى فى سورة قَ (قَ والقرآن المجيد) وقوله تعالى فى سورة البروج (٨٥ : ٢١ بل هو قرآن مجيد) ومجد القرآن الكريم فى إعجاز أساطين البلاغة من الجن والإنس عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وفى سمو أحكامه وعلو حقائقه ، وإخباره بالغيوب ، وتحقق ما أخبر به وفى هيمنته على الكتب السماوية ، وفى كثرة الخير والسعادة لمن اتبعه وسلك سبيله واعتصم به واهتدى بهداه . وفى أنه فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وفى أنه تنزيل من الحميد المجيد رب العالمين ، لا رب غيره ، ولا مأمول إلا خيره .

٤٣ — المتـــين

المتانة فى اللغة : الصلابة والشدة والقوة ، يقال : مَتُنَ الشيء متانة : فهو متين أى صلُب واشتد وقوى .

والمتن من الأرض : ما صلب وارتفع ، والمتن : الظهر ، وهو أصلب ما فى الإنسان وأشده وأقواه ، والمتنان : مكتنفا الصلب من العصب والعضل عن يمين وشمال ، وهما اللذان يشدان الظهر ويقويانه .

وإذا تتبعنا هذه المادة ومشتقاتها فى المعاجم اللغوية واستقصيناها أفضى بنا ذلك إلى الحكم بأنها تدل فى كل استعمالاتها على الصلابة والشدة والقوة . فإذا وصف بناء بالمتانة كان المعنى: أنه صلب لا تنال منه عاديات الأيام ولا يصدَعه كرّ الأعوام ، وإذا كانت نعتاً

لحيوان دلت على أنه قوى يثير الأرض ويسقى الحرث ، وينهض بأقدح الأثقال ، وإذا كانت صفة لإنسان ، فإن كانت فى جسمه أفادت أنه شديد الأسر ، مفتول الذراعين ، قوى العضل ، يقوم بأشق الأعمال ، وإذا كانت فى عقله دلت على أنه قوى العقل ، حصيف الرأى ، يجيد التدبير ، ويحسن التفكير ، ويعالج بالحكمة والحزم تصريف الأمور .

غير أن القوة فى كل هذه الحوادث محدودة ، فالبناء مهما تكن متانته يخضع لعوامل الهدم والتدمير ، ويستجيب لداعى الفناء .

والحيوان إذا واصل العمل أحس الأبن والكلال ، واعتراه الفتور والهزال ، وإن امتدت به الأيام على ذلك تحللت قواه ، واستسلم لعوامل الضعف والوهن .

والإنسان المتين العضل ، المستحصد العصب[1] ، الشديد الأركان ، القوى البنيان لابد أن يعتوره الضعف والشَّيْبة ، وتنال منه الشيخوخة والهرم ، فتخور قواه وتنحل عراه ، وإذا أطال العمل أو التفكير شعر بالملل والسآمة ، واحتاج إلى الراحة والجمام ؛ ليجدد القوى ، ويعوض ما فنى من خلايا بدنه .

ثم إن متانة البناء تعود إلى شدة تماسك عناصره التى يتألف منها ، ومتانة الحيوان والإنسان ترجع إلى ما يمنحها الغذاء من قوة ، وما يكسب العمل والرياضة أعصابهما وعضلاتهما من استحصاد واستحكام ، فإذا لم ينالا من الغذاء النصيب المفروض ولا من العمل والرياضة الحظ الموفور ضعفت مُتُنُهما ، وخارت قواهما .

هذا ، وأول درجات الاستطاعة القدرة ، فإذا زادت القدرة واشتدت فهى القوة ، والموصوف بها قوى ، فإذا زادت القوة وفاقت صارت متانة ، وسمى الموصوف بها متيناً .

وبعد ، فإذا تصورت جميع ماجلوت عليك من معنى المتانة فى الحوادث ، فانزع منها جميع نقائصها ، وأضف إليها ما يكملها ، ويسمو بها عن جميع شوائب النقص ، ويربأ بها عن مشابهة متانة المخلوقين تقف على معنى المتانة مسمى بهارب العزة ذوالقوة المتين سبحانه .

---

(١) فى القاموس : حبل مستحصد : شديد الفتل محكمه .

فمعنى اسمه تعالى « المتين » أنه القوى الذى لا يستعصى عليه فعل ، ولا يعيا بمراد ، ولا تلحقه فى أفعاله مشقة ولا كلفة ، ولا يناله فى تدبيره سأم ولا ملال ، ولا نصب ولا لغوب ، ولا يستمد قوته من غذاء ولا رياضة ، ولا تماسك عناصر . بل قوته ذاتية لا تكتسب من طعام ولا شراب ولا مزاولة عمل ، ولا ممارسة رياضة ، وليست لها غاية تقف عندها ، ولا نهاية تنتهى إليها ، ولا يعتريها تحلل ولا فناء ، ولا يلحقها ضعف ولا كلال ؛ لم يسبقها عجز ، ولا تكثر بعد قلة ، ولم تقو بعد ضعف ، ولم تنشأ تدرجاً ، ولم تختلف أمامها الأشياء .

هذا ومن مظاهر متانته سبحانه أنه خلق السموات فبناها سبعاً شِدَاداً ، ورفع سمكها فسوّاها طباقاً ، وزين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين .

وخلق الأرض ودحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق أنهارها ، وفجر بحارها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنبت فيها حباً وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غُلباً ؛ متاعاً للإنسان ، ورزقاً للحيوان .

ولكى تستطيع أن تقدر شيئاً من عظمة السموات تذكر أن الأرض التى تعمرها إذا قيست إلى الشمس وهى بعض الأجرام السماوية كانت جزءاً من مليون وثلاثمائة ألف منها : أى أن الشمس قدر الأرض مليون مرة وثلاثمائة ألف مرة . ثم انظر إلى قرص الشمس التى عرفت نسبتها إلى الأرض ، وقدر كم يشغل من فضاء السموات ، وحينئذ تدرك أنه بالقياس إلى السماء الدنيا على الرغم من ضخامته وعظامته — شىء ضئيل لا يكاد يذكر فى هذا الفضاء الفسيح الذى يظلك فى بلدك الذى تعيش فيه ، فكيف إذا قرنته بفضاء السماء الدنيا كلها وكيف إذا قرنته بالسموات جميعاً ؟ .

أفإن فكرت فى هذه المظاهر ، أفلست تجد نفسك مضطراً أن تهتف من أعماق صدرك قائلا : ما أخلق رب العزة أن يسمى « المتين » ! بعد أن شاهدت من مظاهر متانته ما تعيا الأقلام ، وتعجز الألسنة عن التعبير عن جلاله .

خلق ذو القوة المتين سبحانه هذا العالم بقدرته ودبره بحكمته ، ووضع له بمتانته نظاما حكيما لا يعتريه خلل ولا فساد ، ولا يلحقه وَهَن ولا اضطراب .

أدار الأرض حول نفسها أمام الشمس دورة ينشأ عنها الليل والنهار وجعل سرعتها فى هذه الدورة ألف ميل فى الساعة؛ فكان فى تحديد السرعة بهذا القدر كل الخير والصلاح للأرض ومن عليها وما عليها ، إذ بها كان طول اليوم أربعا وعشرين ساعة ، فلو كانت السرعة مائة ميل مثلا بدل ألف ميل ماذا كان يحدث ؟

كان يحدث أن طول اليوم يكون عشرة أمثال طوله الحالى: أى مائتين وأربعين ساعة يكون النهار فيها مائة وعشرين ساعة، والليل مائة وعشرين فى الجهات الاستوائية ، وفى فصل الربيع والخريف، فتصور ما يحدث لو كان طول النهار مائة وعشرين ساعة وطول الليل كذلك! ألا تجفف حرارة الشمس فى هذا النهار الطويل كل نبات على سطح الأرض ؟ ألا يقضى برد هذا الليل الطويل وجليده على كل ما تسثره [1] حرارة النهار من نبات ؟ وأنت خبير بأن النبات مادة الحياة للإنسان والحيوان ، ألا تفنى الحياة الحيوانية والنباتية فى عام واحد، إن لم تفن فى شهر واحد أو يوم واحد ؟

ألا تصير الأرض خرابا يبابا لا يخطر عليها إنسان ، ولا يدب على سطحها حيوان ؟

جعل المتين سبحانه الأرض تدور مرة حول الشمس فى عام واحد :أى فى بعض يوم وخمسة وستين وثلاثمائة يوم ، دورة تنشأ عنها الفصول الأربعة ، فتصور ما ينشأ من الفساد فى الأرض لو كانت دورتها أسرع من ذلك ، فقطعت شوطها فى أقل من العام، أو كانت أبطأ من ذلك فقطعته فى عامين أو ثلاثة مثلا .

أوجد بمتانته تعالى نظام المدّ والجَزْر فى البحار؛ لتتحرك مياهها بتأثير المد والجزر والتيارات البحرية فى جهاتها الأربع ، وينشأ عن حركتها من المنافع مالا يقدر قدره إلا العليم الحكيم سبحانه ، وجعل المد والجزر من آثار جذب القمر لكرة الأرض ،وجعل بُعد القمر عن الأرض

(١) تبقيه

٢٨٦ ألف ميل . فتصور ما يحدث من الضرر والفساد لو جعل القمر أقرب إلى الأرض ، ووضعه على بعد ٧٠ ألف ميل مثلا ! إذا لطغى الماء على اليابسة،وغمر كل شيء على سطح الأرض ومات الأحياء غرقى .

أفإذا تصورت ذلك وتدبرته ، أفلست تجد نفسك مضطراً أن تهتف بكل قوى نفسك قائلا : سبحانك يامتين ! ما أعظم متانتك ! وما أحقر كل موجود بجانب وجودك ! وما أضعف كل قوى أمام قوتك !؟

لقد علق سبحانه فى سماء دنيانا هذه سراجاً وهاجاً ، يضيئها ويدفئها ، وجعل حرارة الشمس عند سطحها ٦٧٠٠° ، ووضع الأرض بحيث لا يصل إليها من حرارتها إلا القدر الصالح لنمو النبات والحيوان وتصريف الرياح، و بَخْر ما يلزم مياه العيالم[1] الزواخر لتكوين السحاب المسخر ، الذى يخرج الودق [2] من خلاله ، فتحيا به الأرض بعد موتها،ولو زادت قوة الإشعاع على هذا القدر لأحرقت الأرض وما عليها ، ولو نقصت لقضى البرد على كل حى. أليس فى هذا كله آية على أن الله تعالى متين فى علمه ، متين فى قدرته ، متين فى حكمته ؟

حفظ سبحانه بتدبيره المتين هذا النظام ، ورعاه ملايين السنين ، لم يدب فيه أدنى خلل ، ولم يعتوره أقل اضطراب ، وما زال، ولن يزال حافظاً له بقدرته ، راعياً له بحكمته ،لم يدركه ملل ولا سأم ، ولم يأخذه نصب ولا وصب . وصدق سبحانه إذ يقول : (٥٠ : ٣٨ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مَسَّنا من لُغوب) .

رزق بمتانته كل كائن حى على سطح الأرض منذ دبت الحياة على سطح الأرض ، ولم يزل يرزق هذه الأحياء ، وسيرزقها إلى يوم الخروج ، لم يَعْىَ بتدبير الأرزاق للأحياء جميعاً ، ومن أصدق من الله قيلا إذ يقول : (٥١ : ٥٧ ، ٥٨ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

يولد الإنسان ضعيفاً لا يقوى على شيء إلا التقام ثدى أمه ، ثم يأخذ فى القوة شيئاً

---

(١) البحار (٢) المطر

فشيئاً ، وقليلا قليلا ، حتى يبلغ أشده ويستوى ، ثم يأخذ فى الضعف والاضمحلال حتى يوافيه أجله .

أما رب العزة فهو القوى المتين فى الأزل والأبد وما بينهما ،لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، خلق السموات والأرض فى الأزل،وسيطوى السماء كطىّ السجل للكتب، ويبدل الأرض غير الأرض فى الأبد، ويعيد الخلق كما بدأه ، وينسف الجبال على ضخامتها ومتانتها (٢٠:١٠٥-١٠٧ ويسألونك عن الجبال ؟ فقل ينسفها ربى نسفاً . فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عِوجاً ولا أمْتاً) .

هذا وليست متانة القوى المتين سبحانه كمتانة المخلوقين بشدة أسر ، ولا بقوة عضل ، ولا باستحصاد عصب ، وليست ثمرة غذاء ولا رياضة ، بل هى ذاتية لا تستند إلى سبب ولا تعتمد على مؤثر .

يُملِى للظالمين ، ويمكن لهم فى الأرض حتى استمرأوا مراعى الظلم ، واستباحوا الحرمات ، واستهانوا بكل مقدس : أخذهم بمتانته أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى : (٧:٤٥ وأملى لهم إن كيدى متين) .

هذا ولو رحت أسطر جميع مظاهر متانته تعالى لما اتسع لذلك عمرى،ولا أعمار الأجيال من بعدى ، وما وسعته ما أخرجت المصانع من الأوراق ؛ فإن مظاهر متانته تعالى بقدر كلماته (٣١ : ٢٧ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر : ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم .

أفلا يأخذك العجب بعد هذا : أن ترى إنساناً يترك ذا القوة المتين سبحانه؛ليدعو من دونه مخلوقاً عاجزاً ضعيفاً ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ؟ .

أليس من العجب العاجب : أن ترى الناس يفتتنون فى كل عام مرة أو مرتين ، فيسيرون فى مواكب حافلة تتقدمها الطبول والمزامير ، ويحدى فيها بالظعائن فى الأحداج إلى قبور موتى قد قضوا نحبهم ، ولم يستطيعوا أن يردوا الموت ولا المرض عن أنفسهم - يلتمسون منهم

قضاء الحاجات ، أو جلب المنافع أو دفع المضار ،أو شفاء المرضى، أو كسب القضايا ،أوهبة الذرية أو حفظ الدور ، أو البركة فى الزروع، أو النقمة من الأعداء ،أو غير ذلك من ألوان المطالب وشتى الرغائب؟(٤٨:١٦ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) .

وإذا استطعنا أن نبسط عذر العامة ، وأن نقول هؤلاء قوم جاهلون لم يجدوا من يرشدهم ويهديهم السبيل ، فهم على آثار أسلافهم مقتدون ، ولو وجدوا معلماً لتعلموا ، ولو صادفوا هادياً لاهتدوا ـ فما عذر العالم الذى إذا مسته نعمة هرع إلى أجداث الموتى،ووقف عندها خاشعا خاضعا ذليلا ، يشكر للرفات السحيق نعمة لم يكن له فيها يد ، ويحمد له صنيعة لم يكن له إلى اصطناعها من سبيل (٢٤ : ٤٠ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له نور) .

٤٤ — الرازق ـ ٤٥ — الرزاق

الرزق ماينتفع به ، ويطلق تارة على العطاء الجارى سواء أكان فى الدنيا كأعطية الجند ومرتبات المستخدمين ، وكالرزق الذى يجريه الله تعالى على سائر خلقه ، كما قال تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها الله ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) أم كان فى الآخرة كالرزق الذى يجريه الله سبحانه على المؤمنين فى دار النعيم ، كما قال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشية) وتارة على النصيب كقولك : لما مات المورث أخذ كل من الورثة رزقه ، أى حظه ونصيبه فى الميراث ، وكقوله تعالى (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن) أى حظه ونصيبه من الرزق المقسوم،وتارة على مايصل إلى الجوف ويتقوى به ، كقوله تعالى : (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) وقوله تعالى (فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف) .

ويطلق الرزق على المطر لأنه سببه ، قال تعالى : (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيى به الأرض بعد موتها) وقال تعالى (وفى السماء رزقكم) .

ورزقه الله تعالى ، وصل إليه رزقا ، ويسند هذا الفعل إلى الرازق سبحانه باعتبار

أن خالق الأرزاق ومسخرها ومعطيها الخلائق وموصلها إليهم ، ويسند إلى الإنسان باعتبار أنه الله تعالى أجرى الرزق على يديه ، قال تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) . وقال تعالى : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه،وقولوا لهم قولا معروفا)

والرازق معطى الرزق ، فيقال لرب العزة سبحانه ، ويقال للإنسان . أما الرزاق فهو خالق الرزق ومعطيه والمسبب له ، ولا يقال إلا لرب العزة ، أهل الثناء والمجد ذو الجلال والإكرام .

الرّزْق أبرز سمات الربوبية

والرّزق بعد الخلق أبرز سمات الربوبية ، من أجل ذلك نجد القرآن الكريم حافلا بالآيات التى تنادى بأن الله تعالى هو منزل الأرزاق وميسر أسبابها ، ليخصه الناس بالعبادة ويفردوه بالدعاء ، إذلا يسوغ عقلا أن يعبد الناس إلا من يملك رزقهم ، قال تعالى : (وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم،فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون)

ولا جرم أن إنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات من الأرض رزقا للعباد،لا يقدر عليهما إلا الله ، وبمقتضى ذلك يوجب العقل أن لا يعبد إلا هو .

وقال سبحانه : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا) .

وقال جل شأنه : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) فدل سبحانه على أنه مسخر الأرزاق لجميع الأحياء ، وعلى أن الأحياء لو تركت لنفسها ولم تشملها عناية الله بتسخير رزقها لهلكت جوعا وظمأ ولكن الرزاق سبحانه يسر لها أرزاقها وهداها سبلها .

انظر كيف أرسل سبحانه الأرزاق إلى الأجنة فى ظلمات الأرحام بما أجراه فى شرايينها من دماء أمهاتها .

وأنظر كيف جعل رزق الطفل الوليد فى ثدى أمه ، وهداه إلى ارتضاعه لبناً خالصاً سائغا ، فيه غذاؤه ، وبه حياته ونماؤه .

وانظر كيف هدى صغار الحيوان إلى ارتضاع أطباء أمهاتها لتحصل على رزقها الذى به تعيش وتحيا .

وانظر كيف جعل الرزق لفرخ الحمام فى حواصل والديه وسخرهما لزقزقته ، وهداه إلى تناوله بمنقاره الصغير من بين مناقيرهما .

ومن المشاهد المؤثرة الباعثة إلى التوسم والتفكير أنى رأيت فرخ حمام ماتت أمه ، سخر الله أباه لزقزقته ، فكان يغنى غناء الأم، وكان الفرخ إذا أحس ألم الجوع جرى وراء أبيه محاولا أنه يضع منقاره بين شقى منقار أبيه ، فسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وقال سبحانه : (الله الذى خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون) فوجه المكلفين إلى التأمل واستعمال العقل ليهتدى إلى إنه لا خالق ولا رازق ولا محيى ولا مميت إلا الله ، حتى إذا ثبت لديهم ذلك بالدليل العقلى ، ودليل المشاهدة الحسى القطعى ، اختصوه سبحانه بالعبادة ، وانصرفوا عمن يزعمونهم شركاء لأنهم لا يملكون خلقاً ولا رزقاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً . وقال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ .

يخاطب سبحانه الجنس البشرى كله بأمره أن يذكر نعمة الله عليه فى خلقه ورزقه ، ويدعوه إلى أن يفكر وينظر : هل فى الوجود خالق غير الله يسر له رزقه من السماء بإنزال الغيث ، ومن الأرض بإخراج النبات ، فإذا نظر نظراً صحيحاً ، وفكر تفكيراً سليما ، فلا جرم أن نظره وتفكيره سيدفعانه إلى أن يقر بهذه الحقيقة الأزلية الأبدية ، وهى : أنه لا إله إلا الله ، فكيف ينصرف الإنسان عن عبادته إلى عبادة المخلوقين الذين لا يملكون خلقاً ، ولا يستطيعون رزقاً .

وقال جل شأنه : (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) فدل سبحانه بذلك على أن أبرز سمات الربوبية بعد الخلق والتصوير تيسير الرزق للمخلوقين ليربيهم به ويحفظ حياتهم ، وعلى أن الذى يفعل ذلك هو الرب الحق الجدير بعبادة المخلوقين ودعائهم وأن الذى لا يفعله ليس من الربوبية فى ظل ولا فىء ، ولا من الألوهية فى شىء .

وقال تعالى : (أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ، بل لجوا فى عتو ونفور) فبين سبحانه أنه لو أمسك رزقه عن خلقه لهلكوا ، لأنهم لا يعيشون ولا يحيون إلا بما يسوقه إليهم من رزق ، وأنهم لا يجدون رازقاً سواه يدبر لهم أرزاقهم . ولكن المشركين لغفلتهم وجمودهم يلجون فى عتوهم ، ويتمادون فى نفورهم ، ولا يصيخون لداعى الحق ، ولا يلبون دعوة الرشاد .

ماذا يكون شأن الأحياء لو حبس الرزاق الغيث عن الأرض ، فجفت أنهارها وغاضت عيونها ، أو أمر الأرض فأمسكت ما تبعثه إلى النبات من ماء وغذاء فزوت رياضها وأصبح هشيما تذروه الرياح ؟ .

وقال تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) .

فهو سبحانه ، ينعى عليهم بأنهم يؤمنون بآلهة باطلة صنعوها بأيديهم أو خلقها الله كما خلقهم ، وهى لا تملك لكم رزقاً ولا تستطيع ضراً ولا نفعاً ، ويشركون بالله الذى هيأ لهم أسباب راحتهم ورزقهم من الطيبات .

وقال تعالى : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون) .

أراد سبحانه أن يدعو الناس إلى عبادته وحده وإلى خلع الأنداد والشركاء ، وأن يقنعهم بأن المخلوق الضعيف العاجز الفقير المحتاج لا يمكن أن يشبه الخالق القوى القادر

الغنى الذى بيده ملكوت كل شىء ، فضرب لهم مثلا من أنفسهم ليتذكروا ويعتبروا ويصلوا إلى الحقيقة التى لا تقبل الجدل ، ولا تحتمل المراء ، وهى وحدانيته تعالى — ضرب سبحانه المثل برجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، والآخر قد رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوى هذان الرجلان ؟ .

لا جرم أن أدنى تأمل فى هذا المثل يدفع إلى الإجابة بالنفى ، وبأن الفقير المحدود لا يساوى الغنى المجدود ، ونخرج عن هذا المثل بنتيجة صحيحة ، وهى أنه إذا كان المخلوق الفقير لا يساوى المخلوق الغنى ، فكيف يساوى الخالق الرازق الذى بيده ملكوت كل شىء ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فيدفعهم جهلهم إلى دعاء المخلوق العاجز الذى صار رفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزاً .

وقال تبارك اسمه (ضرب لكم مثلًا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) .

أى إذا كان العبد لا يشارك سيده فى ملكه ولا يملك أن يحاسبه عليه فكيف يشارك المخلوقون ربهم الذى خلقهم ورزقهم ، والذى لا يملك معه أحد مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؟ .

وقصارى القول أنّ الإله الذى يرزق هو الجدير بالعبادة والدعاء ، ودعاء غيره سفه وحمق وضلال مبين .

الرازق — الرزاق

وَمْضَة أخرى

إنما يُعبد من يَرزق

لا يستحق العبادة إلا من يملك الرزق خلقاً وإيجاداً وتقديراً وتيسيراً ، فعبادة غير الرزاق سفاهة وضلالة .

كان العرب فى الجاهلية يعتقدون أن الله هو الذى يرزقهم من السماء والأرض ، ولكن سفاهة السفهاء وجهل الجاهلين كانا يطوعان لهم أن يوجهوا ألواناً من العبادة إلى أسماء سموها هم وآباؤهم ما نزل الله بها من سلطان .

وقد أرشد الله تعالى ورسوله الكريم أن يسلك فى هدايتهم طريق الإقناع بالدليل العقلى والبرهان الحسى فأمره أن يسألهم عمن يرزقهم من السموات والأرض وأخبره أنهم سيقرون بأن الذى يملك الرزق هو الله ليرتب على هذا الإقرار هذه النتيجة المقنعة لأولى الأبصار وهى أنهم ماداموا يعتقدون أن الرازق هو الله فيجب عقلا أن يكون الله هو المعبود دون غيره لأنه هو الرب الحق .

قال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون : الله ! فقل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ! فماذا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون ؟) .

وقال تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) .

وقال جل شأنه . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه . واشكروا له . إليه ترجعون) .

وصفوة القول أن عبادة غير الرزاق سفه وحمق بل كفران وضلال بعيد .

يرزقكم ومن تعولون

جهلت طائفة من صعاليك العرب أسرار القدرة الإلهية فى تيسير الأرزاق ، وحسبت أن الفقر من لوازم البنات اللاتى لا يشاركن فى الغارة ، ولا يدفعن المغير . ولا يغتصبن الأموال من أصحابها بحد الصارم البتار ، وشبا اللدن الخطار . فكانوا يئدون البنات ، ويغيبونهن فى ظلمات القبور وهن على قيد الحياة ، دفعاً للفقر الذى يصحبهن كما يزعمون ،

فجاء القرآن الكريم ناهياً عن هذه الرذيلة الدامية ومخبراً أن الأرزاق بيد الخلاق سبحانه فكما أنه يرزق آباء البنات وأمهاتهن كذلك يرزقهن .

قال تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) أى لا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر الحال بكم فإن الله الذى بيده خزائن السموات والأرض ضمن لكم رزقكم الذى يصون حياتكم ورزقهم الذى يغذوهم وينميهم ويجعلهم يبلغون مبلغ الرجال والنساء

وقال تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) .

أى لا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر فى المستقبل فإن الذى يرزق فى الحاضر هو الذى يرزق فى المستقبل ، وإنهم سيصيرون رجالا أقوياء أشداء يسعون فى سبيل الحصول على الرزق ، وسيرسل إليهم الله الأرزاق بسعيهم ، وسيغدق عليهم من الخير مايعودون به عليكم إذا بلغتم الكبر وعجزتم عن الكسب وقعدتم عن العمل .

ويبدو أنهم لم يكونوا يقتصرون على قتل البنات بل كانوا يقتلون الذكور أيضاً بدليل لفظ الآية الكريمة إذ استعمل فيها ضمير جمع المذكر .

افتراء فى تحريم الأرزاق

أباح الرزاق سبحانه لعباده أن يستمتعوا بطيبات ما رزقهم كما قال تعالى : ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون) .

وقال تعالى : (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) .

أباح الله تعالى للإنسان أن يستمتع بالطيبات من الرزق ولم يحرم عليه من الحيوان والنبات إلا ما فيه مضرة بجسمه أو بعقله أو بدينه وعقيدته ، ولكن فريقاً من السفهاء سول لهم الشيطان أن يحرموا على أنفسهم ما رزقهم الله ، وكان أول من ابتدع هذه البدعة فى الجاهلية وحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة عمرو بن عامر الخزاعى فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عمرو ابن عامر الخزاعى يجر قصبة فى النار كان أول من سيب السوائب .

قال تعالى ناعياً على هؤلاء المبتدعين بدعهم وضلالاتهم : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

وقال تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) .

وقال تعالى : (قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا . قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) .

وقال تعالى: (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) .

ومن عجب أن الأمة التي أنزل الله على نبيها هذا الكتاب الكريم المتضمن لهذه الآيات البينات وجعلها خير أمة أخرجت للناس ـ سلك كثير منها مسالك الجاهلية الأولى ، واتبعوا سننها ، فأصبحوا ينذرون الجداء والخراف والثيرة للطاغوت من البدوى والدسوقى والقنائى وأمثالهم ويحرمونها على أنفسهم ويهلون بها لغير الله معتقدين أنهم إن لم يفعلوا فتكت الطاغوت بأبنائهم أو بأنفسهم أو بأنعامهم ، أو بزراعتهم أو بتجارتهم أو سلطت عليهم سيف الانتقام . وتلك هى عقيدة الجاهلية الأولى ، وذلك هو دين المشركين ، والإسلام الحق من هذا براء ، والمسلمون الصادقون برآء مما يدين به المشركون .

وقليل من الفكر يهدى إلى أن هذه الطواغيت التي يعبدونها من دون الله لم تنزل لهم ولا لأنعامهم الغيث من السماء ، ولم تنبت لهم ولا لأنعامهم النبات من الأرض ، ولكن الجهل والجمود والتعصب والعناد ، والرين على القلوب ، والختم على الأسماع والغشاوة على الأبصار . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

الرازق — الرزاق

« ومضة أخرى »

ينزل الرزق بقدر

والرزاق سبحانه مع أن له خزائن السموات والأرض . وبيده أسباب الرزق كلها لم يبسط الرزق لعباده جميعاً حتى لا يطغوا ولا يبغوا فى الأرض بغير الحق . ولـكنه سبحانه أنزله بقدر وبسطه لفريق من عباده ، وقدره على فريق لتتم أحكام النظام الذى قدره لتدبير أمر الحياة الإنسانية على هذه الأرض . قال تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولـكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) وقال تعالى : (إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) . وقال عز من قائل : والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملـكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون) .

ضمن الرزاق رزق كل حى

وقد ضمن الرزاق سبحانه الرزق لـكل كائن حى . فما شق فماً إلا أجرى له رزقاً ، ولم يخلق مخلوقاً ليقضى على الموت جوعاً . قال تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) .

وقال تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) فقد بارك سبحانه فى الأرض . وقدر فيها أقوات أهلها وأرزاقهم فكل كائن دبت الحياة فى جسمه واحد فى الأرض رزقه إذا سعى إليه وجد فى الحصول عليه . وبذلك تدرك ضلال أولئك الذين ينادون بتحديد النسل زاعمين أن موارد الرزق لا تتسع

للناس إذا تضاعف عددهم ، وذلك من أفن الرأى ، وفساد الاعتقاد فى علم الله تعالى وقدرته وحكمته ، فإن الله تعالى حين خلق الأرض قدر فيها قوتاً لكل حى يدب على ظهرها ، ولكنه ـ جلت حكمته ـ وضع أسباباً تتوقف الأرزاق عليها ، ووسائل تبتغى إليها . فمن ابتغى الوسيلة إلى الرزق ظفر به ، ومن اتخذ الأسباب إلى القوت كان منه على طرف الثمام قال تعالى : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) وقال تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . فانظر كيف قرن الأكل من رزق الله بالمشى فى مناكب الأرض . وكيف قرن الابتغاء من فضله تعالى بالانتشار فيها . وها نحن أولاء نرى بعض الأمم حين ضاقت غلات الأرض الخصبة فى ممالكها عن أن تفى بحاجتها عمدت إلى الصحارى والجبال فأجرت الماء إليها واستنبتتها فجاءت بأطيب الثمرات وأجود الغلات وزادت على حاجة أهلها وصدق الله إذ يقول فى كتابه الكريم (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) .

ولكنه الاستخذاء إلى الكسل ، والركون إلى العجز وهما خليقان بأن يوصدا الأبواب ويقطعا الأسباب .

يرزق بعضهم من بعض

اقتضت حكمة الرزاق سبحانه أن يبسط الرزق لفريق من عباده ، ويقدره على فريق ولكنه تعالى طلب إلى من بسط لهم رزقهم ألا يضنوا على المحرومين ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله . وأن يمنحوا الفقراء والمساكين عفو أموالهم . قال تعالى . (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) .

وقد أثنى سبحانه على من استجابوا له وأنفقوا مما رزقهم الله فقال فى وصف المتقين : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) . وقال تعالى : (إن الذين

يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور) .

كما وعد سبحانه المنفقين بأن يخلف عليهم ما أنفقوا فقال تعالى : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) .

ونعى سبحانه مع الموسرين الأشحة الذين يبخلون برزق الله على المعسرين من عباده ويجادلون من ينبههم إلى فضيلة السخاء جدالا يسجل عليهم رذيلة الشح ويسمهم بميسمه فقال تعالى (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين) .

أجل لو شاء ربنا لأطعم المحرومين والمقدورة عليهم أرزاقهم بل لو شاء لوضع غنى الأغنياء ويسار الموسرين فى أيدى الفقراء ولكنه تعالى لحكمة سامية حرم المحرومين وأمر الواجدين بعونهم ليبلوهم أيهم يسارع فى طاعته . ويستجيب لأمره ، وليوثق أواصر الود بين الأغنياء والفقراء . وليس من يدعو إلى الحق والخير والبذل فى سبيل الله هو الضال ولكن الضال البين الضلالة هو الذى لا يستجيب لمن يدعوه حياته وخيره وسعادته ، ويعرض عن سبيل الفضيلة ويتأى بجانبه .

جعل الله رزق المحروم حقاً فى مال الغنى حتى إنه لم يبح له عند الاضطرار أكل الميتة مادام واجداً من حوله من له حق مطالبته فإن ضن عليه اعتبر من الفئة الباغية وأبيح له قتاله .

قال الإمام الجليل ابن حزم فى الجزء السادس من كتابه المحلى صفحة ١٥٩ مايأتى بالحرف : (ولا يحل لمسلم أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى ، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع . فإذا كان ذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فإن قتل فعلى قاتله القود ، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه منع حقاً وهو طائفة باغية . قال تعالى: « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانعى الزكاة وبالله التوفيق .) .

الرازق — الرزاق

« الخاتمـــة »

يرزق من يشاء بغير حساب

والرزاق سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، وقد جعل سبحانه التقوى من أسباب هذا الرزق فمن اتقى الله وسعى فى كسب الحلال ، وزهد فى الحرام ، هيأ الله تعالى من أسباب الرزق مالا ينتظر ولا يقدر . قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب) .

وقد يعتمد المؤمن على الرزاق سبحانه ، وينهض بعمل من الأعمال العامة ، يشعر بأنه من فروض الكفاية ، ويرى أن غيره لايقوم به ، ويحس بأن العناية الإلهية كأنها ندبته له ، ويعتقد أنه ضرورى لازم لنفع المجتمع الإنسانى ، ولكنه لايدر رزقا على من يقصر همته عليه ، ولا يجر نفعاً مادياً إليه ، فيسوق الله إليه الرزق لايقدر ولا ينتظر .

لما حبست مريم المصطفاة المطهرة نفسها على خدمة المحراب ، بعث الله تعالى إليهـا رزقا حسنا على أيدى الكرام الأسخياء من عباده المؤمنين ، بحيث كان محرابها لايخلو من رزق الله . قال تعالى : (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسنا وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يامريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

وقد يقع مؤمن فى ضائقة شديدة ، وتنقطع به الأسباب ، ولا يجد عوناً من الناس فيدعو الله تعالى دعاء المضطر ، فيلطف الله تعالى ويخرجه من هذه الضائقة . قال تعالى : (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) .

وقليل من التدبر يقنع أولى الألباب ، أن الرزق بغير حساب ، لا يكون لجميع الأحياء ولكن لمن يشاء الله تعالى أن يرزقهم . وهم الذين يعلم أن قوة إيمانهم وتقواهم تدفعهم إلى

النهوض بصالحة تضفى ظلال نفعها على المؤمنين . ألم يعد الرزاق سبحانه المؤمنين أن يخلف لهم ما أنفقوا فى سبيله بقوله الكريم : (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وقوله تعالى : (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) والإخلاف والإضعاف : من الأرزاق التى يسوقها الرزاق سبحانه إلى المؤمنين من حيث لا يحتسبون .

لقد أسكن إبراهيم عليه السلام من ذريته بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ، وهو على يقين من أن الله تعالى لن يضيعهم ، وأنه سيبعث إليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون . على الرغم من إعواز الماء ، وجدوبة المكان ، وقد دعا عليه السلام الرزاق سبحانه وهو موقن بالإجابة ، فقال ما حكى الله تعالى عنه : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) . وقد استجاب الله له ، وفجر ينبوعاً من الصخر ليرتوى منه إسماعيل وأمه ، ومن يرده من الظامئين ، وقد رفع إبراهيم وإسماعيل عن كثب منه قواعد البيت الحرام الذى هوت إليه الأفئدة من كل فج عميق .

أرزاق معنوية

وكما أن الرزاق سبحانه يهب عباده أرزاقا حسية مادية ، كذلك يهبهم أرزاقا معنوية قد تكون من أسباب الأرزاق المادية ، كالذكاء وحدة العقل وقوة الفكر وصحة الحكم ، وحسن الخلق ، وقوة الإرادة ، والصبر والمثابرة ، والنفوذ الشخصى والجاه ورفعة المكانة والتوفيق للخيرات ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، وعلى رأسها جميعاً النبوة والرسالة . وهى خير أرزاق الدنيا جميعاً . قال تعالى مخاطباً نبيه الأمين ورسوله الكريم : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى) .

يَرزُق ولا يُرزَق

والرزاق سبحانه ضمن أرزاق خلقه جميعاً ولا ينتظر رزقا من أحد . وما خلق الخلق ابتغاء أن يرزقوه ، فهو سبحانه غنى عن العالمين ، وإنما خلقهم ليرفع بعبادته أقدارهم . ويهيئهم بها لتبوء دار الكرامة . قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . وقال تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقا ، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) .

رزق الآخرة

وكما يرزق الرزاق سبحانه عباده فى الدنيا ، كذلك يرزق المؤمنين فى الآخرة رزقا هو خير وأبقى من رزق الدنيا . ومهما نحاول أن تصور رزق الآخرة أو تصفه أو تقربه إلى الأذهان ، فلست بمستطيع إلى ذلك سبيلا . ولن يستطيع أن يثبت رزق الآخرة إلا من رآه أو ذاقه أو شمه أو لمسه أو استمتع به ، لأنه مما لم تر الأعين ولم تسمع الآذان ، ولا خطر على القلوب . وللمؤمنين عند ربهم فى جنات النعيم ، ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

ولا يسبقن إلى الأوهام أن رزق الآخرة كرزق الدنيا ، يعتريه التحلل أو الفساد ، أو يصيبه النقص أو النفاد ، أو يجد المؤمنون مشقة فى الحصول عليه أو نصباً فى الظفر به : كلا بل هو ميسور لهم كلما أرادوا ، دانٍ منهم حيث كانوا .

قال تعالى : (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

وقال جل شأنه : (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) .

وقال عز من قائل : (مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل

مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) .

وكل هـــذا الرزق الكريم محرم على الكافرين ، لا يذوقون طعمـه ولا يجدون ريحه .

قال تعالى : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ، أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين) .

نسأل الله الرزاق ذا القوة المتين ، أن يرزقنا فى الدنيا رزقا واسعـاً حلالا ، يصون كرامتنا ولا يطغينا ، ويوقر عزتنا ولا يردينا ، ويكون سبباً للظفر بالرزق الكريم فى جنات النعيم آمين .

٤٦ — الوكيل

يقال : وكل بالله ، وتوكل على الله ، أى استسلم إليه ، والتوكل : أن تعتمد على غيرك ، وتجعله نائباً عنك فى العناية بشئونك وتقول : وكلت أمرى إلى الله ، أى ألجأته إليه ، واعتمدت فيه عليه . وتقول : وكّلت الله فى أمرى (بالتشديد) أى استكفيته أمرى ثقة بقدرته عليه ، وعجزاً عن القيام به بنفسى .

ومن ذلك يكون معنى « الوكيل » الذى يشتغل بأمر الموكول إليه . . وصيغة فعيل فيه بمعنى مفعول . أى الذى وكل إليه الأمر .

فإذا كان إسماً من أسمائه تعالى الحسنى كان معناه : من تُوكّل إلى علمه وقدرته وحكمته أمور الخلق ، وشئون العباد التى يعجزون عن القيام بها بأنفسهم ، والنهوض بها بما منحوا من قوى محدودة الأثر . فيتوكل لهم بها ويتولاها .

وقد وكل سبحانه إلى نفسه أمر الخلق ، فخلق السموات والأرض وما بينهما بالحق وتوكل بذلك فأتى به على أبدع نظام وأتم إحكام .

عرفنا ذلك فى عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه ، وقسنا عليه مالم نعرف من العوالم التى

لا علم لنا بها ، فقد أراد سبحانه أن يخلق على الأرض كائنات حية لا تعيش إلا بالهواء والماء ، فتوكل لها من قبل خلقها بالهواء والماء ، وجعل الهواء محيطاً بالكرة الأرضية إلى ارتفاع بعيد ، وجعل الماء يغشى نحو ثلاثة أرباع هذه البسيطة ، وجعله ملحاً حتى لا يأسن بالركود فى بعض الأماكن أو بما يقذف فيه من مواد قابلة للفساد . ثم توكل بتنقيته من الملح ، فدبر ذلك تدبيراً عجباً يشهد بعظيم القدرة وإحاطة العلم وبالغ الحكمة ، فجعل الشمس ترسل أشعتها إلى هذا الفضاء الفسيح المغمور بالماء الملح ، فإذا لامسته الأشعة الحارة سخن وتحلل وصعد فيه البخار تاركا الملح وراءه ، وارتفع إلى طباق الجو العالية ، فتجمع وتراكم وكون سحاباً ثقالا تسوقه الرياح إلى الأرض الجرز ، فإذا برد تكاثف وانحدر غيثاً ثجاجاً تجرى به الأنهار ، أو يسلك ينابيع فى الأرض لتستمد منه الكائنات الحية قوام عيشها ومادة حياتها .

وتوكل الوكيل سبحانه بأن يجعل لأجسام الكائنات الحية أجهزة محكمة ، كل جهاز يؤدى أمانة خاصة أو تمن عليها ، وأعضاء تامة ينهض كل منها بعمل لازم لحياة الجسم لاغنى له عنه كالجهاز العصبى فى الحيوان وما يتبعه من الحواس والمشاعر ، والجهاز الهضمى من الأسنان واللسان وغدد اللعاب والبلعوم والمرىء ، والمعدة والأمعاء وما إليها . وجهاز الدورة الدموية من القلب والشرايين والأوردة والشعيرات ، والجهاز التنفسى من الحنجرة والقصبة الهوائية والشعب . والرئتين . والجهاز التناسلى فى الذكر والأنثى مع عجيب أمره وإحكام تكوينه . والجهاز الإخراجى مع حكيم وضعه ودقيق تركيبه من الكليتين والحالبين والمثانة وما يتصل بها من جهة . والشرج وما يتصل به من جهة أخرى .

ولو رحت أصف أعمال هذه الأعضاء ، ووظائف هذه الأجهزة لضاق النطاق ، وما وسعت الأوراق .

ولقد توكل الوكيل سبحانه بإيجاد هذه الأعضاء الضرورية لحياة الإنسان والحيوان

والنبات . ولو أن الإنسان حاول أن يوجد لنفسه أقل أعضائه شأناً وأضعفها أثراً لتبين عجزه الواضح وجهله الفاضح ، ولقد تعطب بعض الأعضاء ، فلا يستطيع صاحبها أن يعوضها ولو ملك كنوز قارون ، ولا يمكن أن يردها عليه طب ولا طبيب .

توكل الوكيل سبحانه بالرزق للأحياء جميعاً من العاقل وغير العاقل ، من المؤمن والكافر ، كما توكل بحفظ حياتهم ، ولو وكلهم إلى أنفسهم طرفة عين لهلكوا .

يغفل أكثر الناس عن إدراك هذه الحقائق الأزلية الخالدة ويسيرون فى طريق الحياة غافلين لاهين لا يلقون إليها بالا ، حتى إذا مسهم الضر نبههم الألم من غفلتهم ، وردهم إلى ربهم الوكيل يكلون إلى قدرته ورحمته وحكمته ما عجزوا عنه من دفع البلاء عن أنفسهم (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) وما الدعاء إلا ثمرة اليقين بأن لهم رباً قادراً رحيما يكلون إليه ماعجزوا عن تدبيره بأنفسهم ، ويتوكلون عليه فيما أعجزهم أمره ، وأعيتهم الحيلة فيه .

والإنسان مهما بلغ من القوة والعقل والذكاء والعلم والكياسة وحسن التدبير — عاجز عن إدراك ما يخفى عليه من أمور الغيب التى استأثر بعلمها علام الغيوب سبحانه لا يدرى كيف يقدر الله الأرزاق . ولا كيف يسوق الخير ، ولا كيف يدفع الشر ، ولا كيف يبنى النصر .

وقد منحه سبحانه من القوى ما يستطيع به أن يدبر الأمور الظاهرة التى تبلغها مداركه ، وتناولها قوته ، أما ماوراء ذلك مما لا تناله قوى البشر ، ولا تبلغه مداركهم فعليه أن يكله إلى الوكيل سبحانه ليجريه بعلمه وقدرته وحكمته ورحمته .

من أجل ذلك يأمر الوكيل سبحانه أحب خلقه إليه ، وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتخذه وكيلا يتوكل له بين أمور الرسالة وهداية الناس ودفع أذاهم . ونشر الدعوة وتنحية العوائق من طريقها بما يعجز عنه صلى الله

عليه وسلم بقواه البشرية التى منحه الله تعالى إياها . قال تعالى: (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ٩ : ٧٣) .

ولما أكثر المنافقون من الدس والكيد والرياء أمره الوكيل سبحانه أن يتوكل عليه ليكفيه من أمرهم ، ويدفع عنه من أذاهم مالا يقدر على استكفائه ورفعه بنفسه. قال تعالى: (ويقولون : طاعة ، فإذا برزوا من عندك بيت طائفه منهم غير الذى تقول . والله يكتب ما يبيتون . فأعرض عنهم وتوكل على الله . وكفى بالله وكيلا ٨١ : ٤) .

ولما أرادت قريش الهجوم على المدينة لتنتقم من المسلمين وتثأر لقتلى بدر ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يعتصم بالمدينة ولا يخرج إليهم ، وحبب إليه الشباب الذين لم يشهدوا بدراً أن يخرج ليخرجوا معه ويظفروا بشرف الجهاد — دخل بيته ليتأهب للخروج فثلاثوا ، وقال بعضهم لبعض : أكرهتم الرسول على مالا يحب ، فلما خرج متأهباً مستعداً قد لبس لامته وشك فى سلاحه أرادوا أن يثنوه عن عزمه . فأمره الله تعالى أن يمضى فى سبيله وأن يتوكل على ربه . قال تعالى : (فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين ١٥٩ : ٣) .

وقد أخبر الوكيل سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام أن مايخفى عليه وعلى الناس من أمور الغيب مرده إلى الله سبحانه ، وأن الأمور كلها مرجعها إليه وحده ، فما أعيا الرسول من أمر ، وما أعجزه من شىء فليكله إلى الله تعالى ، وليصرف عن نفسه همه ليفرغ لعبادة ربه قال تعالى : (ولله غيب السموات والأرض . وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه. وما ربك بغافل عما تعملون ١٢٣ : ١١) .

ولما اشتد عنت المشركين وتَزْنِيئُهم [1] على النبى صلى الله عليه وسلم وتضييقهم إياه بالتضرع إلى الأصنام فى حضرته ، وطلب عونها بمشهد منه عزاه ربه عما يلقى من ذلك، وأمره أن يتوكل عليه وحده إذا توكل هؤلاء إلى هذه الأحجار التى تعوزها الحياة قال

(١) تضييقهم

تعالى : ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ** وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا ٥٦ قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ٥٧ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ٥٨ : ٢٥) .

ولما أمره جل ثناؤه إن ينذر عشيرته الأقربين ، وعلم أن سيكون منهم من يتنكر له ، ويعصى أمره . ولا يقبل هدايته ونصحه عزاه الوكيل سبحانه، وأمره أن يتوكل عليه ليكفيه أمرهم ذاكراً له من صفاته القدسية ما يحمله على هذا التوكل قال تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين ٢١٤ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ٢١٥ فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون ٢١٦ وتوكل على العزيز الرحيم ٢١٧ الذى يراك حين تقوم ٢١٨ وتقلبك فى الساجدين ٢١٩ : ٢٦) .

ولما أعرض بنو إسرائيل عن هداية القرآن بعد أن بين لهم وجه الحق فيما كانوا يختلفون فيه من أمور دينهم ، وجمدوا على الباطل الذى ألفوا عليه آباءهم ، وأنفقوا فيه حياتهم أمره الوكيل سبحانه أن يتركهم إلى قضاء الله وحكمه لأنهم كالموتى الذين لا يسمعون وكالعمى الذين لا يبصرون ، وأن يتوكل على الله ليكفيه أمرهم ، ويدفع عنه كيدهم قال تعالى (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ٧٦ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ٧٧ إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ٧٨ فتوكل على الله . إنك على الحق المبين ٧٩ إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ٨٠ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم . إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ٨١ : ٢٧).

ولما حاول الكافرون أن يفتنوا النبى صلى الله عليه وسلم عن بعض ما أنزل إليه من ربه ، وجاراهم المنافقون فى ذلك وأرادوا أن يخدعوه بقولهم : لو أجبتهم إلى بعض ما طلبوا لآمنوا بك واتبعوك ، وكسبت بذلك كسباً عظيما ، نهاه الوكيل سبحانه وهو العليم بسيىء نواياهم ، الخبير ببواطن أمورهم — عن طاعاتهم ، وأمره أن يتبع الوحى الذى أنزل إليه ،

وأن يتوكل على الله ليكفيه أمر فتنتهم ، ويبصره بخفى أمورهم قال تعالى : يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين . إن الله كان عليما حكيما ، واتبع ما يوحى إليك من ربك . إن الله كان بما تعملون خبيراً٢ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ٣ : ٣٣) .

ولما أكثر الكافرون والمنافقون من محاولة فتنة النبي صلى الله عليه وسلم عما أنزله الله عليه وبالغوا فى ذلك وأسرفوا كرر سبحانه النهى عن طاعتهم تثبيتا لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه : (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله . وكفى بالله وكيلا ٤٨ : ٣٣) .

وقد أخبرنا سبحانه أن رسله جميعاً كانوا يتخذونه وكيلا يتوكلون عليه فى جميع شئونهم وخاصة حين يضطهدهم أقوامهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ليردعنهم كيد الأعداء ، ويكفيهم شرهم . قال تعالى : (قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم . ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ١١ ومالنا إلا نتوكل على الله ، وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن مع ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ١٢ : ١٤) .

ومن ذلك أن هوداً عليه السلام حين زعم قومه أن بعض آلهتهم قد اعتراه بسوء أخبرهم أن آلهتهم التى تعوزها الحياة التى لا تعوز أحقر الحيوان شأناً ، الحياة التى تتمتع بها القردة والخنازير والحشرات والهوام ـ أحقر وأذل وأضعف من أن تناله بسوء حتى ولو كانت حية ، لأنه متوكل على الوكيل الحى القوى الذى لا يغلبه غالب ، والذى يدبر الخير للمتوكلين عليه ويدفع الشر عنهم قال تعالى : (قالوا : ياهود ، ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ٥٣ إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال : إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون ٥٤ من دونه فكيدونى جميعاً ، ثم لا تنظرون ٥٥ إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . إن ربى على كل شىء حفيظ ٥٦ : ١١) .

وأخبرنا الوكيل سبحانه فى كتابه الكريم أن صحابة رسول الله عليهم الرضوان حين أخبرهم المنافقون بأن الكفار يجمعون الناس لحربهم والتنكيل بهم لم يبالوا ، ولم يكترثوا ، بل ازدادوا إيماناً بنصر الله ، ويقينا فى الفوز على الأعداء لأنهم قد اتخذوا الله وكيلا يتولى شئونهم ، ويدبر أمر انتصارهم . قال تعالى : الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ١٧٣ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ١٧٤ : ٣) .

وقد أنبأنا الوكيل سبحانه أن أتباع الرسل كانوا يتواصون بالتوكل على الله فيكتب لهم النصر على أعدائهم ، وليستمدوا من التوكل قوة يواجهون بها أشد الأعداء ، ويتغلبون على أخطر المخاطر ، ومن ذلك أن موسى عليه السلام حين أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، غلبهم الجبن الذى تغلغل فى نفوسهم حين كانوا يرسفون فى قيود الذل والاستعباد تحت حكم فرعون ، ورفضوا الدخول محتجين بقوة أعدائهم ، فنصح لهم إخوانهم الموفقون بالتوكل على الله لينتصروا ، فإن أقوى القوى تذوب وتفنى أمام قوة الله قال تعالى (قالوا . ياموسى ، إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ٢٢ قال رجلان من الذين يخافون ، أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنون ٣٣ : ٥)

هذا واتخاذ الله وكيلا والتوكل عليه فى كل الأمور من أخص صفات المؤمنين ، وأبرز مميزاتهم ؛ إذ كلما قوى إيمان المؤمن ازداد توكله على الله ، وثقته بما عنده ، وبرىء من حوله وقوته إلى حول الله وقوته موقنا أن مرجع الأمور كلها إليه تعالى وحده لا شريك له ، وأنه تعالى وكيل على خلقه وهم غافلون وأنه لو تركهم لأنفسهم طرفة عين لصاروا فى عداد الهالكين . قال جل ثناؤه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذ تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ٢ : ٨) .

وقد بين سبحانه أن الإيمان والتوكل على الله يدفعان كيد الشيطان ، ويسلبانه سلطانه ،

ويردانه أضعف كيداً ، وأحقر شأناً من أن ينال من المؤمن منالا ، أو يدرك منه غرضا قال تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ٩٨ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٩٩ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ١٦:١٠٠)

كما أنبأنا جل ذكره أنه وكيل على عباده المؤمنين فلا يمكن الشيطان من الكيد لهم قال تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ٥٦ : ٥٧)

كما أنه لا يمكن منهم غير الشيطان ، ولا يجعل لأحد عليهم سبيلا ، قال تعالى : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فيتوكل المؤمنون ١٦٠ : ٣) .

خاتمة المطاف

« التوكل والتواكل »

التوكل على الوكيل سبحانه أن تستعمل كل ما منحك من القوى فيما منح من أجله وتستعمل سمعك وبصرك وسائر حواسك فيما خلقت من أجله : وتستعمل عقلك وذهنك وتفكيرك وتدبيرك وبحثك وعلمك وذكاءك وتجاربك وسعيك وجدك واجتهادك ، ويقظتك وانتباهك وكل ما أنعم به الوكيل سبحانه من المواهب والاستعدادات لكى تصل إلى غايتك ، وتدرك أهدافك ، وتتوكل على الوكيل سبحانه فى تحقيق ذلك والبلوغ إلى نتائجه . كما تتوكل عليه سبحانه فيما تعجز عنه ، ولا يمكنك إدراكه بقواك الممنوحة لك .

أما التواكل فهو أن تترك كل سعى وتدبير ، وعمل وتفكير ، وتزعم أنك تتوكل على الوكيل سبحانه وليس هذا توكلا ولكنه تواكل مذموم قبيح لا يوصل إلى خير ، ولا يبلغ أملا ولا يحقق غاية . بل هو من الكسل الذميم الذى لا يليق أن يتصف به مؤمن ، وقد استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل .

* * *

إن الشارع الحكيم يأمرنا بالعمل إذ يقول : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وما انتصر المؤمنون السابقون من الرعيل الأول فى جهادهم وقتال أعدائهم إلا بالجد والعمل (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض) .

لو سلك الناس طريق التوكل الكاذب الذى هو التواكل ما بنى بان ، ولا غرس غارس ، ولا زرع زارع ، ولا جاهد مجاهد ولا عمل عامل ، ولهلك أولئك المتواكلون جوعاً وظمأ .

الحيوان الأعجم يجد فى تحصيل رزقه ، ويعمل دائباً للظفر بقوته ، ويفر مما يؤذيه ويضره ، أفيليق بالإنسان العاقل أن يكون دون الحيوان الأعجم سعياً وعملا .

يقول عليه الصلاة والسلام : «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

فلم يفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم توكل الطير بأنها تجثم فى عشاشها ثم يأتيها رزقها عفواً بغير سعى ولا عمل ، ولكنه صلى الله عليه وسلم فسره بأنها تغدو وتخرج من وكناتها مبكرة غداة كل يوم باحثة عن رزقها ، فيلتقط دوده من هناك ، حتى إذا كان آخر النهار ، راحت إلى أعشاشها ممتلئة البطن شبعاً بفضل سعيها وبحثها .

* * *

لقد أفسدت المتصوفة عقول الناس وتفكيرهم بالتفسير الآثم لمعنى القدر ، ولمعنى التوكل ونفثوا فى أرواح أتباعهم رذائل الخمول والكسل والتواكل . ألم تر إلى شاعرهم الأحمق إذ يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق فى غشاوته الجنين

هذا منكر من القول وزور .

فى أى عقل يسوغ القول فإن الحركة والسكون سيان إن الذى يسوى بين الحركة

والسكون يسوى بين الحياة الموت ، فالحركة من دلائل الحياة ، والسكون من أمارات الموت وكيف يكون السعى فى طلب الرزق جنوناً ؟ .

وهل الجنون إلا هذا القول الذى لا تسيغه العقول ؟ .

إن الجنين الذى يرزق فى غشاوته لم يتم خلقه وتكوينه ولم يمنح القدرة على السعى والعمل ، ولم يخرج من ضيق الرحم وظلمته إلى سعة الحياة ونورها ، فلابد أن يتوكل الوكيل سبحانه له بكل أسباب حياته . فإذا برز إلى نور الوجود تغير نظام معيشته ، وأخذ يسعى فى طلب رزقه بالصياح الذى ينبه أمه إلى أنه جائع يطلب الغذاء ، أو متألم يطلب إنقاذه من أسباب الألم . فإذا ترعرع ، واشتد ساعده واستغنى عن أمه صار يطلب الرزق بالجد والسعى واستعمال والعمل القوى التى منحه الوكيل سبحانه إياها .

ليت شعرى متى تصح الأمة الإسلامية من هذه الأمراض النفسية التى أصابها بها أولئك الجاهلون الغافلون الدجالون .

متى تنفض عن نفسها غبار الكسل الذى تراكم عليها فى ظل العهود السابقة حينما كانت الحكومات الجاهلة الظالمة المستبدة تقتل فى الأمة روح العمل والطموح لتظل خانعة خاضعة مستخذية تسبح بحمد الحاكم الظالم الذى يبيح لها الاستجداء والتسول ، وأكل أموال الناس بالباطل ؟ .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

٤٧ — الفاطر

الفطر بفتح الفاء وسكون الطاء الشق طولا ، والابتداء ، والاختراع .

وفطر الأمر ابتدأه وأنشأه .

وفطر البئر ابتدأ حفرها .

وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه .

هذه خلاصة ما ذكرت المعاجم لهذه المادة من معنى . وتتلخص فى الشق والابتداء والاختراع والانشاء والإيجاد والابداع .

وعلى ضوء هذه المعانى نفسر هذا الإسم الجليل من أسمائه تعالى . وهى كما ترى معان متقاربة ليس بينها كبير فرق .

فإن قلنا : إن الفطر معناه الشق كان معنى الفاطر الذى اشتق العوالم من السديم الذى عبر عنه سبحانه بالدخان فى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين ١١ ـ فصلت) .

فالله تعالى فطر العوالم أى اشتقها من السديم الذى هو مادة الكون الأولى التى خلقها أولا ثم اشتق منها العوالم كلها بقدرته وعلمه وحكمته .

وإن قلنا أن الفطر بمعنى الابتداء كان معنى الفاطر الذى ابتدأ خلق العوالم لم يسبقه إلى خلقها سابق ، ولم يتقدم عليه فى إيجادها أحد .

وإن فسرناه بالاختراع ومعناه البدء بإيجاد الشىء على غير مثال سبق كان معناه الذى خلق العوالم كلها ابتداء لم يقتد فى خلقها بغيره ، ولم يتبع خطوات سواه .

وإن فسرناه بالإنشاء والإيجاد كان معناه المنشىء والموجد للعوالم كلها لم ينشئها غيره ولم يوجدها سواه .

وإن فسرناه بالإبداع كان معناه مبدع العوالم ومقيمها على هذا النظام الذى ليس له مثيل .

وهذه المعانى لفرط تقاربها من الممكن أن ينتظمها جميعها معنى واحد جامع وهو الخلق أول مرة .

غير أن بين الخلق والفطر فرقاً دقيقاً ينبغى أن يلقى إليه البال . فالخلق معناه

مطلق الإيجـاد . فتقول خلق الله السموات أى أوجدها وخلق الله الإنسـان أى أوجده .

أما الفطر فمعناه إيجاد الشىء وإبداعه على هيئة خاصة تجعله مستعداً للوفاء ببعض المقاصد .

تقول : فطر الله الأرض أى أوجدها على هيئة خاصة تجعلها مستعدة للوفاء بما يراد من إيجادها ، وهو أن تـكون موطناً للجنس البشرى منها يخلق وفيها يعاد ومنها يخرج تارة أخرى ، يستغل تربتهـا ، ويستخرج كنوزها وذخائرها ، ويمشى فى مناكبها ، ويبحث عن قوته فى أكنافها ويتخذ من سهولها قصوراً ، وينحت من جبالها بيوتاً ويتخذ من حيوانها ونباتها طعامـاً ومن مائها شراباً ، وينتفع بما سخره الله تعالى له من حيوانها وطيرها .

وتقول : فطر الله السموات أى أوجدها وأبدعها على هيئة خاصة تجعلها مستعدة للوفاء ببعض مقاصدها ، فتـكون شمسها سراجاً وهاجاً يضىء للناس فيختلفون إلى مصالحهم ، ويزاولون أعمالهم ، ويبعث الدفء إلى أجسامهم ويرسل الحرارة فتنضج الثمار والحب وتصبغ الفاكهة ، وتلون الطير ، وتبخر ماء البحر فتنشأ السحب التى تزجيها الرياح إلى الأرض الجرز فتنزل مطراً تجرى به الأنهار . ويكون قمرها نوراً يهتدى به السارى فى ظلمات البر والبحر ، ونجومها زينة ورجوماً للشياطين ، وهداية للسارين . إلى غير ذلك من المقاصد والحـكم والأسرار التى لا تبلغها عقولنا ، ولا تصل إليها مداركنا .

وتقول : فطر الله الإنسان أى أوجده وأبدعه على هيئة خاصة تجعله مستعداً للقيام بعبادة الله وتوحيده (وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون) .

* * *

وإلى هنا تستطيع أن تقول فى تفسير اسمـه تعـالى « الفاطر » إنه هو الذى

خلق الخلق وأوجد الكون بحيث جعل كل كائن على هيئة خاصة تجعله مستعداً للقيام بما يراد من خلقه وإيجاده .

ولسنا نقول ذلك افتياتاً على اللغة . بل ما طوع لنا أن نقول ذلك إلا نصوص اللغة ، فابن الأثير يقول . « فطر الله الخلق ، إيجاده وإبداعه على هيئة ترشيحه لفعل من الأفعال » وما زدنا على أن بسطنا قوله ومنحناه فضلا من الوضوح ومزيداً من البيان .

ولم يكن ابن الأثير مفتاتاً على اللغة فى تفسيره هذا ، فانه ما أخذه إلا من قول الله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٣٠ — الروم) .

فالفطرة مصدر يدل على الهيئة كالجلسة والركبة .

وفطرة الله هى ماركز فى غريزة الإنسان من الاستعداد لمعرفة الله تعالى والايمان به وعبادته وحده وذلك هو المراد من خلق الإنسان . وهو ما أمره الله تعالى به فى قوله : فأقم وجهك للدين حنيفاً ، وعنى به الفطرة التى فطره عليها .

وإلى هذه الفطرة يشير قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى أن الله تعالى فطر بنى آدم مستعدين لمعرفته والايمان به وإنما تضرهم الغفلة والاقتداء بالآباء والسير على منهاجهم .

وإلى هذه الفطرة يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه . كما تنتجون البهيمة . هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها » .

فالانسان يولد على الفطرة أى على نوع من الجبلة والطبع يهيئه لقبول الدين ، فلو ترك على فطرته التى فطره الله عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها وإنما يعدل عن الفطرة من يعدل عنها من رمى بآفة من الآفات التى تعرض للبشر : من الغفلة ، وفساد البيئة ، ومحاكاة الآباء .

تدبر قوله تعالى (ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ليقولن : الله) وقوله تعالى : (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله) .

وقوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم : ليقولن : الله) .

لتعلم أن الفطرة هى التى تدفع هؤلاء العرب المشركين إلى أن يجيبوا هـذا الجواب الصحيح السليم الذى يدل على أن التوحيد مركوز فى طبائع البشر ، وعلى أن الإنسان مفطور على أن يقر بوجود إله خالق ، ولو سماه بغير اسمه ولو أشرك معه غيره . وإنما يفسد الناس هـذه الفطرة بجهلهم وغفلتهم وطاعة سادتهم وكبرائهم .

* * *

ولما كان الفطر يدل على الخلق لأمر يراد آثر القرآن الكريم وهو يترجم جواب إبراهيم لقومه أن يعبر بالفطر دون الخلق فى قوله تعالى (قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن . وأنا على ذلكم من الشاهدين) فنى قوله تعالى « فطرهن » من الاعجاز فى الايجاز ما لا يعزب عن ذهن الأديب . فلقد انطوت هذه الكلمة على قلة حروفها على جميع مراد الله تعالى من خلق السموات والأرض . وذلك مالا سبيل إلى الإنسان أن يعبر عنه بقلم ولا لسان .

وكذلك ما حكاه الله تعالى عن سحرة فرعون فى قوله تعالى (قالوا : لن

تؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) .

فقوله تعالى فطرنا . ليس معناه خلقنا فحسب ، بل معناه خلقنا لطاعته وعبادته والخضوع لأمره لا لطاعة فرعون ولا لعبادته ولا للخضوع لأمره .

فسبحان فاطر السموات والأرض منزل هذا الكلام البليغ المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إن مراد فاطر السموات والأرض من خلق الإنسان هو ما عبر عنه بالأمانة فى قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها[1] وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) نعم خان الإنسان الأمانة التى أودعها الله تعالى إياه والتى خلقه من أجلها ، وأداها كل كائن فى السموات والأرض . فما تأخرت الشمس يوما عن موعد شروقها ، ولا سبقت موعد غروبها وما ضنت يوما بضوئها ولا بدفئها ولا حرارتها ، وما أمسكت الأرض نبتها عند توافر شروط الإنبات ، وما قصرت الجبال عن إرساء الأرض وحفظها من أن تميد بساكنيها ، ولكن الإنسان وقد خلقه الله تعالى لعبادته خان أمانته فوجه عبادته لغير فاطره فعبد الأحياء والأموات من البشر ، وعبد النجوم والأنهار والحجر ، وعبد الحيوان والشجر ، وعبد الطير والحشر ، وخالف بذلك أمر فاطر السموات والأرض وخالق القوى والقدر .

نعم خان الإنسان الأمانة التى فطر من أجلها ؛ فدعا غير الله ، واستعان بسواه وفزع فى أموره إلى المخلوقين العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً ، وهذا شر ما انتهى إليه جهل الجهول وغباء الغبى وظلم الظلوم .

لو علم هؤلاء الذين يدعون غير الله ، ويفزعون إلى القبور ، ويستعينون الموتى أنهم

---

(١) أن يخنها . وفى القاموس المحيط حمل الأمانة خانها .

يلحدون فى اسمه تعالى الفاطر وينقضون معناه بمحاولتهم إفساد الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها لقنوا حياءهم ، وأنابوا إلى ربهم وأخلصوا توحيدهم ، وصححوا إيمانهم ، ولكن واأسفاه غلبت الغفلة عليهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

هذا ولم يرد هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم إلا مضافا قال تعالى :

(الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير) .

وقال تعالى : (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى ما يتم به معنى هذا الاسم الجليل وهو البعث الذى هو غاية الخلق (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟) .

٤٨ — الشاكر ٤٩ — الشكور

الشكر لغة : تصور النعمة وإظهارها . أو هو عرفان الإحسان ونشره .

أو هو مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثنى الشاكر على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه فى طاعته ، ويعتقد إنه موليها . كما قال بعضهم :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

وشرعا صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ماخلق من أجله .

وقليل من الناس من يصيب حقيقة الشكر بهذا المعنى ، ولذلك يقول الله تعالى : (وقليل من عبادى الشكور) .

ولم يثن الله تعالى فى القرآن الكريم بالشكر إلا على اثنين من أولى العزم من الرسل وهما نوح عليه السلام فى قوله تعالى : (ذرية من حملنا مع نوح . إنه كان عبداً شكوراً) ، وإبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك

من المشركين . شاكراً لأنعمه . اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم) وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يصيب حقيقة الشكر ، فكان يقوم الليل حتى تورمت قدماه . فلما قيل له : أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ .

وإذا حققت النظر فى معانى الشكر التى جلوتها عليك وجدت أن للشكر اللغوى ناحيتين : ناحية نفسية ، أو باطنية ، وهى تصور النعمة أو عرفانها أو اعتقاد صدورها من مصدرها ، وناحية عملية أو ظاهرية ، وتتمثل فى إظهارها بالقول والفعل : أى الثناء بها باللسان ، ووضع الجوارح والأركان تحت تصرف المنعم ، وإرصاد الجسم لخدمته . وأن الشكر الشرعى عملى كله ، قوامه أن توضع نعم الله فى مواضعها ، ذلك شكر المخلوقين للخالق سبحانه ، وشكر المخلوقين بعضهم لبعض فما معنى شكر الله لعباده ؟ وما معنى تسميته سبحانه بالشاكر والشكور .

يمكننا أن نفسر شكر الله تعالى لعباده تفسيراً يقرب من المعنى اللغوى الذى سلف ذكره ، مع تنزيه الله سبحانه عن مشابهة الحوادث وعما لا يليق بجلاله وعظمته وقد بينا أن للشكر اللغوى ثلاثة أركان ، إذا أنعمنا فيها النظر تبين لنا أن شكر الله تعالى لعباده يتجلى فى ثلاثة أمور قريبة منها .

أولها — علم الله تعالى بما قام به العبد من امتثال أوامره واجتناب نواهيه وإخلاص العبادة له . .

ثانيهما — الثناء على العبد بنسبة الطاعة إليه ووعده بالرضوان وحسن المثوبة .

ثالثها — منح العبد الثواب الموعود فى وقته المحدود .

تدبر قول الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٦٣ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ٦٤ والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراما ٦٥ إنها ساءت مستقراً ومقاما ٦٦

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ٦٧ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٦٨ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ٦٩ إلامن تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ٧٠ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا ٧١ والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ٧٢ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ٧٣ والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما ٧٤ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما ٧٥ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما ٧٦ — الفرقان) .

وقوله تعالى : (إنما يتذكر أولوا الألباب ١٩ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ٢٠ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ٢١ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصـــلاة . وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ٢٢ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . والملائـكة يدخلون عليهم من كل باب ١٣ سلام عليـكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ٢٤ — الرعد) .

وقوله تعالى : (الذين ينفقون فى السراء والضراء والـكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين ١٢٤ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ١٢٥ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ١٢٦ — آل عمران) .

فلا جرم أن هذا ثناء من الله تعالى على عباده الصالحين . الذين ينهضون بواجب الطاعة لله تعالى ، ويعملون من الصالحات ما أسنده رب العزة إليهم فى هذه الآيات .

وهذا الثناء يشعر بأن الله سبحانه علم بأنهم يفعلون هذه الصالحات التى استحقوا بها

ثناء الله تعالى عليهم . وفى هذه الآيات الجزاء الموعود الذى سيمنحهم الله تعالى إياه .

فقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أركان الشكر ، التى بها سمى رب العزة نفسه شاكراً وشكوراً .

ولا يفوتك أن تدرك هذا الفارق العظيم ، وهو أن العبد إذا شكر فإنما يشكر على نعمة وصلت إليه وانتفع بها . ولكن رب العزة يشكر لعباده وهو لم ينتفع منهم بشىء ، إذ منفعة أعمالهم عائدة عليهم ، وفائدة سعيهم واصلة إليهم . بل لو حققت النظر لعلمت أن الله تعالى حقيق بأن يشكر على توفيقه العباد وتهيئته لهم كل أسباب العمل الذى به يستحقون شكره وعظيم مثوبته .

وإلى هنا بلغنا تحقيق معنى اسمه تعالى « الشاكر » وتلخيصه :

أنه الذى يعلم أعمال عباده ، ويثنى عليهم بالصالح منها ويثيبهم عليه رحمة ومغفرة وجنات لهم فيها نعيم مقيم .

فإذا آمن العبد وشكر لربه فضله ونعمته شكر الله له قال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم ، وآمنتم وكان الله شاكراً عليما) .

وقال تعالى : (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) .

وأما اسمه تعالى « الشكور » فهو فى اللغة أبلغ من الشاكر . وقد فهمت معنى اسمه تعالى « الشاكر » على قدر مايسر الله .

وأما « الشكور » فهو الذى يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء عليه ، ويجعل الحسنة بعشر أمثالها . ثم يضاعف لمن يشاء . كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقال تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) .

وقال تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) .

وقال تعالى : (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم) .

وقال تعالى : (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً . إن الله غفور شكور) .

ويوم يرى المؤمنون ما أعد الله لهم من المثوبة ويجدون ما وعدهم ربهم حقاً يقولون : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله) وإذا تدبرت قوله تعالى : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) وجدته يلخص معنى اسمه « الشكور » أصدق تلخيص وأوضحه .

وبعد فمن هو الجدير بالعبادة والدعاء ؟

أمن يشكر لعباده كل ما يقدمون من صالح الأعمال ؟

أم من يغفل عن عبادتهم ، ولو دعوه إلى يوم القيامة ما استجاب لهم ؟

من الحقيق بأن تقربوا له قربانكم ؟

أمن يثيبكم من فضله ، ويشكر لكم ما قدمتم ؟

أم من لايعلم بكم ولا بما قدمتم ، وإنما يأخذه السدنه العاطلون والكسالى المتسكعون ، الذين يعيشون عالة على العاملين كما تعيش الطفيليات ، من الديدان والحشرات .

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

٥٠ — الكريم

أصل الكرامة فى الأشياء العزة والنفاسة ، ومن ذلك كرائم الأموال أى نفائسها وخيارها ، وكل جارحة شريفة فى الإنسان كالعين والأذن واليد فهى كريمة وكريمتها

الإنسان عيناه ، وكريمة الرجل ابنته لأنه ينفس بها ويعزها .

وقد وصف الرزق بالكرامة فى قوله تعالى : (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى واسع كثير يأتيهم صفواً لايمتهنون أنفسهم فى الحصول عليه .

ووصف بها القول فى قوله تعالى : (وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً) أى ليناً سهلا مرضياً فيه إبقاء على شرفهما وحرص على كرامتهما .

ووصف به كتاب سليمان إلى ملكة سبأ فى قوله تعالى (قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه : بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين) وكرامة هذا الكتاب بكرامة مرسله لأنه ملك يفوقها قوة وسعة ملك وعزة وكرامة ، وبكرامة موضوعه لأنه مبدوء باسم الله تعالى ، مطالب بالخضوع لسلطانه .

ووصفت به الديار فى قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم) وكرم الديار فى مُواءَمتها للصحة ، وعدم نبوها بساكنها ، مع الأمن والظفر بالرزق الواسع والاحتفاظ بالحرية والكرامة .

ووصفت به ألوان النبات فى قوله تعالى : (خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماءً ، فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) وكرامة أزواج النبات فى نفاستها ومنفعتها ورفعة قيمتها .

ونفيت الكرامة عن ظل الجحيم لإثباتها لظلال الجنة . « وبضدها تتميز الأشياء » قال تعالى :(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم) وكرامة الظل فى الروح المنعش الذى يذهب كرب الحر .

ووصف بالكرامة عرش الله تعالى فى قوله : (فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو

رب العرش الكريم) وكرامة العرش فى أنه مركز تدبير الأمر ، وتنزيل الوحى ، وتنظيم الكون .

ووصف بها القرآن الكريم فى قوله تعالى : (إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون) .

وكرامة القرآن فى حفظ الله تعالى إياه ، وصونه عن غير المطهرين ، وفى أنه معجز للبشر ، لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وفى تضمنه لأسباب السعادة فى الدنيا والآخرة .

ويوصف الإنسان بالكرامة إذا كان جامعاً لخصال الخير ، فقد وصف بها موسى عليه السلام فى قوله تعالى : (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) وكرامته فى اصطفاء الله تعالى إياه على الناس برسالاته وبكلامه .

ووصف به يوسف ويعقوب وإبراهيم عليهم السلام فى قول النبى صلى الله عليه وسلم الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إبراهيم ، وكرامة هؤلاء فى أنه قد اجتمع لهم شرف النبوة ، ومجد النسب وكرم الخلق .

وبالنظر إلى كل ما وصف بالكرامة من هذه الأشياء أو الأشخاص ندرك أن كلا منها ممتاز فى جنسه ، أو مستكمل للصفات التى تجعله ممتازاً فى جنسه . وما ليس له نظير كالعرش والقرآن الكريم كامل فى نفسه لا يلحقه عيب ، ولا يتحيفه نقص ويزيد الإنسان على ذلك إذا وصف بالكرامة أو الكرم أنه جامع لأشتات الفضائل وعلى رأسها السخاء .

فماذا يكون معنى الكريم إذا كان اسماً لرب العزة سبحانه ؟ .

تصور أفضل المعانى التى جلوتها عليك فى أتم أحوالها ، وأكمل أوضاعها ثم اسم بها من الكمال ، إلى حد لا يخطر على قلوب البشر ، بل إلى غير غاية ولا نهاية ولا حد ، تدرك معنى هذا الاسم الكريم .

فهو الذى جمع الكمال كله ، وتنزه عن أدنى شوائب النقص؛ وتفرد بالوجود الحق ، وتعالى عن الشبيه والنظير ، ولم يكن لإحسانه غاية ، ولا لإنعامه نهاية ، ولا لعطائه نفاد ، ولا لصفحه حد . سبحانه لا أحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه .

أما الكمال المطلق لرب العزة سبحانه فقد استوعبت بعض نواحيه آية الكرسى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له مافى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) .

وأشارت إلى جانب منه مع التنزيه عن شوائب النقص سورة الإخلاص .

(قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) .

وأشار إلى ذلك فى قوله تعالى : (الذى له ملك السموات والأرض . ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديراً) .

وقوله تعالى : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولياً من الذل وكبره تكبيراً) وقوله تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) .

ومن الآيات التى أشارت إلى عفوه وصفحه قوله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) .

وقوله تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) .

ومن الآيات التى أشارت إلى بعض نواحى جوده سبحانه قوله تعالى :

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن

ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة . ويخلق مالا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم) .

وقوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) .

والقرآن الكريم كله آيات تشهد بكرم الله تعالى ، ولذلك لم يذكر هذا الإسم الكريم فى القرآن إلا مرة واحدة ، لأن الناس جميعاً مغمورون فى كرم الله وجوده ، يرون آثار هذا الكرم بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم وفى كل قيد شعرة فى السموات والأرض .

هذا هو الغنى الكريم الذى أفاض نعمه على الكافرين كما أفاضها على المؤمنين ، وغمر عباده بفضله العميم وجوده العظيم ، ومنحهم الحياة والسمع والبصر والفؤاد من قبل أن يسألوه ، وآتاهم من كل ما سألوه . ولو حاول أقل الناس حظاً من نعم الله أن يحصى ما أنعم الله به عليه لأعجزه حصره ، وفاته إحصاؤه .

فهل يليق مع هذا أن ينصرف الناس عن باب الكريم الذى لاحد لكرمه الجواد الذى لانهاية لجوده ، ليبسطوا أكف الضراعة والرجاء ويريقوا ماء وجوههم أمام القبور والرجام ، والتى أصبح الموسدون فى تربتها رفاتاً سحيقاً ، وصعيداً جرزاً ؟

أهكذا الكريم الذى أفاض النعم التى لاتحصى بغير سؤال من خلقه أيضن عليهم بإجابة المطالب الحقيرة التافهة حتى يستشفعوا إليه بمخلوق عاجز ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، أو حتى يقسموا عليه بشيخ من هؤلاء الشيوخ الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويأكلون أموال اليتامى ظلماً ، أو حتى يسألوه بدجال محتال ، يلبس ثياب الصالحين ، وقد أحاط إهابه بشيطان رجيم .

أليس من الحمق والسفه بل من الجنون أن يترك الظامىء ينبوعاً عذباً نميراً غدقاً غمراً فياضاً بين يديه ثم يبعد النجعة ليلتمس الرى من الأوشال الآسنة الناضبة التى تمازجها الأوحال ، أو يعتصر البلة من البئر الظنون ، والحمأ المسنون ؟

ياحسرة على العباد !

منحهم الله نعمة العقل وهى أجل النعم فعطلوها ، ولم ينتفعوا بها ، ولم يسيروا على ضوئها ، وآثروا أن يسيروا فى طريق الضلال فى الظلام الدامس البهيم ، « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم » .

٥١ — الواسع

الوُسع والسَّعة الجِدة والطاقة . قال تعالى : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، أى إلا ما تطيقه وتقدر عليه .

وقال تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته) أى ذو وُجد من وُجده .

وتقول : وسعنى بيتى ووسع أولادى إذا كان كافياً لسكناهم ولم يضق عنكم فهو واسع .

وتقول : وسعنى رزقى ووسع عيالى إذا كان كافياً لكم ولم يقصر دون النفقة اللازمة لكم ؛ فهو واسع .

وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم » أى إن أموالكم ليست كافية لعطاء الناس ، فاجعلوا مكارم أخلاقكم كافية لحسن صحبتهم .

فالواسع فى الحوادث ما يكون كافياً لما يراد به أو منه .

وعلى نور من هذه المعانى يمكن تفسير اسمه تعالى « الواسع » فهو الذى يسع الخلائق بما يقوم به وجودها وحياتها ، وبما يكون ملاك أمرها .

فمن شئون الخالق أن يكون كافياً لخلقه يضمن لهم أرزاقهم ، ويحفظ على الأحياء حياتهم ، ويعينهم على أمورهم ، وتستلزم هذه الكفاية أن يكون عليما بهم محصياً لعددهم .

وسع ربى كل شىء علماً . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . يعلم السر وأخفى إذ كل موجود مخلوق له تعالى ، ولا جرم أن علمه محيط بكل خلقه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) (وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) .

وإذا كان سبحانه قد وسع علمه جميع الخلائق من إنس وجن وملك وطير وحشر وذر ، وشجر ونبات ؛ وسائل وجامد ، وظاهر وخفى ، فليس فى حاجة إلى من ينبئه بأحوال عباده ، أو يظهر له حاجتهم إلى معونته ورحمته وفضله وعفوه . فمن ضيق الفكر بل من سفه النفس أن يستعين الناس بالأولياء ليرفعوا حاجاتهم إلى ربهم ، أو ليكونوا وسطاء بينهم وبينه ، فهو أعلم بهم من كل وسيط .

وقد وسعت رحمته كل شىء وكل مخلوق وكل إنسان ، فمن رحمته أن أفاض على الناس نعمة الوجود ؛ ورزقهم أنواعاً من الهدايات : هداية الفطرة ، وهداية الوجدان ،

وهداية الحواس ، وهداية العقل ، وهداية الدين ليعدوا أنفسهم للسعادة الخاصة التى أعدها للمؤمنين فى جنات النعيم .

وإذا كان سبحانه قد وسع كل شيء رحمة فليست به حاجة إلى من يستثير رحمته بعباده ، فرحمته تعالى ذاتية . وهو أرحم الراحمين ، فمن أفن الرأى ، وضعف ملكة الحكم أن يهتف الإنسان باسم مخلوق مفتقر إلى الرحمة يشكو إليه الرحمن الرحيم الواسع الذى وسعت رحمته كل شيء .

ولنا فيما قصه الله تعالى علينا من دعاء الملائكة واستغفارهم وذكرهم ، وطلبهم من الله ما اقتضته سننه فى الوجود ـ درس نافع يهتدى به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . يقول تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

فليس استغفار الملائكة استدراراً لرحمة الله تعالى ، واستمطاراً لمغفرته ، لأن رحمة الله ومغفرته ذاتيان ، لا يستثيرهما نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، ولكنه ذكر لله تعالى بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى ، وبأحكامه الأزلية التى لا تقبدل ، وسننه الكونية التى لا تتحول . بدليل أنهم لا يستغفرون للعصاة والمذنبين ، ولكنهم يستغفرون للذين تابوا إلى ربهم واتبعوا سبيله ، ويستنجزون وعد الله ـ ووعده حق ـ للمؤمنين والصالحين من آباء التائبين وأزواجهم وذرياتهم [1]

---

(١) الهدى : إن الاستغفار هو طلب الغفر والستر ، مأخوذ من المغفر : الذى يتخذه الفارس وقاية للرأس . والإنسان يطلب من ربه أن يستر عيوبه البشرية بأن يمده بالإمدادات

فما أنفعه من درس ! لو تدبره هؤلاء الذين يقولون أنهم عصاة مذنبون أئمة ملونون ، لايتقبل الله دعاءهم ، ولكنه يتقبل دعاء الأولياء لهم — لثابوا إلى رشدهم وأقلعوا عن ذنوبهم ، وتابوا إلى ربهم ، ثم دعوه مخلصين له الدين حنفاء .

وهو سبحانه واسع يسع عباده بغوثه وعونه ، فما استغاثه أحد أو استعانه متبعاً سبيله ، مخلصاً فى دعائه ، مضطراً إليه إلا أغاثه وأعانه ، فهو غياث المستغيثين وعون المستعينين ، إياه نعبد وإياه نستعين ، فمن استغاث غيره فهو من المخذولين ومن استعان سواه فهو من الخاسرين الضالين (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعباداتهم كافرين) .

وهو سبحانه وتعالى واسع ، وسع رزقه كل مخلوق ، فما شق فماً إلا أجرى له رزقاً (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها . كل فى كتاب

= التى تجعلها كمالا لا نقصاً ، وخيراً لا شراً ، فإن حكمة الله ورحمته أعطت الإنسان هذه البشرية بطبائعها : من الغضب والطمع والشهوة والأنانية ونحوها ليتخذ منها كلها أسباباً للرقى والسمو على معارج الكرامة ، وهى نفسها أسباب السقوط والتسفل عند من لم يعرف حكمة الله وفضله ورحمته فيها ، وهى إنما تكون عيوباً ونقائص حين تغلب على الإنسانية الحيوانية إذا انسلخ من آيات ربه وأخلد إلى الأرض التى هى أصل الخلق الحيوانى غافلا عن المعنى الكريم (ونفخت فيه من روحى) وكانت نتائج هذه الغفلة وتغليب الحيوانية تسمى « ذنوبا » لأن الذيل عنوان البهيمية : والملائكة هى التى تنزل بالإمدادات من عند ربنا فى الخلق والرزق وكل ما يتقلب الإنسان فيه بالليل والنهار ، وهى تنزل بها لغفر وستر عيوب البهيمية وتغليب صفات الإنسانية الكريمة ، وهى تنزل بذلك الغفر والستر وتطلبه من ربها لأهل الأرض جميعا . قال الله فى معرض الرد على المشركين وتوبيخهم من سورة الشورى (٤٢ : ٤ ، ٥ له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو العلى العظيم . تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم) وكتبه حامد الفقى .

مبين) فمن النمس رزق الله بالتقوى واتخاذ الأسباب التى جعلها الله أسباباً يسر له رزقه ، ورزقه من السماء والأرض . قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب) فسبحانه وسع كل مخلوق رزقاً (وكأين من دابة لاتحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم) .

فمن النمس الرزق من غيره باء بصفقة المغبون (إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ، واشكروا له إليه ترجعون) .

وهو الواسع وسع كل شىء عناية ورعاية ؛ فبعنايته ورعايته قامت السموات والأرض وما فيهن (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) .

وهو الواسع ، وسعت هدايته كل طلاب الهداية (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) .

وهو الواسع وسعت شريعته مصالح عباده فى معاشهم ومعادهم فجاءت شريعة واسعة كاملة تامة لاتحتاج إلى من يكملها أو يضيف إليها ، فمن ابتدع فى شريعة الله ودينه بدعة فقد ألحد فى أسماء الله تعالى ، وجحد مظهراً من مظاهر إسمه تعالى الواسع الذى من مظاهره سعة شريعته وشمولها لكل ما فيه سعادة عباده فى دنياهم وآخرتهم .

وهو الواسع وسع سلطانه ملكوت السموات والأرض (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم) !

وهو الواسع الذى يسع بعطاه كل فقير ، اقتضت حكمته أن يغنيه ، وتعلقت مشيئته ببسط الرزق له (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيما) .

وهو الواسع ، وسعت قدرته كل ممكن ، لايعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ووسعت مغفرته كل تائب من ذنبه ، وكل مجتنب لكبائر الإثم والفواحش . قال تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

وقال تعالى (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) .

أسألك يا واسع ياحكيم ياعليم يامن وسعت كل شىء رحمة وعلماً ، ووسعت مغفرتك كل تائب ، ووسع عطاؤك كل سائل ، أن تؤتينى من لدنك رحمة ، وتهيىء لى من أمرى رشداً .

٥٢ — الودود

أذكّر القارىء الكريم بما سبق أنى قررته فى بعض الفصول الماضية : من أن أسماء الأجناس الحسية سبقت فى الوضع أسماء الأجناس المعنوية ، التى لم توضع إلا بعد أن ارتقى العقل الإنسانى ، وسما إلى إدراك المعانى المجردة ، والأمور المعنوية ، فاستعارلها أسماء الأمور الحسية للدلالة عليها .

ومن ذلك كلمة «الود» فأصلها للوتد أو الجبل . قال الفيروزابادى فى القاموس المحيط : والوَد الوتد والجبل . وذلك أن الوتد ملازم لمكانه الذى يوضع فيه ، ويشتد اللزوم بينه وبين الأطناب التى تشتد إليه . والجبل كذلك ملازم لمكانه لرسوخه به وتمكنه منه . فلما أرادوا أن يعبروا عن معانى الملازمة الشديدة أو التعلق الشديد وهما من الأمور المعنوية — أخذوا هذه الكلمة الموضوعة لهذا الجنس الحسى ، ووضعوها لهذا الأمر المعنوى ، وسموه : ودا ، ثم تصرفوا فيه فجعلوه مثلث . الأول : أى ينطق بفتح الواو وضمها وكسرها . وأطلقوه على الحب المتعلق بالشىء ، أو المتمنى له ، كما أطلقوه على حب الشىء ، وتمنى حصوله . للتلازم بين المحب والمحبوب ، ولتعلق الشخص بالشىء الذى يتمناه . يتبين من ذلك أن للود معنيين :

الأول : تمنى حصول الشىء ، . كقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وقوله تعالى : (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) وقوله تعالى : (يود المجرم

لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه) لأن هذه الأمانى كلها تبدو من أصحابها بعد فوات وقتها ، وحين استحالة حصولها .

والود بهذا المعنى محال على رب العزة سبحانه ، لأنه صفة العاجز الذى يفوته الشىء . أو يتعذر عليه الطلب ، فتتعلق به آماله حتى لا يمكن دركه ، وتتبعه نفسه حين يكون حصوله مستحيلا . فالمؤمنون ببدر كانوا يتمنون أن العير غير ذات الشوكة تكون لهم ، وقد نجت العير وفاتتهم وأصبحت بمنجاة من ظفرهم بها ، ولم يبق أمامهم إلا النفير بشوكته وسلاحه وعدته وعتاده. فكانوا يتمنون محالا أو متعذراً على أقل تقدير . والكفار يتمنون يوم القيامة لو أنهم آمنوا فى الدنيا ، والمجرم يتمنى لو يفتدى نفسه من عذاب النار بأبنائه . وكلتا الأمنيتين لا يمكن تحقيقها ، لأن الحياة الدنيا — وهى وقت الإيمان — تكون يوم القيامة قد انقضت بغير رجعة ، ولأن عدل الله المطلق يأبى أن تجزى نفس عن نفس شيئاً .

ورب العزة سبحانه لا يتعذر عليه مطلب ، ولا يفوت قدرته أمر ، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؛ فالأمانى محالة عليه تعالى ، لأنها مطالب العاجزين ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

الثانى : محبة الشىء . والله تعالى يحب الصالحين من عباده ، وعباده الصالحون يحبونه . قال تعالى : (٥ : ٥٤ يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) وقال تعالى : (والذين آمنوا أشد حبا لله) .

إذا تقرر هذا عدنا إلى اسمه تعالى « الودود » فنقول : إن اشتقاقه من الود بمعنى الحب فهو فعول : إما بمعنى : فاعل : أى أنه محب لعباده الصالحين ، وإما بمعنى مفعول: أى أنه محبوبهم وعلى كلا التقديرين : فهو يستلزم المعنيين جميعاً ، لأن الفرق بين الحب والود: أن الحب قد يكون من جانب واحد ، كحب المال والمنصب ، وحب الولد العاق، وحب الزوج

الجميلة الفاشز . وأما الود : فالغالب أنه يكون بين متوادين : أى بين طرفين يتبادلان الود، قال تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ولاجرم أن الزوجين إذا تحابا : حرص كل منهما على أن يبادل صاحبه الود . وقال تعالى : (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى أنهم اتخذوا الأوثان معبودات ليتحابوا ويتبادلوا الود . وقال تعالى : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يودون من حادَّ الله ورسوله) أى يبادلونهم الود .

وهناك فرق دقيق بين الحب والمودة يدرك بالذوق السليم ، وهو أن المودة يلحظ فيها فوق معنى الحب : معنى الإعطاء والمنح . يقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عَدُوِّى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) أى : بأسبابها : من بذل النصح والإرشاد وإرادة الخير . والله تعالى ودود كثير الود يبدأ عباده بأسباب محبته ، ويفيض عليهم من خزائن فضله ورحمته .

ذرات من الطين والحمأ المسنون . وقطرات من الماء المهين نظر إليها الودود سبحانه نظر رحمة وإحسان ، ونفخ فيها من روحه ليهبها الحياة التى تحقق الاستمتاع بما يليها من النعم ، فإذا هى كائن حى ، وبشر سوى ، وإنسان كامل الخلق ذو حواس يجيلها ، وأعضاء يتصرف بها ، وعقل يدرك ويدبر .

ولقد نظر الودود جل ثناؤه إلى هذا الجهاز البشرى نظر رحمة وإحسان ، فأمده بكل مايلزم لنموه وحفظه وبقائه وصلاحه من قلب ينبض ، فيوزع الدم على جميع أعضاء الجسم ، وشرايين يجرى فيها الدم النقى ليغذى جميع الخلايا ويعوضها مافقد منها فى الحركة والعمل ، وأوردة يعود فيها الدم إلى القلب والرئتين ، ليفال ما يلزمه من النقاء والصلاح والحرارة من أوكسجين الهواء ، وأمده بأسنان وقواطع وأضراس تقضم الطعام وتفتته وتطحنه ، ليسهل ازدراده وهضمه ، ولعاب يبلل الطعام حتى يسهل عمل الأسنان فيه ، ولسان يحركه ليتيسر بلعه . وبلعوم يجتازه الطعام فى انتقاله من الفم إلى المرىء ، ومعدة تتلقى الطعام والشراب

من المرىء وتبذل له عصارتها المختلفة التى تليينه وتعده ليسلك طريقه فى الأمعاء لهضمه ، وامتصاص حاجة الجسم منه وكبد تمده بالصفراء لهضم الدهن ، وتمد الجسم بالسكر إن أعوزه وتخلص الغذاء مما فيه من سموم وصلت إليه على غير علم من الإنسان ، وأمده الودود سبحانه بجهاز إخراجى ينفى عن الجسم مايضر بقاؤه فيه من البقايا والسموم، التى قلما يخلو منها طعام. وجعل له جهازاً عصبياً كأسلاك البرق، أو شبكة الكهرباء، فلا يكاد الأمر يصدر فى مركز التدبير من الدماغ حتى يصل عن طريق الأعصاب إلى أبعد عضو فى الجسم وإلى أقربه على سواء ، فى أقل من لمح البصر بطريقة لاتدرك كنهها العقول ، ولا تحيط بها الأفهام .

ماذا أقول ؟ . وماذا أصف ؟ .

لو أننى حاولت أن أصف آثار فضل الودود سبحانه على خلقه فى خلية واحدة من خلايا الجسم فى خلقها ، ومنحها الحياة ، وإمدادها بالغذاء والماء ، وانقسامها وتكاثرها ، وغير ذلك من مظاهر حياتها التى هى بعض إنعامه وإحسانه : لضاق نطاق هذه الأوراق ، فكيف يوصف عضو كامل يتألف من ملايين الخلايا ؟ فكيف يوصف البدن كله وفيه ما نعرف ومالا نعرف من مختلف الأعضاء ذات الوظائف المنوعة ، والأعمال المختلفة ؟ .

علم الودود جل ثناؤه أن الإنسان الذى جعله خليفة فى الأرض لا يعيش إلا بغذاء وكساء وهواء ، فخلق له مافى الأرض جميعا وأنزل له من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأنبت له فيها من كل زوج بهيج : متاعا له ولأنعامه .

من الناس من عرف نعمة الودود عليه فأحبه من كل قلبه ، وتقرب إليه بأداء الفرائض وازداد تقربا وازدلافا بالنوافل ، فصار من الذين قال الودود سبحانه فيهم (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) .

والودود سبحانه يجزى على الود الذى يكون من عباده بود خير منه وأكثر بركة وفضلا. روى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن

ربه « إذ تقرب العبد إلىّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وإذا أتانى مشيا أتيته هرولة » .

ويشهد بصدق هذا قوله تعالى . (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) فالودود سبحانه لا يبغض عبداً أحبه وأخلص له الود ، وتقرب إليه بما يكون سببا فى رضاه .

روى البخارى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قال : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ... » .

فانظر إلى ما يترتب على التقرب إلى الودود سبحانه من الخيرات والبركات التى لو فطن لها الغافلون لضحوا بأثمن ما يملكون ابتغاء مرضاته وازدلافا إليه .

ومنهم من عرف نعمة الودود سبحانه ثم أنكرها ، وذلك هو الغافل الكنود الذى يجحد فضل الله عليه وإحسانه إليه . وهو الذى عناه الودود سبحانه بقوله (إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد) .

ولكن الودود سبحانه — لواسع رحمته وعظم إحسانه — لو تاب إليه هذا الكنود واستغفره لقبل توبته ، وتولاه بإحسانه ورحمته . قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام وهو يدعو قومه إلى الرجوع إلى ربهم (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود) . فلو أنهم استجابوا لنصح نبيهم وتعرضوا لنفحات الودود سبحانه لنالوا خيراً كثيراً ولكنهم لم يفعلوا فبطش بهم وانتقم منهم . (إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد . وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد) فهو الغفور الودود لمن خاف مقامه ونهى نفسه عن هواها ، وأناب إليه متعرضا لنفحات رحمته ، وهو شديد البطش على من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وكند فضل الودود جل ثناؤه .

وبعد ، فما ظنك بهؤلاء الغافلين الذين يعرضون عن الودود سبحانه ، ويتقربون إلى الموتى بما ذرأ لهم الودود من الحرث والأنعام ، وما أمدهم به من الورق النضار ؟

ولو عقل هؤلاء الغافلون لعلموا أن الودود الذى خلق ورزق أحق بالتقرب والازدلاف من الموتى الذين لم يخلقوا ، ولم يرزقوا ، بل هم مخلوقون مسترزقون . فلم تلك الذبائح التى تراق دماؤها تقربا إلى مخلوق لا يودّهم ولا يملك لهم ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً ؟ لم هذه الأموال التى توضع فى الخزائن التى ألصقها المحتالون بقبور هؤلاء الموتى ، ليضع فيها هؤلاء السفهاء أموالهم التى جعلها الله لهم قياما ؟

أما إنهم لو عقلوا لتقربوا بهذه الذبائح إلى الله الودود الذى يقابل ودهم بود خير منه . أما إنهم لو عقلوا لأسهموا فى أعمال الخير ، ومؤسسات البر بهذه الأموال بدل إلقائها فى صندوق النذور ليأخذها الواجدون ، وينتفع بها الأغنياء والموسرون . ولو أنهم ادخروها لأبنائهم لكان خيراً لهم وأمثل طريقا .

إن هؤلاء الموتى مهما يتقربوا إليهم فلن يجعلوا لهم ودًّا بل سيكونون لهم أعداء لدًّا . (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء . وكانوا بعبادتهم كافرين) .

٥٣ ــ الولى ٥٤ ــ المولى ٥٥ ــ الوالى

هذه الأسماء الكريمة ثلاثتها مشتقة من الولى وهو القرب ، تقول : المؤمن يسعى الله تعالى ، ويأكل مما يليه أى يقرب منه ، والولاء والتوالى أن يحصل شيئان فصاعداً وليس بينهما مالیس منهما ، ويستعار ذلك ــ كما قال الراغب ــ للقرب من حيث الزمان والمكان والنسبة والنصرة والصداقة والدين والاعتقاد .

١ — الـــولىّ

ولىّ الشخص قريبه الذى له حق رعايته والقيام عليه وتدبير أمره والمطالبة بحقوقه .

قال عليه الصلاة والسلام . « أيما امرأة تزوجت بغير إذن وليها فنكاحها باطل » أى بغير إذن قريبها الذى له حق رعايتها وتدبير أمرها كأبيها أو أخيها أو عمها . وقال تعالى . (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) أى لقريبه الذى له حق المطالبة بدمه . وقال تعالى : فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) أى كأنه قريب يرعى شأنك ويهتم بأمرك ، (فإذا أنت أثبتّ هذا المعنى وتبينته فى جلاء ووضوح استطعت أن تدرك على ضوئه معنى اسمه تعالى « الولىّ » فهو فعيل بمعنى فاعل من وليه إذا قام برعايته وتدبيره وحفظه ، فهو سبحانه القائم برعاية العالم وتدبير الخلق ، وتشريع الشرائع لحفظ الحقوق .

فمن رعايته تعالى للعالم أنه يمسك السموات والأرض أن تزولا ، وأنه يبقى على حياة الحيوان إلى أجل مسمى ، وذلك بتنظيم نبض القلوب ، وسريان الدم فى الشرايين والأوردة ومنح القوى الغاذية والهاضمة والمفرزة وغيرها مما تقوم به الحياة ، وأنه يسخر للنبات غذاءه من التربة والماء والهواء ، فينمو ويزهر ويثمر .

ألم تر إلى الأب الحدِب العطوف كيف يرعى ولده ويعمل على ما فيه راحتهم وسعادتهم إن الولىّ الحميد سبحانه لأشد رعاية لهذا العالم : ملائكته وإنسه وجنه وحيوانه ونباته وسائر موجوداته من الوالد لولده .

ومن تدبيره سبحانه للخلق أنه وضع كل نجم فى مداره ، وكل كوكب فى مساره ، وزين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوما للشياطين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، ووضع الأرض من الشمس بحيث يكون الضوء والحرارة الواصلان من الشمس إلى الأرض كفاء حاجتها ووفق مطالبها . لم يزيدا فيقتلا جفافاً وإحراقاً ، ولم ينقصا فيهلكا صقيعاً وظلاماً وبرداً ، وقدّر فى الأرض أقواتها وألقى فيها رواسى حتى لا تميد بمن عليها ، وأجرى فيها الأنهار وروافدها ، وفجر فيها الينابيع والعيون وأنبت الزرع والزيتون ، والنخيل والرمان ومن كل الثمرات ، رزقاً للعباد ، ومتاعاً للإنسان والحيوان وأودع بطن الأرض من الفلزّات والمعدنيات ما هدى الإنسان إلى استخدامه فى شتى أغراضه والانتفاع به فى مختلف شئونه ولم يغفل عن رعاية العالم وتدبيره طرفة عين ولا أقل من ذلك ، إذ لو ترك

تدبير العالم طرفة عين أو ومضة برق لفسدت السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن ، واضطربت النجوم فى مداراتها ، وتهاوت الكواكب من أفلاكها ، واصطدمت الأجرام السحرية بعضها فى بعض ، وصعق من فى السموات ومن فى الأرض .

ألم تر إلى الولى الحميد سبحانه يجعل الغذاء بمحكم تدبيره دما معوضا غاذيا يكون سمعا فى الأذن ، وبصراً فى العين ، ، وشمًّا فى الأنف ، وذوقا فى اللسان وحسًّا فى الجلد وقوة فى البدن وإدراكا وذكاء وتخيلا وتذكرًا فى الدماغ ؟ .

فهل فى الوجود من يملك كل هذا التدبير أو بعضه أو أقل القليل منه ؟ كلا إن ذلك مما استأثر به الولى الحميد سبحانه لم يمنح مثقال ذرة منه أحداً من خلقه لا نبياً مرسلا ، ولا ملكا مقربا . بل تفرد وحده بالخلق والأمر والتدبير .

ومن تشريعه لحفظ العقول والأجسام والعقائد والأموال والأعراض ما تجده فى كتابه الكريم ، وسنة رسوله الأمين من التكاليف الشرعية وفرض الفرائض وتحريم المحرمات والأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والعدوان.

فسبحانه هو ولى الخلق ومدبّر الشئون ومصرف الأمور . قال تعالى : (أم اتخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولى وهو يحيي الموتى وهو على كل شىء قدير) ينكر سبحانه على المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا وهم يقرون أن الأمر له وحده لاشريك له : فهو وحده الولى الذى يتولى أمور الخلق جميعاً وهو يحيي الموتى وهو على كل شىء قدير .

وقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم (« قل أغير الله أتخذ ولياً ، فاطر السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطْعَم) يأمره جل شأنه أن ينكر على قومه ما كانوا أحيانا يدعونه إليه من عبادة آلهتهم حتى يعبدوا إلهه ، ويقول لهم : أيسوغ فى قضية العقل أن اتخذ غير الله وليًّا يتولى أمرى ، ويتعهد شأنى ، وغيره تعالى لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض،

ورب العالمين سبحانه هو فاطر السموات والأرض وهو الرزاق ذو القوة المتين الذى يرزق الأنام وهو غنى عن العالمين ؟.

وقد نفى سبحانه الولاية عن غيره فى كثير من آيات كتابه الكريم ؟ قال تعالى : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون) وقال تعالى : (وذكّر به أن تُبْسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع) وقال سبحانه : (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وقال جل شأنه : (مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً) وقال تبارك اسمه : (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله) وقال جل ثناؤه : (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء) .

وبين سبحانه أن الملائكة المقربين معترفون بتفرده تعالى بالولاية لا يقرون بها لأحد من خلقه . قال تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن . أكثرهم بهم مؤمنون).

وقرر جل ثناؤه أن صفوة البشر وهم الأنبياء والمرسلون يقرون بتفرده تعالى بالولاية ، ولا يعترفون بولاية أحد غيره ، قال تعالى حاكياً ماقال موسى عليه السلام حين أخذت قومه الرجفة (إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الراحمين) .

وقال تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام : (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، وتوفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) .

وأنبأنا جل شأنه أن جميع المعبودات التى ضل المفتونون بعبادتها من دون الله تقرّ له تعالى بالتفرد بالولاية . قال تعالى : يوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم

أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) .

وقد تناول سبحانه بالتقريع والتبكيت من اتخذوا الأولياء من دونه ، وهو سبحانه الولى الذى ليس للمخلوقين ولى غيره ، فقال تعالى: (وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ، وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا) وقال تعالى : (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) وقال تعالى : (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ؟) .

وإذا كان ربنا جل شأنه هو الولى ، أفليس من أحمق الحمق ، وأسفه السفه ، أن يتخذ الناس أولياء من دونه ؟ .

أيبتغون عندهم القوة وهم ضعفاء ؟

أيبتغون عندهم العزة وهم أذلاء ؟ .

أيبتغون عندهم الغنى وهم فقراء ؟ .

وقد ضرب سبحانه الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، وبين لهم أن الذين يتخذون من دون الله أولياء غافلون مخدوعون ، لأن أولياءهم لا يغنون عنهم شيئاً ، ولا يملكون لهم ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرّا ، قال تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وقال تعالى (من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ، ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) .

أيحسب أولئك الأغرار ، أن أولياءهم يقربونهم إلى الله ، وغفلوا عن أن الله سبحانه ، لا يقرّب إليه إلا التقوى ، ولا يظفر بولايته إلا صالح العمل ؟ .

وصدق الله إذ يقول : (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) .

الولى ـ المولى ـ الوالى

تتمة البحث :

هذا ، وتأتى الولاية بمعنى المحبة والنصرة ، فتكون صفة لرب العزة سبحانه ، ولرسوله المجتبى صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين . قال تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) .

فالولى هنا بمعنى الناصر والمحب والصديق . فرب العزة سبحانه يحب المؤمنين ويؤيدهم بنصره ، والرسول صلى الله عليه وسلم يحب المؤمنين ، والمؤمنون يحبون الله وينصرون دينه ، ويحبون الرسول وينصرون سنته ، ويحب بعضهم بعضا .

وتكون الولاية بين المؤمنين بعضهم وبعض . قال الله تعالى : (والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) .

وقد نهى سبحانه عن اتخاذ الكافرين أولياء ، وشدد النكير فى ذلك ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ؛ أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى . تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم . ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) .

وقال تعالى : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ، ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيراً منهم فاسقون) .

وقال تعالى : (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً) .

وتأتى كلمة « ولى » صفة للمؤمن التقى المطيع لربه ، فتكون بمعنى « مفعول » أى الذى تولاه ربه بفضله ورحمته وعنايته وتوفيقه جزاء إيمانه وتقواه . أو بمعنى «فاعل» أى المحب لله تعالى ، الناصر لدينه . ولاجرم أن من يكون كذلك يكون موضع عناية الله تعالى ورعايته وتوفيقه . قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم) .

ولقد أضل الشيطان بالأولياء أناسيّ كثيراً ، حسبوا أن الله تعالى يختارهم عفواً بغير عمل صالح يعملونه ، وبغير بلاء حسن يبلونه . فراحوا يخلعون الولاية على كل أبله رث الثياب ، وكل معتوه دنس الإهاب ، وكل دعى دجال ، وكل أفاك محتال ، ويحسبون أنهم يملكون الخير والشر ، والنفع والضر ، ولم يفرقوا بين حى تسعى به القدم ، وميت استأثر به العدم .

أما الموتى فقد نذروا لهم النذور ، وأطلقوا حول قبورهم دخان البخور ، وضمخوا قبورهم بالطيوب والعطور ، وشدوا إليها الرحال ، واختلط فى رحابها النساء بالرجال ، ووقفوا أمامها فى خشوع دونه خشوعهم فى الصلاة لو كانوا يصلون . وعفروا على أعتابها الجباه ، وهم يسجدون ، وربما سالت على وجناتهم الدموع ، من فرط الخشية والخشوع واتخذوا هذه الأجداث أعياداً يسمونها « موالد » وهى من البدع المنكرة والضلالات التى عصم الله منها السلف الصالح ، إنها لتنطوى على مفاسد شتى وشر كثير ، تحمل على الإفراط فى السهر الذى يضيع صلاة الصبح ويهدم الصحة ، وتدعو إلى الإسراف فى المال ، والتعرض للعنة الله باتخاذ السرج على القبور ، وانتهاك حرمة المساجد ، وتعرض النساء للفتنة بخروجهن فى غسق الليل ، وتربص الفساق بهن ، والاجتماع حول الأنصاب ، ومايحدث فيه من الأمور المخزية ، والمناظر المؤذية ، التى تطيل ألسنة القادحين والمستهزئين بالدين . وشر مافيها مايحدث فى يومها الأخير من خروج مواكب الأوثان بثيابها وعمائمها

على الإبل ، والطواف بها فى أنحاء المدينة بين تهكم المتهكمين ، وسخرية الساخرين ، وفى ذلك إحياء لوثنية الفراعنة الأقدمين ، الذين كانوا يتخذون مثل هذه المواكب لوثنهم المعبود : آمون .

أما الأحياء فقد عزوا إليهم علم الغيب الذى استأثر به رب العالمين ، وظنوا أنهم يعلمون سرهم ونجواهم ، فخافوهم بالغيب ، وأطاعوهم فى السر والعلن ، وألقوا إليهم السلم ، وسلموا إليهم المقادة ، وآتوهم ما يطلبون ، وفوق ما يطلبون ، حتى لو طلب أحدهم إلى مريده زوجه ليخلو بها الخلوة المحرمة ، لقرت بذلك عينه ، وثلج صدره .

أترى أولئك الدجالون بعد مسغبة وفقر ، وملكوا القصور والقصور بعد تشرد ، وعزوا بعد ذلة ، وانحنت بين أيديهم هامات الغافلين ، وقد يكون أحدهم قد مضى شطرا من عمره بين جنبات السجون ، يبوء بحمل السلاسل والأغلال ، وينهض بأشق الأعمال . فلم تكد تلفظهم أبواب السجون حتى نزحوا إلى أمكنة نائية يجهل سكانها ماضيهم ، واتخذوا من العمائم واللحى ، والسبح والمساويك حبائل لاقتناص الأغرار الغافلين .

ليست الولاية منحة تمنح ولا هبة توهب ، ولكنها فريضة مفروضة ، لها ركنان ، هما : الإيمان والتقوى . والناس جميعاً مطالبون بالإيمان ، مكلفون التقوى ، فمن لم يؤمن فهو كافر خالد فى النار ، ملعون مطرود من رحمة الله ، ومن آمن ولم يتق فهو فاسق لاحظ له فى رضوان الله .

أما إن الناس لو اتبعوا الحق من ربهم لأعتقوا أنفسهم من رق الدجالين ، وأدعياء التدين الكاذبين ، الذين يفرضون عليهم سلطانهم ، ويستذلون أعناقهم ، ويبتزون أموالهم .

لو أنهم اتبعوا الحق من ربهم لعاشوا أعزة كراما ، وقضيت حاجاتهم بالوسائل المشروعة الخاضعة لنظام الأسباب والمسببات ، وظفروا بما يبتغون .

ب — المولى

كل من ولى أمراً أو قام به فهو وليه ومولاه . وعلى ذلك : يكون اسمه تعالى « المولى » واسمه تعالى « الولى » بمعنى واحد .

وكلمة « الولى » تدل لغة على معان كثيرة ، فتدل على الرب والمالك والسيد والمنعم والناصر والمحب والمعتق والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد . وهى بالمعانى الستة الأولى يصح إطلاقها على رب العزة سبحانه . فهو الرب ، والمالك ، والسيد ، والمنعم والناصر لرسله والذين آمنوا ، والمحب للمحسنين والصابرين من عباده . أما باقى المعانى فهى خاصة بالمخلوقين .

ومن عجب أن المولى يطلق على العبد كما يطلق على السيد .

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالى

وقال بعضهم : مولاك يامولاى طالب جاحة : أى عبدك ياسيدى طالب حاجة .

وقد جاءت فى القرآن الكريم بمعنى الرب فى قوله تعالى : ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم . وهو أسرع الحاسبين) وفى قوله تعالى: (واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) .

وجاءت بمعنى الناصر فى قوله تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) وفى قوله تعالى : (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) وفى قوله تعالى : (بل الله مولاكم، وهو خير الناصرين) .

ج - الوالى

الوالى : مالك الأشياء كلها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فاسمه تعالى « الوالى » يجمع كل هذه المعانى . فهو المالك المتصرف فيما يملك ، القادر الذى لايعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض .

قال تعالى : (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال) .

فنسبة التصرف المطلق إلى غيره تعالى : شرك مخرج من الملة ، ومن هذا تعلم مافى قول العامة وأشباههم « أهل التصريف » وهم يعنون الأولياء الذين يعتقدون أنهم يتصرفون فى الخلق ، فيضرون وينفعون بقوى خفية ، وراء نظام الأسباب والمسببات الكونية .

والله يقول الحق . وهو يهدى السبيل .

٥٦ — الحق

«الحق» فى الأصل مصدر بمعنى المطابقة والموافقة . تقول : حَقَّ الصمامُ القارورةَ حقاً أى طابقها ووافقها ، ثم استعمل فى كل شىء مطابق وموافق : إما للواقع ، مثل : اعتقاد أنصار السنة فى الأولياء حق ، أى مطابق وموافق للواقع ، وقولهم عليهم حق ، أى مطابق وموافق للواقع ، ودعوتهم إلى سبيل الله حق ، أى مطابقة وموافقة للواقع ، وإما لمقتضى الحكمة ، مثل قضاء الله حق أى مطابق ، وموافق لمقتضى الحكمة . ثم استعمل فى الأمر الواقع الثابت نفسه فتقول : الإسلام حق ، والموت حق ، والبعث حق ، والجنة حق ، والنار حق ، أى أمر واقع ثابت فى نفسه لا ينبغى أن يشك فيه . وَدَيْنُكَ على فلان حق أى ثابت ، ولك عليه حق أى دين ثابت ، ولقد سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البعث : أهو حق ؟ أى أمر ثابت لاشك فيه . قال تعالى : (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق) وكل ماليس واقعاً ولا ثابتاً فهو باطل ، وبذلك يكون الحق ضد الباطل .

هذه هى المعانى اللغوية لهذه الكلمة .

ورب العزة سبحانه يخاطب الناس بما يفهمون ، وقد سمى نفسه «الحق» وأخبر عباده بذلك فى كتابه الكريم ، وهو قرآن عربى مبين . وهم يفهمون معنى كلمة « الحق » فى لغتهم فماذا كان عليهم أن يفهموا من هذه الكلمة ؟ وما المعنى الذى كان ينبغى أن يتمثل لأذهانهم من هذا الاسم الجليل ؟ .

كان عليهم أن يفهموا أن معنى اسم الله تعالى « الحق » أنه الإله الذى إلهيته ثابتة ومحققة ، قام عليها برهان الفطرة ، وحجة العقل ، وشهد بها مافى الوجود جميعاً من ناطق وصامت . يشهد بهذا ماقال الله تعالى فى سورة يونس وهو يعلّم رسوله كيف يجادل المشركين ويقيم الحجة عليهم : (١٠ : ٣١ ، ٣٢ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنّى تصرفون ؟) .

علم رب العزة جل ثناؤه أنهم يؤمنون فى قرارة أنفسهم ، وفى صميم وجدانهم : أن مقدر الأرزاق ومسخرها ، ومالك السمع والأبصار ، ومخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ومدبر أمر هذا الكون هو الله رب العالمين ، وأنهم إذا سئلوا عن المتفرد بهذه الأمور كلها فسيجيبون لامحالة بأن الله هو المنفرد بهذه الأمور . علّم رسوله أن يوجه إليهم هذا السؤال ، حتى إذا أجابوا عنه بالجواب الذى تدعو إليه الفطرة ، ويحتّمه الوجدان ، والذى لايقبل العقل السليم غيره أخذ الحجة من جوابهم ، وقال لهم : إذا كنتم تقرون وتعترفون بأنه لايفعل كل هذه الأمور التى سئلتم عنها إلا الله ، فاعلموا أن الله الذى يفعل كل هذا هو ربكم الحق ، أى الذى ربوبيته ثابتة محققة لاشك فيهـــا ، وأما الآلهة التى تدعونها من دونه فهى ضـلال وباطل ، إذ ليست موصوفة بشىء من صفات الله الحق ، وليست تقدر على شىء مما يقدر عليه الإله الحق ، فالله هو ربكم الحق ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، فالانصراف عن عبادة الله الحق إلى عبادة الباطل من سفه النفس وغبن الرأى وأفن العقل .

ويوم ترفع الحجب ، وتكشف الأغطية ، وتتجلى آثار القدرة الإلهية ، واضحة جلية ، حين تنطق الأيدى ، وتشهد الأرجل ، ويوفّى كل عامل ماعمل : يدرك الناس جميعاً : مؤمنهم وكافرهم ، موحدهم ومشركهم : إن كل ماتعلقت به النفس فى الدنيا من

الملذات والشهوات ، وكل ماضحت بالإيمان من أجله من الشرور والموبقات ، وكل ماعبدت من دون الله جل ثناؤه ، إنما هو وهم باطل ، وظل زائل ، وسناد مائل ، وأن الله وحده هو الحق . قال تعالى فى سورة النور (٢٤ : ٢٣ ـ ٢٥ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعِنُوا فى الدنيا والآخرة . ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

والله الحق هو الذى يقدر على خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ، كما يقدر على خلق غيره من الكائنات الحية وغير الحية ، ويقدر على إعادته بعد الموت لتجزى كل نفس بما تسعى . أما المعبودات الباطلة ، والطواغيت المعبودة من دون الله فلا تقدر على خلق شىء ، بل هى مخلوقة مسخرة للخالق الحق سبحانه . قال تعالى : (٢٢ : ٥ ، ٦ قل يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم مَن يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شىء قدير)

والإله الحق هو الذى ينصر المجاهدين فى سبيله، ويشد أزرهم، ويخذل الباطل والمبطلين ، ويرد كيدهم فى نحورهم ، وسهامهم إلى صدورهم ، لأنه قوى عزيز يملك أسباب النصر والخذلان ، وبيده ملكوت كل شىء ، وكل مظاهر الوجود شاهدة بأنه الحق . أما الباطل الذى يعبده المبطلون ، والطاغوت التى يدعوها الجاهلون ، والمخلوقات العاجزة الضعيفة الزائلة التى يخلع عليها المتعصبون الجامدون صفات الألوهية ونعوت الربوبية إفكا وزوراً . فلا تملك شيئا ولا تقدر على شىء ، وكلها مملوكة خاضعة لأحكام القدر ، مسخرة بأمر الحق ، عانية فى قبضة القضاء . قال تعالى : (٢٢ : ٦١ ، ٦٢ ذلك ، ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بُغى عليه لينصرنه الله . إن الله لعفو غفور . ذلك بأن الله يولج الليل فى

النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير) .

وقال تعالى فى سبيل الاستدلال بمظاهر الوجود ، وآياته فى الآفاق على أنه الحق ، وأن ماعبد من دونه هو الباطل : (٣١ : ١٩ ، ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى إلى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير) .

والناس لفرط ظلمهم وجهلهم ، وإغواء الشيطان إياهم ، واستمساكهم بعادات أسلافهم السيئة ، وعقائدهم الفاسدة ـ يلجّون فى عتوهم ونفورهم ، ويستكبرون فى الأرض بغير الحق ، ويعبدون ماشاء لهم الهوى ، ومازينه الشيطان فى صدورهم ، والله الحق يملى لهم ماشاء أن يملى ، ويكتب عليهم ماهم فاعلون ، ثم يقهرهم بالموت ، ويردهم إليه ليحكم بينهم ويجزيهم بأعمالهم . قال تعالى : (٦ : ٦١ ، ٦٢ وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لايفرطون ، ثم رُدّوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) .

تعالى الحق سبحانه أن يخلق الناس عبثا ، أو يتركهم سدى ، أو يدع الخلق هملا وهو سبحانه قد استوى على العرش يدبر الأمر . قال تعالى (٢٣ : ١١٤ ، ١١٦ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم) .

والملك الحق سبحانه يرشد عباده إلى مافيه خيرهم وسعادتهم ، وفوزهم وفلاحهم ، ويحذرهم مايؤذيهم ويضرهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم . ومن أجل ذلك أخبر الحق سبحانه بتوعد الشيطان بنى آدم ليأخذوا حذرهم ، ويتنبهوا لكيده ولا يستجيبوا لإغرائه . قص الحق سبحانه علينا توعد الشيطان إيانا ، وبين لنا المصير الذى ينتظر كل

من عصى الرحمن وأطاع الشيطان حتى نكون على بينة من الأمر ، فلا نؤخذ على غرة ـ قال تعالى : (٣٨ : ٨٢ ـ ٨٥ قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ـ قال : فالحقُّ والحقَّ أقول : لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) .

والملك الحق تبارك اسمه يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . وإحقاق الحق إثباته بالآيات البينات التي يجريها على أيدي رسله الكرام وبالأدلة القاطعة ، والحجج الناصعة من كتبه المطهرة ، ومايلهمه المصلحين من ورثة الأنبياء ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . ومن إحقاق الحق : إكمال الشريعة ، وبثها وإظهارها على باطل الشرائع ومنسوخها قال تعالى : (٦١ : ٩ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

وقد تفضل الحق سبحانه فكتب النجاة والنصر لرسله وأوليائه وللمؤمنين الذين يتبعون سبيلهم ، ويهتدون بهديهم . وما كتبه الله لأهل الحق فلن يمحوه المبطلون ـ قال تعالى . (٣٠ : ٤٧ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات . فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقال تعالى : (١٠ : ١٢٠ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقاً علينا نُنْجِ المؤمنين) .

والملك الحق سبحانه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض كما يقتضيه علمه وحكمته ورحمته لا كما تتطلبه أهواء ذوي الأهواء ، وأغراض أولي الأغراض (٢٣ : ٧١ ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) .

والحق جل ثناؤه خلق السموات والأرض بالحق ، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ولكن الذين غلبهم الهوى على أمرهم ، واستحوذت عليهم تقاليد الجاهلية ، وملك قيادهم الحرص على ما كان عليه الآباء ، يسوءهم الحق ، ويؤذي أنفسهم فيبغضونه لأنه يزهق باطلهم ، وصدق الله إذ يقول : (٢٣ : ٧٠ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) .

ولكن الحق ظافر أبداً ، والباطل زاهق أبداً (١٧ : ٨١ وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا) .

٥٧ ـ الودود (أيضا)

يطلق « الود » فى اللغة على معنيين : أولهما محبة الشيء ، والثانى تمنى حصوله . على أن أن تمنى حصول الشيء مشعر بحبه ، لأن الإنسان لايتمنى حصول شيء إلا إذا كان يحبه .

وعلى ذلك : يكون « الود » هو الحب المجرد ، أو الحب المقرون بالتمنى . ويقرر فقه اللغة : أن استعمال الألفاظ فى المعقولات جاء بعد استعمالها فى المحسوسات ، وأن « الود » مأخوذ من الوتد ، لأن الوتد يتعلق بما يُشدّ به ويلازم مكانه ، ويثبت فيه ، فتُصوِّر منه معنى المودة والملازمة . وقد قلبت التاء دالاً .

و « الود » بين المخلوقين ضروب شتى ، تتنوع بتنوع علمها وأسبابها ، ويمكن ردها جميعاً إلى الأنس بالمودود ، والركون إلى عونه عند الحاجة ، فقد تودُّ شخصاً لأنك تأنس به ، وتستريح إلى لقائه ، لما بينك وبينه من مشاكلة فى بعض الأمور . وقد تودّه لأنك تأنس فيه عطفاً عليك ، واهتماماً بأمرك ، وحرصاً على نفعك مع القدرة عليه .

و « الود » مضافاً إلى رب العزة سبحانه حب مجرد عن التمنى ، لاستحالته عليه تعالى ، وتنزهه عنه .

و « والودود » من أسمائه الحسنى فَعُول بمعنى فاعل ، أو بمعنى مفعول . فإن كان بمعنى فاعل فمعناه كثير الحب لعباده المطيعين . فإن الله يحب المحسنين ، ويحب الصابرين ، ويقول تعالى فى سورة المائدة (٥ : ٥٤ يأيها الذين آمنوا من يرتدمنكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

غير أن ودّ الله لعباده ، وحبه إياهم ليس كودّ بعضهم لبعض ، فليس أثَر انفعال نفسىّ

تثيره أسبابه وعلله ، وليس للمشاكلة والمشابهة ، فإن رب العزة لامشاكلة ولا مشابهة بينه وبين شيء من خلقه . سبحانه (ليس كمثله شيء) ولا لأنه يؤنس فيهم عطفاً عليه وحرصاً على نفعه ، فهو سبحانه غنى عن العالمين ، ليس فى حاجة إلى عطف أحد ، ولا إلى نفع أحد ، بل جميع الخلق محتاجون إلى رحمته وفضله ، وإنما يَوَدُّهم لأنهم يحرصون على سعادة أنفسهم ، ويبتغون نجاتها بالإيمان والتقوى وصالح العمل . وودّه إياهم معناه : توليهم بالرحمة والمغفرة والرعاية والعناية ، ولذلك جاء اسمه تعالى (الودود) فى القرآن الكريم مرة مقروناً بالرحمة ، فى قوله تعالى فى سورة هود (١١ : ٩٠ إن ربى رحيم ودود) وجاء مرة مقروناً بالمغفرة فى قوله تعالى فى سورة البروج (٨٥ : ١٤ وهو الغفور الودود) .

فالرحيم الغفور الودود سبحانه محب لأوليائه يرضى عنهم ، ويثيبهم ويدافع عنهم ، ويؤيدهم بنصره ، ويثبت أقدامهم ، ويكف عنهم بأس الكافرين ، ويذكرهم فيمن عنده ، ويكتبهم مع الشاهدين ، ويفرج كربهم . ويستجيب دعاءهم ، ويقبل توبتهم ، ويزيدهم من فضله ، ويجعل لهم فرقاناً ، ويهديهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويؤتى الحكمة منهم من يشاء ، ويُرْبى صدقاتهم ، ولا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطأوا ، ويتم نعمته عليهم ، ويشرح صدورهم للإسلام ، ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض . ويشفى صدورهم ، ويذهب غيظ قلوبهم ، وينزل السكينة عليهم ، ويزيدهم هدى وإيماناً وقوة إلى قوتهم ، ويستخلفهم فى الأرض ، ويمكن لهم دينهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، ويصلح بالهم وأعمالهم ، ويهديهم إلى الطيب من القول ، ويرزقهم من حيث لايحتسبون ، ولا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم ، ولا يجعل للكافرين سبيلاً عليهم ، ويحييهم حياة طيبة يمتعهم فيها متاعاً حسناً . تلك بعض مظاهر وده تعالى لعباده الصالحين فى الحياة الدنيا .

وأما فى الآخرة : فإنه يجعل لهم قدم صدق عنده ، ويغفر ذنوبهم ، ويؤتيهم أجورهم ، ويكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، ويهب لهم من

لدنه رحمة ، ويقيهم عذاب النار ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها ماتشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم ، ويحلهم دار المقامة من فضله لايمسهم فيها نَصَب ولايمسهم فيها لُغوب، ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة ، ويُطاف عليهم بصِحاف من ذهب وأكواب ، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، ويُعِدّ لهم مالاعين رأت ، ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . هذه بعض مظاهر وده تعالى لعباده الصالحين فى الآخرة .

وقد استوعب هذه المعانى كلها فى بلاغة إيجاز ، وروعة إعجاز قوله تعالى فى سورة مريم: (١٨:٩٦ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا) .

تلك بعض وَمَضَات من مجالى اسمه تعالى الودود ، لايتفضل بها أحد غيره سبحانه ، ولا يملكها أحد سواه .

فإن زعم لك زاعم أن فلانا أو فلانا من شيوخ الطرق أو غيرهم ممن فوقهم أو ممن دونهم يملك أن ييسر لك رزقاً ، أو يجلب لك خيرا ، أو يكشف عنك ضرًّا، أو يغفرلك ذنبا ، أو يكفيك عقابا ، أو يمنحك ثوابا ، فاعلم أنه مفتر كذاب . ومسرف مرتاب ، ومشرك تلعاب لأن هذه مظاهر اسمه تعالى « الودود » لايملكها غيره ، ولا يمنحها سواه .

وإن كان بمعنى مفعول أى محبوب ، فهوالذى يحبه عباده الصالحون ، لأنهم يوقنون أنه ربهم الذى يربيهم بنعمه وفضله ، وواسع غناه وحكمته وعدله وأنه ذو السلطان المطلق، والرحمة الشاملة ، والمشيئة النافذة ، والقدرة التى لاحد لها ، وأنه المتصرف فى ملكوت السموات والأرض، وأنه مسبب الأسباب ، وأنهم يلجئون إلى فضله ورحمته إذا حزبَتْهم الأمور ، أو حاقت بهم الكروب . فهم يحبونه أعظم الحب ، ويذلون له أعظم الذل ، ويطيعونه ، ويقدرونه ، ويذكرونه ويشكرون له ، ويعبدونه ويخلصون له دينهم ، ويجاهدون فى سبيله بأموالهم وأنفسهم .

والحب بهذا المعنى لا يكون إلا لله تعالى ، ولا ينبغى أن يكون لأحدغيره . والمؤمن

يأنس بربه ؛ ويطمئن قلبه بذكره ، ويزداد إيمانا إذا أتليت عليه آياته وليس للمؤمن إلا محبوب واحد يعتقد أن بيده ملكوت كل شيء ، وأن ماناله من خير كسبي فهو بتوفيقه وهدايته ، وما وصل إليه بغير حساب : فهو بعنايته وتسخيره ، وأنه إذا تعذر عليه مطلب وكله إليه ، واعتمد في الظفر به عليه . ذلك هو الرحيم الودود . لارب غيره ، ولا مأمول إلا خيره .

وإذا كان الإحسان سببا من أسباب الود : فليس هناك إحسان أسمى من إحساس الله تعالى إلى عباده المؤمنين . لأنه أمدهم بما به يكونون سعداء في الدنيا والآخرة سعادة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ذلك بأنه هداهم إلى هذا الدين ، وعلمهم العقائد الصحيحة التي تسمو بها العقول وتخرج من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد والإخلاص . وأرشدهم إلى العبادات التي تتهذب بها أنفسهم ، وتتطهر بها قلوبهم ، وهداهم إلى الأخلاق الكريمة التي بها يتم تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم وتآزرهم وتعاونهم . ليس بين المخلوقين من يستطيع أن يحسن إلى غيره مثل هذا الإحسان ، وإذا فليس من المخلوقين من يستحق أن يكون محبوبا كحب الله تعالى .

أما المشركون : فهم يعتقدون أن كل ماوصل إليهم من خير فهو بفضل شركائهم أو شيوخهم ، فيتخذونهم من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، كما قال تعالى في سورة البقرة : (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله . ولو يرى الذين ظلموا إذْ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العقاب) .

ونحن نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما نحب أنفسنا ، ولايتم إيماننا إلا بذلك ولكن حبنا إياه ليس حب عبادة ، ولا حب من يعتقد أنه يتصرف في الملك والملكوت ، أو يملك لأحد نفعا أو ضراً ، بل حب تعظيم وتوقير ، ونصر وتعزير ، لأن الله تعالى أجرى الخير الذي وصل إلينا على يديه ، وأنزل الكتاب الكريم عليه ، ولأنه

عليه الصلاة والسلام حريص علينا رءوف رحيم بنا ، لم يترك شيئاً يقربنا من الجنة ، ويبعدنا عن النار إلا أمرنا به ولم يترك شيئاً يقربنا من النار ، ويبعدنا عن الجنة إلا نهانا عنه .

هذا وأكثر الناس يحبون الله لما أسبغ عليهم من النعم ، وما تفضل به من الفضل والرحمة . .

وفقنا الله لأن نفهم أسرارا أسمائه الحسنى ، ونذكر آثارها فى الآفاق وفى أنفسنا . إنه رحيم ودود ؟

٥٨ ـ الشهيد

الشهيد : فعيل بمعنى فاعل : إما أن يكون مشتقاً من الشهود ، وهو الحضور المجرد ، أو الحضور المقترن بمشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وإما أن يكون مشتقاً من الشهادة ، وهى الخبر القاطع ، أو الإخبار بالمعلوم ، ولو غير قاطع ، وهى بهذا المعنى الأخير لاتستلزم الشهود ، فقد يشهد الشاهد بمجرد العلم الناشىء عن السماع مثلا ، كقول إخوة يوسف (١٢ : ٨١ وما شاهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) ولكنها بالمعنى الأول تستلزم الشهود ، فمن شهد على شيء وعن حضور ومشاهدة كانت شهادته أحق من شهادة من لم يشهد إلا بمجرد العلم أو السماع .

ويطلق الشهيد شرعاً على طائفة ممتازة من المؤمنين ، يقول الله تعالى فيهم (والذين آمنوا بالله ورسله : أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ، لهم أجرهم ونورهم) وأخصهم الذين قتلوا فى سبيل الله .

هذا هو المعنى اللغوى والشرعى لهذه الكلمة إذا أسندت إلى المخلوقين ، فإذا أسندت إلى الخالق سبحانه كان معناها أسمى وأشمل ، وأتم وأكمل ، فإن كان اشتقاق اسمه تعالى « الشهيد » من الشهود بمعنى الحضور كان معناه : أن ربنا سبحانه لا يغيب عن شهوده مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وليس من شهوده سبحانه شهوداً مجرداً

كشهود المخلوقين ، بل هو شهود ورعاية وحفظ ورقابة ومحاسبة ، فهو سبحانه يشهد الكائنات جميعاً في أماكنها وفي مختلف أحوالها ، يشهد النجوم في مداراتها ، والكواكب في أفلاكها ، والشمس وهي تجري لمستقر لها ، والقمر وهو في منازله المقدرة ، والسحب في مزجاها بين السماء والأرض ، والرياح في مهابّها ، والغيوث في هتونها ؛ والجبال في رسوخها ، والأنهار ومجاريها ، والبحار وما فيها من عجائب الخلق ، والنحل في خلاياها ، والنمل في قراها ، والطير في عشاشها ووكناتها ، والأسماك في مسابحها ، والحيوان في مرابضه ومسار به ، والناس في غدوهم ورواحهم ، ومقلبهم ومثواهم ، وطاعتهم ومعصيتهم ، وإيمانهم وكفرهم ، وتوحيدهم وشركهم ، وإخلاصهم ورياؤهم ، وشجاعتهم وجبنهم ، وسخائهم وبخلهم ، لا يغيب عن شهوده سبحانه شيء من هذا كله ، فجميع ما في الوجود يشهد منه جل شأنه يرعاه ، ويدبر أمره ، وينظم حركة المتحرك ، وسكون الساكن ، قال عز من قائل : (١٠ : ٦١ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) .

وكما يشهد سبحانه الخلق شهود حفظ ورعاية ، كذلك يشهد المكلفين شهود رقابة ومحاسبة ، شهود من يحصي عليهم عقائدهم وعباداتهم ، ومللهم ونحلهم ، وأديانهم ومذاهبهم ، واتفاقهم واختلافهم ، وبواطنهم وظواهرهم ، ودقائق أعمالهم وجلائلها ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ليجزيهم بها يوم القيامة جزاءا وفاقا أو عطاء حسابا ، قال جل ثناؤه : (٢٢ : ١٧ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد) .

وإن كان اشتقاقه من الشهادة ، وهي الخبر القاطع ، فمعناه : أن شهادته تعالى قاطعة ، وخبره أصدق الأخبار ، إذ لا يغيب عن علمه شيء ، قال تعالى (فلنقصنّ

عليهم بعلم وما كنا غائبين) وقال تعالى (٣٨ : ٨٤ والحقّ أقول) وقد شهد سبحانه لنفسه بالوحدانية بما أخبر فى محكم كتابه وبما أقام فى الوجود من الآيات الشاهدة بوحدانيته من كبير الأشياء وصغيرها ، وجليلها ودقيقها ، وناطقها وصامتها ، ومتحركها وساكنها ، ففى كل شىء له آية تشهد بوحدانيته وتفرده بالملك والتدبير ، قال تعالى (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

ومع شهادة الله تعالى لنفسه بالوحدانية ، وشهادة الملائكة ، وشهادة أولى العلم نرى كثيرا من الجاهلين يؤلهون المخلوقين ، فيدعونهم من دون الله ويسألونهم الغوث والعون والمدد ، ويضرعون إليهم فى طلب الحاجات ، ويفزعون إليهم فى دفع الملمات (٤٧ : ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) .

وشهادته تعالى حكم بين المختلفين ، وفصل بين المتنازعين ، وقضاء بين المتفرقين ، ومن لم يصدق بشهادة الله فهو من الضالين المكذبين الذين خسروا أنفسهم ، وباءوا بسوء المصير .

اختلف كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبوا إليه ما يكرهون من احتباس المطر ، وقلة الزرع ، وجفاف الضرع ، ونفوق الأنعام متشائمين بما كان عليه الصلاة والسلام يرمى به آلهتهم ، فشهد الله فى قضيتهم ، وفصل بينهم فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى : (٤ : ٧٨ ، ٧٩ فإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل كلٌّ من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا) .

واختلفوا فى القرآن وكذبوا به ، فشهد الله تعالى عليهم بأن القرآن منزل من لدنه ، وإذا شهد الله وجب الحكم بمقتضى شهادته وتصديق ماشهد به ، إذ هو الحق والحق يقول:

(لـكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه، والملائـكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا). ويأمر الله تعالى نبيه الأمين ، أن يؤكد لقومه أمر رسالته بشهادة الله تعالى ، إذ شهادته فوق كل شهادة ، وإذا شهد الله فلا ينبغى الشك ، بل تجب أن تنفى كل ريبة ، وأن تنزاح كل شبهة ، قال تعالى (١٣ : ٤٣ ويقول الذين كفروا : لست مرسلا ، قل : كفى بالله شهيداً بينى وبينـكم ، ومن عنده علم الـكتاب) .

وشك الـكفار فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وفى أمر البعث ، فأخبر الله تعالى بأنه سيريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ما يثبت لهم بأجلى برهان أن الرسول حق ، وأن دعوته حق ، وأن القرآن حق ؛ وأن الساعة حق ، وأن الله تعالى يشهد بذلك وشهادته تقضى على كل شبهة وتأتى على كل ريبة ، قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟) .

ولما رمى الـكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم بافتراء القرآن أمره جل شأنه أن يخبرهم بأن الله تعالى يشهد بأنه حق ، ولا ينبغى بعد شهادة الله شبهة ولا ريبة ، قال تعالى (٤٦ : ٨ أم يقولون : افتراه ؟ قل إن افتريته فلا تملـكون لى من الله شيئاً ، هو أعلم بما تفيضون فيه، كفى به شهيداً بينى وبينـكم وهو الغفور الرحيم) .

وهو سبحانه شهيد على الناس فى أعمالهم لا يخفى عليه من أعمالهم الظاهرة ولا الباطنة شىء ، يحصيها عليهم وينبئهم بها يوم القيامة ، ثم يجازيهم بها إن خيرا فخير وإن شراً فشر، قال تعالى (٥٨ : ٦ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونَسُوهُ ، والله على كل شىء شهيد) .

أباح الله لنساء النبى عليهن الرضوان أن يلقين محارمهن سافرات بعد أن أمر المؤمنين إذا سألوهن متاعاً أن يسألوهن من وراء حجاب ، ولـكى يحملهن على التزام حدوده ، والوقوف عندها أهاب بهن أن يتقين الله ، ثم ذكرهن بأنه شهيد على كل شىء حتى يخشينه ولا يتعدين حدوده ، قال تعالى (٣٣ : ٥٥ لا جناح عليهن فى آبائهن ، ولا

أبنائهن ، ولا أبناء إخوانهن ، ولا أبناء أخواتهن ، ولا نسائهن ، ولا ما ملكت أيمانهن ، واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا) .

ينافق المنافق ما مد له الشيطان فى غيه ويظهر الإيمان ويبالغ فى إظهاره ، ويبطن الكفر ويبالغ فى إبطانه ، وهو يحسب أن الله غافل عنه وإن نواياه تخفى عليه كما تخفى على الناس ! ولكن الله تعالى يفضح المنافقين ، ويبدى ما يكتمون قال تعالى : (٦٣ : ١ إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم لينقذ الإنسانية من ورطتها ، وينتشلها من كبوتها ، ويهديها من ضلالها ، ويسلك بها سبل الخير والسعادة والطمأنينة لتطعم من جوع ، وتأمن من خوف ، وبذلك يظهر فضل ذلك الدين على الأديان وتسارع البشرية الرشيدة إلى اعتناقه لأنها تجد فيه ضالتها ، وتظفر فى تعاليمه بحاجتها . وقد شهد الله بهذه الحقائق حتى لا يجد العقلاء إلى الشك فيها سبيلا ، قال تعالى : (٤٨ : ٢٨ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) والكون كله فى رعاية الله ، وحفظه وشهوده ، وكيف لا يرعاه ويشهده ، وهو ملكه ؟ وإذا كنا معشر البشر المخلوقين نرمى بالسفه وأقل الرأى من يغفل عن ملكه أو لا يرعاه ، ونجد كل مالك يهتم بملكه ويحمى حماه ، ويتولى حراسته ويرعاه ، فكيف برب العالمين المنزه عن جميع شوائب النقص الذى له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء شهيد ؟

النبوة سلسلة متصلة الحلقات . وقد أخذ الله العهد على جميع النبيين لئن جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه ، حتى تكون كل أمة هى تمام الأهبة لقبول دعوة الرسول الجديد الذى يقفى الله به على آثار رسولها لكى يجدد دعوته حتى تظل راية الإيمان والفضيلة خفاقة إلى يوم القيامة ، وقد أشهد الله النبيين على أنفسهم ، وشهد سبحانه عليهم بذلك . قال تعالى : (٣ : ٨١ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب

وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ؟ قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرِى ؟ قالوا : أقررنا ، قال فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين) .

هذا . واستحضار العبد لمعنى هذ الاسم الجليل يربى فيه خلق الحياء من الله تعالى ، ويغمى فيه الخشية والمراقبة ، ويحمله على التقوى ، وبهذه الخلال يقيه الله مقته وسخطه وعقوبته ، ويمنحه رضاه ومغفرته .

وثقة العبد بأن الله على كل شيء شهيد تجعله يتوكل عليه حق التوكل ويفوض أمره إليه ، ولا يعول على أحد من خلقه .

ومن يوقن بأن الله على كل شيء شهيد يقيناً يملأ نفسه ويسيطر على جوارحه ربأ بنفسه أن يجده الله حيث يكره ، أو يفقده حيث يحب ويستحيي أن يلم بمعصية ، أو يقترف سيئة ، أو يفرط فى عمل صالح أو يقصر عن خير ، فإن ارتقى به يقينه إلى هذه الدرجة كان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، الذين يكتبهم الله مع الشاهدين ، ويدخلهم مع القوم الصالحين .

٥٩ ـ الحافظ ٦٠ ـ الحفيظ

اسمان جليلان أسمائه تعالى الحسنى اشتقاقها من الحفظ وهو المخلوقين التفقد والتعهد والرعاية والحراسة والرقابة وعدم النسيان ومعناه فى حقه تعالى أن جميع مافى الوجود قائم بعنايته ورعايته وأنه لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

يدل أولها على أن حفظه تعالى للأشياء يتجدد بتجددها ، ويتوالى بتواليها ، وأنه كلما خلق شيئا تولاه بالرعاية والحفظ إلى الأجل الذى كتبه له .

ويدل ثانيهما على أن الحفظ صفة ثابتة لازمة لجلاله أزلا وأبدا .

فكلاهما يدل على معنى خاص لايغنى عنه الآخر .

وكل ماحولك مما فى السماء والأرض مظاهر لحفظه تعالى فلا شىء فى الوجود إلاهو قائم بحفظه ورعايته .

أرسل رائد البصر إلى السماء فى ليلة صافيـة الأديم ، وانظر ما يرصعها من الـكواكب ، وما يزينها من النجوم وتفـكر ؛ أكان شىء منها يبقى فى موضعه لولا حفظ الله تعالى إياه .

لو وكل الله تعالى هذه الـكواكب والنجوم إلى ذواتها ، ولم يتولها بالحفظ والرعاية لتهافتت وتهاوت وتساقطت وذهب كل منها إلى حيث لايعلم له غاية ولامستقر .

وهذه الشمس وهى آية النهار المبصرة لولا حفظ الله إياها مارأيتها تذرع السماء ، وتبعث الضوء والدفء إلى ماحولها من الـكائنات .

والقمر لولا حفظ الله تعـالى مارأيته يرسل أشعته الفضية تنير سبل السارين وتهدى الحائرين وتبدد ظلام الليل الدامس .

فسبحانه ماأصدقه إذ يقول « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

وكل ماترى وما لاترى من الـكائنات فى السماء والأرض مؤلف من ذرات ضئيلة لاتـكاد ترى بالعين المجردة ولا يقدر صغرها إلا خالقها سبحانه .

هذه الذرات متماسكة تماسكا شديدا هو الذى يعطى هذه الأشياء قوامها وكيانها . ولولا أن الله تعالى حفظ تماسك هذه الذرات وناط كل ذرة بجاراتها وألصقها بأخواتها لصار ذلك العالم كله هباء منبثا لاتلوى ذرة منه على أخرى .

والذرات أنفسها تتألف من جزيئات أدق منها هى التى تدعى بلسان العلم البروتونات والالـكترونات لولا حفظ الله تعالى مابقيت هذه الجزيئات متماسكة ولتفجرت وتبددت فى الفضاء وأنت خبير مما يحدثه تفجر الذر من آثار .

والأرض التى وضعها الله للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب

ذو العصف والريحان لولا حفظ الله تعالى لعصفت بذراتها الرياح وأصبحت عدما لا يعرف الوجود .

وقد أخبرنا رب العزة سبحانه بما يعترى هذه العناصر ، وما يصيب هذه الكائنات إذا بلغت أجلها الذى أجله الله لها ، وأدت أمانتها التى ناط الله بها أداءها فقال تعالى : (إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) .

وقال تعالى : (إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت *) .

وقال تعالى: (إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت) فما قام نظام العالم المحكم الرائع البديع إلا بحفظه تعالى ورعايته .

ومن مظاهر هذين الإسمين الجليلين هذه الأعلام المنصوبة ، والجبال الشاهقة والقصور الشامخة ، والنخل الباسقات ، والشجر القائم على أصوله ، والأغصان المتصلة بشجرها ، والأوراق العالقة بأغصانها والأزهار المتفتحة فى أفنانها ، والبراعم الناشئة فى فروعها ، والثمار اللاصقة بأعوادها ، والأجنة فى بطون أمهاتها ، والمياه الملحة فى بحارها ، والعذبة فى أنهارها ، والرمال فى بيدائها والحصى فى صحرائها . وكل مافوق البسيطة من الكائنات ، ناطقها وصامتها ، حيها وجمادها لولا حفظ الله تعالى إياها لذهبت فى بدداً ، وخلا العالم منها أبداً .

سبحانه حفظ العلوم والمعارف فى أذهان العارفين ، والعقول والأذهان فى أدمغة العاقلين ، والفنون والصناعات فى أيدى الصانعين . والسمع فى آذان السامعين والبصر فى عيون المبصرين ، والنبض فى القلوب ، وقوة الإفراز فى الغدد ، وحفظ الألوان فى الأزهار والريش والشعر والفاكهة والنبات . وحفظ السحاب المسخر بين السماء والأرض ، والطير فى جو السماء . ماذا أقول ؟ وماذا أعرف ؟

كل شىء فى الوجود قائم بحفظ الله تعالى إياه . ولو أنك نظرت فى هذه الآيات

ومنحتها فضل تأمل ، ومزيد تدبر لهتفت من أعماق صدرك قائلا : إن ربى على كل شىء حفيظ .

حفظ أسرار السماء أن تنالها الشياطين كما أنبأنا فى كتابه المبين ، قال تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) .

وحفظ القرآن الكريم على تطاول الأحقاب ، وتراخى السنين ، وتوالى القرون من أن تناله يد التحريف ، أو التبديل على الرغم من كثرة الكائدين ، وإفساد المفسدين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين أعداء الدين وصدق الله العظيم إذ يقول : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وحفظ الشياطين مسخرين بأمره فى قبضة سليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . قال تعالى : (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين) .

وهو تعالى الحفيظ بمعنى الرقيب على أعمال العباد يسجلها عليهم ثم يسألهم عنها ويحاسبهم عليها قال تعالى : (إن كل نفس لما عليها حافظ) وقال تعالى : (والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) .

وقال تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) .

ولو ذكر المؤمنون هذين الاسمين الجميلين لسموا إلى مقام الإحسان وعبدوا الله كأنهم يرونه ، واستشعروا عظمته وهيبته وأخلصوا له فى السر والعلن وأسلموا وجوههم له واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، فكانوا من الفائزين .

والحفظ بهذا المعنى من شئون ربك جل شأنه لم يجعله لأحد من خلقه فقد نفاه عن خير الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (وما أرسلناك عليهم حفيظا) .

وقال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) .

وأما الحفظ الذى أثبته يوسف لنفسه فى قوله تعالى : (قال : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) فهو بمعنى الأمانة وحسن الرعاية والمحافظة على ما وكل إلى عنايته وأمانته من أقوات الناس وأرزاقهم .

وها نحن أولاء قد رأينا أن العوالم كلها قائمة بحفظ الله تعالى إياها ولولا أن تولاها سبحانه بالحفظ والرعاية لكانت هباء .

أفلا تأخذك الدهشة ويتولاك العجب بعد هذا حين ترى رجلًا يريد السفر فيذهب إلى ضريح من أضرحة الأولياء والصالحين ويسأله الحفظ والرعايه لبيته ومن فيه وما فيه ، ثم يعذر له لئن عاد سالمًا ووجد أهل بيته سالمين ليمنحنه كذا وكذا ؟ .

لو أنه عمد إلى خفير يسأله حراسة بيته على أجر معلوم لقلنا : رجل حازم يحتاط للأمر ، ويجرى على سنة الله الكونية (فيعقلها ويتوكل) بعد ذلك على الله الحفيظ .

أما وهو يعمد إلى العظم الرميم ، والرفات السحيق ، والصعيد الجرز ، الذى لا يدفع عن نفسه ، فذلك هو الخرق والعجز وأفن الرأى وسوء التقدير .

أما وهو يعمد إلى من انقطع عمله بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الأمين الذى لا ينطق عن الهوى إذ يقول : إذا مات ابن آدم انقطع عمله . . . فذلك هو الخسران المبين ، والخذلان المهين ، بل الشرك الأثيم الذى مابعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا للقضاء عليه ، وتطهير القلوب من أرجاسه ، وتنقية النفوس من أدناسه .

أليس من الخذلان أن نرى امرأة مسلمة تذهب إلى ضريح وتخاطب الرفات المضطجع تحت صخوره ورجامه : لئن عاش ولدى لأجعلن لك كذا وكذا ، ولأولمن الولائم فى واديك ولأحلقن رأسه فى ناديك .

كأن صاحب الضريح يملك تقسيم الآجال ، ومنح الأعمار ، أو كأنه الحفيظ على الناس يمنع عنهم ما كتب الله أن يصيبهم ، أو يرد عنهم السوء الذى أراده الله بهم .

لقد قدر الله الأرزاق والآجال ، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء وهو الغفور الرحيم .

قصرت أيدى المخلوقين عن أن ترد قضاء الخالق ، وضعفت همة المحفوظين أن تدفع قدر الحافظ إذ جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

أيها الناس . إن ربكم هو الحفيظ العليم لو ترك أحدكم إلى نفسه طرفة عين لهلك . فتوجهوا إليه وحده واسألوه أن يحفظكم ، وأن يحفظ لكم من تحبون وما تحبون ولا تتوجهوا إلى غيره فتكونوا من المشركين الهالكين .

اللهم احفظ علينا ديننا وإيماننا ويقيننا ، واحفظنا من طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير ياحفيظ يا عليم يا أرحم الراحمين .

٦١ — الحاسب — ٦٢ — الحسيب

حسب الشيء . قدره وعده ، فهو حاسب .

وحاسب رب العمل العامل : قدر عمله ، وأثابه عليه

وحاسب الأمير عماله : نظر فى أعمالهم . وأثابهم بإخلاصهم ، وعاقبهم بتقصيرهم فهو محاسب وحسيب .

هذه هى المعانى اللغوية لهذه المادة إذا أسندت إلى المخلوقين . فإذا أسندت إلى رب العزة سبحانه كانت معانيها قريبة من هذه المعانى وموافقة لها ، ولكنها من الكمال والسمو والتنزه عن مشابهة المخلوقين فى المنزلة التى ليس وراءها منزلة .

لم يرد اسمه تعالى الحاسب ، فى القرآن الكريم مفردا محلى بأل ، بل ورد جمعا

مجردا منها ، قال تعالى : (وكفى بنا حاسبين) وورد جمعا معرفا بها مضافا إليه قال تعالى : (وهو أسرع الحاسبين).

وأما اسمه تعالى « الحسيب » فقد جاء مفردا مجردا من المن . قال تعالى : (وكفى بالله حسيبا) .

دلت الأبحاث العلمية الحديثة ، والتحليلات الكيمائية على أن عناصر الكون كالماء والهواء والنبات والحيوان مركبة من أجزاء ، وأجزاؤها مؤلفة من جزيئيات ، وجزيئاتها مكونة من ذرات ، وذراتها تحتوى على بروتونات وألكترونات : يختلف عددها فى العناصر المختلفة ، ولكنها فى العنصر الواحد بمقادير ثابتة ، لا يعتريها تغير ولا تبدل . ولا زيادة ولا نقصان ، وكلها بحساب دقيق بالغ الدقة مالا تتصوره عقول البشر . وهذا الاختلاف فى المقادير هو الذى ميز العناصر بعضها من بعض ، وجعل لكل منها خواصه ومميزاته .

وربك الخلاق العليم دائم الخلق لا تمر ثانية من دقيقة إلا وله فى ملكوت السموات والأرض مخلوقات لا يحصيها عداً إلا خالقها سبحانه ، فلا يشغله حساب تركيب العناصر اللازمة لمخلوق منها عن حساب غيره وسبحانه أن يخطىء فى حساب شىء منها . على الرغم من فرط كثرتها وتنوعها .

أفلا يدل ذلك على أن رب العزة سبحانه حاسب لا يعجزه حساب شىء فى السموات ولا فى الأرض ، بغير إجراء عملية حسابية من العمليات التى يجريها الحاسبون من البشر ، ولا احتياج إلى صحيفة ولا قرطاس ، ولا أداة من الأدوات الحاسبة التى يفتقر إليها المخلوقون العاجزون ، ولو كانوا أذكى الأذكياء وأبرع البارعين ؟ .

يقدر الليل والنهار ، وسير الشمس والقمر ، وحركات الكواكب والنجوم

بنظام عجيب ، وحساب دقيق . تعلم منه الناس كيف يحسبون ما يدخل فى طوقهم وما يحتاجون إلى حسابه فى معاشهم ونظام معاملاتهم . وصدق سبحانه إذ يقول : (الشمس والقمر بحسبان) وإذ يقول (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً . وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون ٥ — يونس) .

وإذ يقول سبحانه : (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ١٢ — الإسراء) .

جعل للأجنة فى بطون أمهاتها قدرا لا تعدوه ، وإن اختلف باختلاف أنواع الحيوان ، وجعل لأجنة الطير فى البيض زمنا لا تتجاوزه ، وإن تنوع بتنوع أجناسها ، وقدر لنضج الزرع والثمر آجالا ولإدراك أنواع الحيوان آمادا . كل ذلك بأدق حساب ، وأضبط تقدير ، وجعل لفيضان بعض الأنهار وتراجعها ، ولطول الأمطار فى بعض الجهات ، وانقطاعها : مواعيد دقيقة ، وآونة مضبوطة ، وأدار الكواكب والنجوم فى مداراتها فى وقت معين ، وزمن محدود ، وقدر ما جعل فى الأرض من أرزاق وأقوات بحسب ما بث فيها من دابة . (وإن من شىء إلا عنده خزائنه ، وما تنزله إلا بقدر معلوم) .

إذا تجلت لك هذه الآيات من آيات ربك فى الآفاق والأنفس ، رفعتك إلى اليقين بأن ربك يحسب أعمال الناس دقيقها وجليلها ، ويحصى حسناتهم وسيئاتهم ثم يجزيهم بها . إن خيراً فخير ، جزاء من ربك عطاء حسابا ، وإن شرا فشرا جزاء وفاقا وصدق ربنا إذ يقول : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) ، فسبحانه من إله أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .

ولا تهولنك كثرة بنى آدم وبنات حواء ، واختلاف أعمالهم ، وتنوع مساعيهم والأزمان المتطاولة ، والآماد البعيدة والأقطار الواسعة والديار النازحة من لدن بثهم الله فى الأرض إلى أن يطوى السماء كطى السجل للكتب ، فتظن أن ربك فى حاجة إلى وقت لاحصاء أعمالهم وجمعها وحسابها . حاشا لربك أن يكون حسابة كحساب البشر، يجمع رقم إلى رقم ، وضم عددا إلى عدد أو إعمال فكر أو إجالة ذهن ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيراً وقد أخبر عن نفسه فى محكم كتابه فقال (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ٦٢ ـ الأنعام وقال سبحانه : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب — النور وقال جل شأنه : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب ١٧ — غافر) وقال تبارك اسمه : (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ١٩٩ — آل عمران) وقال سبحانه (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها . والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ٤١ — الرعد) والآيات فى هذه المعنى كثيرة لا نطيل بايرادها جميعا .

* * *

والحسيب . هو الرقيب الذى يحاسب بالأعمال ويجزى عليها .

وذلك من شئون رب العزة وحده ، لم يشرك فيه ملكا مقربا ، ولا نبياً مرسلا : ومن أجل ذلك يقول لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) ويقول تعالى : (إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم) .

جدير بالعبد أن يعرف أسماء ربه ليعبده بما تقتضيه هذه الأسماء فاذا أيقن العبد أن الله تعالى عليه حسيب ، يراقبه ويحاسبه بما عمل خاف مقامه ، ونهى نفسه عن هواها.

ولازم الخشية من الله واجتنب مايحاسب عليه ، وعمل لما ينجيه من أهوال يوم الحساب. فما أوقع الكافرين فى الكفر . وورط العصاة فى المعصية إلا غفلتهم عن يوم الحساب ! ونسيانهم إياه ، كما قال تعالى : (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) وقال تعالى : (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

وكما جعل سبحانه يوم الحساب يوم حسرة وندامة وألم على الكافرين جعله يوم سعادة ولذة ونعيم للمؤمنين . قال تعالى : (وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب) .

لا حسيب على ضمير الإنسان ، ولا رقيب على سرائره إلا ربه . فالمؤمن لا يخشى إلا الله ، قال تعالى فى معرض الثناء على رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام (الذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله . وكفى بالله حسيبا) .

لا شىء يقوم من أخلاق الإنسان ، ويوقظ ضميره ، ويحيى وجدانه أكثر من الخوف من حساب الله ، فاذا جعل العبد حساب ربه نصب عينيه لم يحتج إلى من يقوم ما اعوج من سلوكه ، ولا ما زاغ من تصرفه بل يسير على النهج القويم ويسلك الصراط المستقيم . مدفوعا بقوة ضميره ووازع وجدانه .

إذا أمر رب العزة العبد بعمل من الأعمال التى لا رقيب عليها إلا الوجدان ولا حسيب إلا الضمير . ذكره بحسابه . قال تعالى وهو يأمر الأوصياء بالاشهاد على اليتامى ، حين يدفعون إليهم أموالهم إذا آنسوا منهم رشداً (فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ؛ وكفى بالله حسيبا) لينبههم إلى أن يضبطوا الحساب حتى لا يأخذوا من أموال اليتامى كثيرا ولا قليلا وإلى أن اليتامى إذا تساهلوا ورعوا حق التربية وخجلوا من الأوصياء وأن المجالس الحسبية ونحوها من محاسبى البشر إذا تساهلوا

أو تقاضوا لأمر من الأمور فان الله سيحاسب الأوصياء على التقير والتقطير — وكفى بالله حسيباً .

وقد نبه الله تعالى الناس إلى ألا يضيعوا حقوق غيرهم وأن يراقبوا حساب الله فى ذلك ، حتى لا ينسيهم الشيطان أداء هذه الحقوق . واتل قوله تعالى : (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . إن الله كان على كل شىء حسيبا) لتعلم أنك لا تكون مؤديا من حياك كل حقه إلا إذا حييته بأحسن من تحيته . فاذا أنت حييته بمثل تحيته بقى له عليك حق البدء بالتحية . فانظر كيف ينبهك الله إلى هذه الدقائق التى لا تكاد تلقى إليها بالا ، ويذكرك بها بقوله تعالى إن الله كان على كل شىء حسيبا .

لم يحمل الله الضمير الإنسانى مئونة مراقبة أى حسيب إلا الله حتى لا يكون قلبه نهبا مقسما بين الحسباء حتى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال فى شأنه : (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم وكيلا) لم يجعله حسيبا على قلوب الناس وضمائرهم ، فقال تعالى : (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) . فجعل الحساب من خصائصه تعالى وحده لا شريك له .

لا تخش حسابا من ولى نذرت له نذرا . إنه لا يملك حسابا فى الدنيا ولا فى الآخرة والنذر عبادة والعبادة لا تكون إلا لله . والنذر لغيره فسوق وإثم كبير بل شرك عظيم . والرسول الكريم يقول « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » فلا تعرف لولى نذراً نذرته له . تب إلى الله من هذا النذر وأكفر بالطاغوت الذى يخوفك من الميت الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ولا تخف إلا الله رب العالمين الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم : سبحانه وكفى به حسيبا .

٦٣ — المجيب

الجَوْب قطع الجوبة وهى المكان المطمئن من الأرض ، ثم استعمل فى قطع المسافة من الأرض مطلقا ، ومن ذلك قول الله تعالى : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) وقولهم : هل من جائبة خبر ؟ أى هل من خبر يجوب البلاد ؟

قال ابن الأثير « وجواب الكلام هو ما يقطع الجَوْب فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع ، ولكن خص بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب » .

والإجابة توصيل الجواب المطلوب إلى السائل .

والسائل إما أن يطلب مقالا ، وإما أن يطلب نوالاً .

والمجيب اسم فاعل من أجاب يجيب إذا نطق بالجواب أو منح النوال ، فإذا كان المجيب اسما لرب العزة من أسمائه الحسنى كان معناه: الذى يقابل الدعاء بالقبول ، والسؤال بالنوال . أى هو الذى يعطى من سأله . ويحقق رجاء من دعاه .

وقد أخبرنا رب العزة بذلك فى محكم كتابه الكريم فقال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى ؛ وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

وقال تعالى : (وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) .

وقال تعالى : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) .

وقال تعالى : (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، ءإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون) .

والاستجابة هى الإجابة . ويقال : استجاب له . واستجابه .

وقد بدت مظاهر هذا الاسم الكريم فى استجابته لرسله وأنبيائه حين توجهوا إليه ضارعين إلى فضله ورحمته .

فلقد دعاه نوح عليه السلام فاستجاب له ، قال تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) . وقال تعالى : (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) .

وقد أجاب سبحانه دعاء زكريا حين سأله الولد شاكيا إليه ضعفه وشيخوخته وذلك حيث يقول الله تعالى : (ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا) .

حقق الله رجاءه ، واستجاب دعاءه ، وآتاه سؤله ، وقال له : (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) .

وقد ذكرت هذه القصة موجزة فى موضع آخر من القرآن الكريم . قال تعالى : (وزكريا إذ نادى ربه ، رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه . إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين) .

وقد سأل موسى ربه أموراً قصها علينا السميع المجيب فى كتابه العزيز بقوله (قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً) .

وقد استجاب القريب المجيب لدعائه فقال : (قد أوتيت سؤلك يا موسى) .

وقد سأل موسى ربه السقيا لقومه ؛ فأنبط له الماء من الصخر ، قال تعالى . (وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) .

وقد بسط موسى وهرون إلى السميع المجيب أكف الضراعة أن يطمس على أموال فرعون وقومه ، وأن يشد على قلوبهم ؛ فأجاب دعاءهما ، وحقق رجاءهما قال تعالى: (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين . وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما ؛ فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) .

وأجاب سبحانه موسى جواب مقال حين سأله تحقيق رغبة بنى إسرائيل فى بيان سمات البقرة التى أمرهم أن يذبحوها قال تعالى (قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال : إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون قال : إنه يقول : إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقى الحرث مسلمة لا شية فيها) .

واستجاب لأيوب عليه السلام حين شكا إليه ما مسه من الضر قال تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) .

واستجاب ليونس عليه السلام حين شكا إليه ما ساوره من الضيق والغم حين التقمه الحوت قال تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى

الظلمات أن لا إله إلى أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم . وكذلك ننجى المؤمنين) .

واستجاب لعيسى عليه السلام حين سأله أن تنزل مائدة من السماء لتكون آية منه . قال تعالى : (قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لاأعذبه أحداً من العالمين) .

***

هذا وإذا كان إجابته تعالى لرسله وأنبيائه خوارق وآيات تثبت بها نبوتهم ، وتشهد بصدق رسالتهم ، فان إجابته سبحانه لغيرهم تحقيق لسننه فى الأسباب والمسببات ، والمقدمات والنتائج .

وللدعاء شروط إذا حققها العبد استجاب الله تعالى له وآتاه سؤله .

أولها : أن يعتصم الداعى بالصبر ولا يعجل ، فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة : قال صلى الله عليه وسلم : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل : يقول : دعوت فلم يستجب لى » .

ثانيها : ألا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « يستجاب للعبد مالم يدع بإثم ولا قطيعة رحم » .

ثالثها : أن يخص الله أن تعالى بالدعاء . ولا يدعو معه أحدا ، ولقد كان مشركو العرب فى جاهليتهم إذا حزبتهم الأمور يدعونه مخلصين له الدين فيستجيب لهم قال تعالى : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) .

رابعها : أن يلجأ إليه التجاء حقيقيا بحيث يذهب عن نفسه إليه ، ويخلص له الضراعة ،

ويشعر قلبه أن لا ملجأ إلا إليه بعد أن تقطعت به الأسباب وأعجزته الحيل . وهذا هو الاضطرار المشار إليه فى قوله تعالى : (أم من يجيب المضطر إذا دعاه) .

خامسها : أن يتخذ جميع الوسائل من طرقها الصحيحة المعروفة. بالعلم والعزيمة والعمل . فقد مضت سننه تعالى أن تسبق المطالب بالمساعى قال تعالى : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

فالغدو فى طلب الرزق والتماس القوت هو السبب فى رواحها بطانا مملوءة الحواصل .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقنى . وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

أما من يدعو الله فى الأمور التى تتوقف على أسبابها بغير اتخاذ هذه الأسباب فهو جاهل ، بل هو أقرب إلى أن يكون ساخرا مستهزئاً . وكأنه يقول : اللهم أبطل من أجلى سننك التى قلت : إنها لا تتبدل .

وإجابة الدعاء بالرحمة والمغفرة تتوقف على صالح العمل . قال تعالى : (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) .

هذا وثمرة معرفة هذا الإسم الجميل أن نعرف أنه وحده المجيب فلا نسأل غيره . وأن نعلم أن شأنه الإجابة وإلى إجابته ذاتية فليس فى حاجة إلى وسيط ولا شفيع . وأن نوقن أنه

المجيب . فنكثر من دعائه والابتهال إليه فإن الدعاء مخ العبادة ، وهو يحب من يدعوه . وما أكثر عنايته بالمتوجهين إليه الداعين له ، وخاصة إذا تعسرت عليهم المطالب وأعياهم طلابها !

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن القريب المجيب سبحانه يقول : « من يدعونى فاستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ ».

وقد حكى الله عن صالح عليه السلام قوله لقومه : (فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب) .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً إنك سميع قريب مجيب .

٦٤ — الكبير

الكبير فى اللغة : ما أعظم جرمه أو مساحته بالقياس إلى ماهو أقل منه وأصله فى الأعيان : كالقصر الكبير ، والمسجد الكبير ، والحفل الكبير ، ثم استعمل فى المعانى كالفضل الكبير والذنب الكبير .

ويطلق على المسن ، كالشيخ الكبير ، وعلى الرئيس ذى القدر والرفعة ، مثل كبير القوم .

ويلاحظ فى جميع هذه المعانى أن شيئاً يفوق شيئاً آخر ويزيد عليه . فهذا الزائد الفائق يقال له كبير ، ويقال لمقابله صغير .

وقد وصف به الأجر الذى أعده الله تعالى لمن يخشونه بالغيب . قال تعالى : إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) وكبر هذا الآجر يتمثل فى كثرته وعظامته وسمو نوعه ، وبعده عن أن يكون مما رأت مثله العيون أو سمعت الآذان أو خطر على

القلوب . فهو كبير بالقياس إلى كل أجر كان العاملون فى الدنيا يمنحونه ، بالإضافة إلى مانحه الكبير المتعال سبحانه .

ووصف به الفضل الذى يغمر الله تعالى به عباده الصالحين السابقين بالخيرات . قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ، ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير) وكبر هذا الفضل يتمثل فى أنه عطاء الكريم الوهاب الكبير المتعال ، الذى له خزائن السموات والأرض ، الذى لاتنفذ خزائن رحمته ، والذى يتفضل على عباده فيمنحهم الثواب العظيم على العمل الذى لم يكونوا يعملونه لولا أنه تولاهم بتوفيقه ، ثم يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى مالا نهاية له .

ووصف به الفوز الذى يناله المؤمنون الصالحون . قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) وهل ثمة فوز أكبر من فوز من يظفر بجنة عرضها كعرض السماء والأرض ؟ إن كل فوز دون هذا الفوز عدم بالقياس إليه .

ووصف به العذاب الذى أعده الله تعالى للظالمين . قال تعالى (ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً) وكبر هذا العذاب من حيث ان الذى يذيقهم إياه هو الكبير المتعال، الذى لايعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، الذى له جنود السموات والأرض ، فهو كبير بالإضافة إلى مصدره وإلى نوعه ، وإلى أنه دائم التجدد كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب فى نار كلما خبت زادهم الله سعيراً .

ووصف به الفساد الذى ينجم من ولاية المؤمنين للكافرين . قال تعالى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) وكبر هذا

الفساد أن المؤمنين إذا تولوا الكافرين أضعفوا شوكتهم وفلوا حدهم بإطلاعهم على عوراتهم ، وتمكينهم من التغلب عليهم ، ولا فساد أكبر من هذا الفساد .

* * *

إذا تدبرت هذه المعانى تدرك فيها جميعاً الزيادة والفوق والامتياز ، ولا جرم أن بعض هذه المعانى وهى المعانى المادية محالة على رب العزة سبحانه . كما يستحيل عليه المعنى الذى يتصل بعلو السن وتقادم العمر ، وإن كان سبحانه لا أول لوجوده ولم يسبق وجوده عدم .

أما المعانى الأخرى التى تشير إلى الرفعة وسمو القدر والعظمة والكبرياء ، فإذا سمونا بها عن مشابهة أوصاف المخلوقين وجعلناها للرفعة التى لاحد لها ، والسمع الذى ليس له غاية ، والعظمة التى لاتحدها نهاية ، والكبرياء التى يتضاءل بجانبها كل كبير ، جاز أن تراد من اسمه تعالى الكبير . فإذا نظرنا إلى الرياسة ورفعة القدر ، استطعنا أن نقول : إنه الكبير أى العظيم الذى له الكبرياء فى السموات والأرض ، المتعالى عن صفات الخلق الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ، الذى له السلطان المطلق على كل موجود ، والتصرف التام فى كل كائن والحكم النافذ على كل مخلوق ، والأمر الحكيم الذى لامرد له ، الذى اتصف بكمال الذات وكمال الوجود سبحانه هو العلى الكبير . كما نقول : إنه الذى تنزه وجوده عن جميع شوائب النقص ، الذى لايعرف كنه عظمته ، ولا تدرك حقيقة كبريائه .

وقد سمى رب العزة نفسه هذا الإسم الجليل وأخبر به العباد فى محكم التنزيل ليحملهم على التفكير فى معنى كبريائه تعالى ، وليوقنوا بأن كل قوة فى الأرض والسماء صغيرة إذا قيست إلى قوته ، وكل عظمة فى أية ناحية من نواحى العالم حقيرة إذا قرنت بعظمته ، وكل مقام دون مقامه ، وكل سلطان خاضع لسلطانه ، فإذا تمكنت هذه العقيدة من أنفسهم ، وهيمنت على قلوبهم ومشاعرهم لم يعتمدوا على غيره ، ولم يستمدوا النفع إلامنه . ولم يستدفعوا الشر إلا به .

اتل قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير) لكى توقن بكبرياء الله ، وتعتقد أنه لامالك سواه ، ولا سلطان لغيره ، وأنه لايملك أحد ممن فى السموات والأرض ذرة فى ملكه ، ولا يشاركون فيها وأنه تعالى لايحتاج منهم إلى معين ولا ظهير ، ولا يملك أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه لمن ارتضى يوم يجمع الأولين والآخرين ويقوم الروح والملائكة صفاً لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً . وهنالك يتجلى لهم علو الله وكبرياؤه حين تعنوا له الوجوه وتخشع الأصوات ، فلا تسمع إلا همساً .

أخبرنا رب العزة بإسمه الجليل حتى نجعل معناه نور قلوبنا وملء مشاعرنا إذا عبدناه ، ونمتلىء يقيناً بأن العلو والكبرياء من صفاته العلا التى لايشاركه فيها مشارك ، ولاينازعه منازع . فلا « بوذا » الصين ولا « براهما » الهند ولا « آمون » الفراعنة ولا « هبل » قريش ، ولا أحبار أهل الكتاب ورهبانهم ، ولا أولياء المسلمين وشيوخهم ، بل ولا الأنبياء والمرسلون ، ولا الملائكة المقربون . كل أولئك لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

واتل قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) لتوقن أنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء رقيب ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وتلك ناحية من نواحى كبريائه ، إذ جعلها المؤمن نصب ضميره فنى الحياء وسار فى الطريق السوى الذى رسمه له ربه الكبير الذى يعلم سره ونجواه وهو علام الغيوب .

واتل قوله تعالى : (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) لتعلم أن فريقاً من الناس قد فسدت فطرتهم ، وانحرفت غرائزهم ، وعبث الحرص على محاكاة الآباء بعقائدهم فأصبحت الدعوة

إلى الدين الخالص والتوحيد المجرد تؤذى أنفسهم وتشمئز لها قلوبهم ودعوة الشرك المتقنة تقر بها أعينهم وتنشرح لها صدورهم وتستبشر بها أفئدتهم . ذلك بأنهم لم يقدروا الله حق قدره ، ولو قدروا علوه وكبرياءه ، وتدبروا معنى اسمه تعالى الكبير لصغر فى نظرهم كل عظيم ، وهان كل جليل وتضاءل كل كبير ، وما وجدنا بين الناس من يهتف بأسماء الموتى فى قومته وقعدته ، وغدوته وروحته ، ولا من يشد الرحال إلى الأجداث الهامدة ، والرفات السحيق ، والعظام النخرة ، ولا من يحدو ، بالظعائن نحو القبور والرجام ولا من يهل لها بالنذور ، ويذبح الذبائح تقرباً إليها وابتغاء مرضاتها واستدفاعاً لغضبها .

ياحسرة على العباد !

ماذا دهاهم وماذا أصاب عقولهم ؟

جاء دين القيمة يدعو إلى التوحيد الخالص ، ويطوح بالوسطاء والشفعاء ويحذر من الشرك ظاهره وخفيه ، وأخبر رب العزة بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ليعتصموا بحبله ، ويستمسكوا بعروة التوحيد الوثقى ، ولكنهم غفلوا عن روح هذه الدعوة الكريمة ، وجهلوا سر هذه الشريعة القويمة ، وطغت عليهم موجة من الجهل المطبق ، نهضت فيها طائفة من الخبثاء الذين لا هم لهم إلا إشباع بطونهم ، وملء خزائنهم فراحوا يروجون الشرك بين السذج والبسطاء . ويعبثون بعقول الغافلين والجهلاء حتى لبسوا عليهم دينهم ، وأفسدوا عليهم عقائدهم وجعلوهم يهشون للشرك ، ويضيقون بدعوة التوحيد ، ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .

ما أتى العباد إلا من غفلتهم وجهلهم فلو تدبروا أذكار الصلاة وفقهوا معنى التكبير فيها لآمنوا بكبرياء الله ، وعبد كل ربه كأنه يراه فكان من المحسنين ومن كان من المحسنين كان الله معه ، فالله مع المحسنين . والله يحب المحسنين ، ومن أحبه الله وكان معه بالتأييد والعون فلا غالب له .

وبين أيدى المؤمنين كنوز من القوة ، وذخائر من القدرة يستطيعون أن يستمدوها من خزائن رحمة الله لو صدق إيمانهم به ، وكبروه تكبيراً ، ولكنهم يتركون الينبوع العذب الفياض بالطهر والقدس ويرتادون الأوشال المفنة الناضبة التى لا تنقع غلة ولا تشفى علة .

ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

٦٥ ـ القادر ٦٦ ـ القدير ٦٧ ـ المقتدر

القدرة فى الإنسان صفة يتمكن بها من فعل كل شىء ما . والقادر اسم فاعل منها. يقال : فلان يقدر على ارتجال الخطابة أو يقدر على إنشاء المقالات . أو يقدر على قرض الشعر ، أو يقدر على صنع الساعة أو الطائرة أو السيارة أو حمل المذياع أو غير ذلك من أنواع المقدورات فهو قادر .

وقدرة الإنسان محدودة مقيدة .

أما قدرة الله تعالى فهى صفة يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه . وقدرة الله تعالى مطلقة ، ولا يوصف بالقدرة المطلقة غيره تعالى . وكل موصوف بالقدرة غيره تعالى فهو قادر من وجه وعاجز من وجوه .

والقدير صيغة مبالغة من القادر ، ومعناه الفعال لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمة لا زائداً عليه ، ولا ناقصا عنه ، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله . والمقتدر أبلغ منه، وأدل على عظم القدرة ، و إذا أطلق على المخلوقين فمعناه المتكلف للقدرة ، المكتسب لها.

وقد أقام القادر المقتدر سبحانه أدلة قدرته ، وبراهين اقتداره فى كل قيد أنملة ، بل فى كل قيد شعرة من هذا العالم البعيد الآفاق الفسيح الجنبات لمن كان له عينان يبصر بهما ، وذهن يجيله فى الكائنات ، وقد ملأ القرآن الكريم بالآيات الناطقة بالقدرة ،

الشاهدة بالاقتدار ليعلم الناس أن القادر هو الإله الحق الجدير بأن يعبده العابدون ويدعوه الداعون ، ويستغيثه المستغيثون ، ويسأله السائلون .

فمن أبرز دلائل قدرته تعالى خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة والخلق هو علم الربوبية . قال تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) .

وقال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير . وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) .

وقال تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى . إنه على كل شيء قدير) وقال تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً)

وقال تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) وقال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) .

وقال تعالى (والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير)

والآيات الكريمة فى هذا المعنى أكثر من أن تستوعب فى مثل هذه العجالة فليتدبرها التالون ليقفوا من تدبرها على ألوان من أسرار القدرة الإلهية التى لاحد لها . حتى إذا اطمأنت أنفسهم إلى قدرة الله تعالى نظروا إلى من يدعوهم الناس من دون الله أو يستعينونهم هل يملكون هذه القدرة أو عشر معشارها ، ولا جرم أنهم بعد ذلك واثقون كل الثقة بأن هؤلاء المدعوين من الأحياء أو الموتى لا يملكون من قدرة الله شروى نقير ، وإذاً لوجب الانصراف على دعائهم واستعانتهم إلى دعاء الله وحده لأنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

ومن دلائل قدرته التى سجلها فى كتابه العزيز أنه مطلق التصرف فى السموات والأرض وما فيهما ، وأن المخلوقين جميعاً تحت سلطانه يعذب منهم من يشاء ويغفر لمن يشاء على حسب ما تقتضى حكمته العالية التى تدق عن كل ذكاء وتخفى على كل فطنة .

قال تعالى : (لله مافى السموات ومافى الأرض ، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير .

وقال تعالى : ولله ملك السموات والأرض والله على كل شىء قدير .

وقال تعالى : تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

فهل لأحد من المخلوقين هذا النوع من القدرة ؟

هل تملك الملائكة هذا النوع من القدرة الإلهية ؟

هل يملك الأنبياء والمرسلون هذا النوع من القدرة الإلهية ؟

هل يملك الأولياء والصالحون هذا النوع من القدرة الإلهية ؟

هل يملك الموتى المقبورون هذا النوع من قدرة القادر المقتدر سبحانه إذاً فَلِمَ يدعوهم الناس من دون الله ؟

ولم يشدون إلى قبورهم الرحال ؟

ولم ينذرون لهم النذر ؟ ويذبحون لهم الذبائح ، ويقربون إليهم القربان !

ومن أبرز دلائل قدرته تعالى أنه لو شاء لذهب بالنعم التى أنعمها على عباده بل لو شاء أن يفنيهم لفعل .

قال تعالى : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) .

وقال تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) .

وقال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) .

وقال تعالى : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً) .

فهل يملك المخلوقون شيئاً من هذه القدرة المطلقة ؟

وإذاً فلِمَ يقف الأحياء أمام قبور الموتى خاشعين أذلاء ضارعين يسألونهم قضاء الحاجات أو دفع المضرات أو جلب الخيرات ؟

سبحانك ربى ! سبحانك أيها القادر العليم ! ما قدّرك عبادك حق قدرك حين انصرفوا عن قدرتك التى لا يعجزها شيء إلى مخلوقين عاجزين أو موتى مقبورين لا يقدرون على شيء .

* * *

ومن آيات قدرته تعالى إمداده الرسل بالآيات الواثمة لعصورهم ، الكافية لإقناع العقلاء المستبصرين من أقوامهم .

قال تعالى : (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) .

وقال تعالى : (وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه . قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

فالمعجزات من آثار قدرة الله تعالى وليس للأنبياء والمرسلين قدرة على الإتيان بشيء منها دق أو جل ، عظم أو صغر .

والتصرف فى ملكوت الله لا يكون إلا الله بمحض قدرته الغالبة ، لا يملكه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

والعجب لهؤلاء المفتونين الذين ينسبون إلى شيوخهم القدرة على التصرف فى الكائنات ، أو إلحاق الأذى بمن يعترض عليهم أو جلب الخير لمن يحبون بقوة غيبية لا يملكها إلا القادر المقتدر رب العالمين .

ومن أدلة قدرته أنه لا يعقاص عليه تسليط العذاب على أعدائه انتقاماً منهم لأوليائه.

قال تعالى : (هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ومن تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) .

وقال تعالى : إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير) .

وقال تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير)

وقال تعالى : (وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) .

وقال تعالى : (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير) .

وقال تعالى :(وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديراً) .

وقال تعالى : (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شىء قديراً) .

ذلك فعل القادر الحكيم الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض وهو على كل شىء قدير .

ومن أوضح أدلة القدرة الالهية قدرته على إيجاد الحياة الحيوانية والنباتية وإيجاد الأعضاء اللازمة لحفظ الحياة فى الإنسان والحيوان والنبات ، والتفكير فى هذه القدرة وحدها كفيل بأن يهدى إلى الإيمان أعرق الناس فى الكفر والجحود لو أنهم وجهوا عقولهم وأفكارهم إلى آثار قدرة الله فى منح الحياة وحفظها على الأحياء .

قال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله أولياء فالله هو الولى وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) .

ومما يتصل بذلك قدرته تعالى على بعث الموتى وإعادة الحياة إلى من فارقتهم الحياة قال تعالى : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بل قادرين على أن نسوى بنانه) .

وقال تعالى : (إنه على رجعه لقادر) .

وقال تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) .

وقال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) .

ستصادف قوماً فارغين يتعلقون بالسخافات وسفساف الأمور : يسألونك : هل يقدر الله أن يدخل الدنيا فى بيضة ؟ ! فقل أن قدرة الله تعالى تتعلق بالممكنات وهو الذى جعل بحكمته الممكن ممكناً ، والمحال محالا ، ولو شاء لقلب الأوضاع إن اقتضت الحكمة ذلك ..

ومثل هذا السؤال لاينبغى أن يتعلق به المؤمنون الذين يجدر بهم ألا يشتغلوا بغير المجدى من القول ، والنافع من الفعل ، والله يحب معالى الأمور وأشرافها ويكره سفسافها .

وبعد فهذه قدرة الله تعالى أو ضحنا لك من آيات الله تعالى بعض آثارها . فهل تتعلق نفس المؤمن بعد هذا بمخلوق عاجز ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم

لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) ؟

نسأل الله بعظيم قدرته وواسع رحمته أن يهيىء لنا من أمرنا رشداً ، وأن يوفقنا لما فيه خيرنا وسعادتنا ، ويرزقنا العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة . إنه سميع قدير .

٦٨ — الرقيب

لا يخاطب رب العزة سبحانه الناس بما تعبا به عقولهم ، بل يخاطبهم بما يفهمون ، وما أرسل من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . ولما أنبأ سبحانه الناس بأسمائه الحسنى ليدعوه بها ، كانت لهذه الأسماء فى لغاتهم معان يعرفونها ويفهمونها فاتخذوا هذه المعانى التى كانوا يعرفونها سلماً لإدراك معانى أسمائه تعالى بعد أن أبعدوا منها مالا يوافق عظمة الله وكبرياءه ، وعزته وجلاله ، وربوبيته وألوهيته . وأقاموا هذه المعانى — معانى أسمائه الحسنى — على أساس من معارفهم السابقة ، وأكملوها ، وأزالوا نقصها ، وسَمَوْا بها عن التشبيه والتمثيل حتى يصح إطلاقها على رب العزة ذى الجلال والإكرام .

أنبأنا سبحانه أن من أسمائه الحسنى « الرقيب » .

ونظرنا فى لغتنا فإذا لكلمة الرقيب عدة معان :

منها الحافظ — يقال : رقب الوصى مال اليتيم إذا حفظه فهو رقيب أى حافظ ومنها الحارس يقال : رقب الراعى المال إذا حرسه حتى لا تعبث به اللصوص فهو رقيب أى حارس .

ومنها المنتظر — يقال : ارتقبوا إنى معكم رقيب ، أى انتظروا إنى معكم منتظر ومنها أمين أصحاب الميسر ، والثالث من قداح الميسر ، ونجم من النجوم يراقب نجماً

آخر ، وابن العم ، وحبة خبيثة ، وخلف الرجل من ولده وعشيرته ، ومنازل القمر كل منها رقيب لصاحبه .

فأبعدنا من هذه المعانى ما لا يليق برب العزة سبحانه وهو المعنى الثالث وما بعده إلى آخر المعانى .

أما المعنيان الأول والثانى وهما الحافظ والحارس ، فإذا تصورنا معنى الحفظ ومعنى الحراسة وجدنا الحفظ أعم وأشمل فكل حافظ حارس وليس كل حارس حافظاً . فحارس الكرم قد يمنع اللصوص أن تعبث به ولكنه لا يستطيع أن يحفظه من الآفات التى تعرض له .

وعلى ذلك يتعين أن يكون معنى اسمه تعالى الرقيب هو الحافظ .

ولكى يكون المعنى أكثر مواءمة لإطلاقه على رب العزة سبحانه نقول كما قال ابن الأثير : الرقيب هو الحافظ الذى لا يغيب عنه شىء .

فهو سبحانه رقيب على السموات وما فيهن من كواكب ونجوم يحفظها أن يخرج شىء منها عن موضعه الذى أقامه فيه ، أو ينقص من سرعته التى أجراه بها ، وأداره عليها ، أو ينحرف عن اتجاهه الذى وجهه إليه ، لا تشغله الرقابة على كبارها عن الرقابة على صغارها ، ولا يعوقه حفظ قريبها عن حفظ بعيدها ، أما كل رقيب سواه فإنه إذا شغل بشىء غابت عنه أشياء ، وإذا رقب مادنا غفل عما نأى ، ولكنه سبحانه رقيب على كل شىء ولا يخفى عليه شىء يرقب أشعة الشمس فى اختلاط ألوانها حتى لا يطغى بعضها على بعض ، وحتى يظل الظاهر منهـــا ظاهراً ، والخفى منها خفياً .

يرقب الأرض فى دورتها حول نفسها أمام الشمس حتى لا تنحرف عن مدارها الذى رسمه لها ، وحتى تحتفظ بالسرعة التى خصها بها ، يرقبها فى إنبات نباتها ، وفى

صعود البخار من مياهها ، وفى إزجاء الرياح لسحابها ، وفى هطول غيثها ، وجريان أنهارها .

يرقب الأجرام السماوية أن تقع على الأرض ، إذ لو وقع أصغر جرم منها على الأرض لدكها دكا ، وصيرها هباء منبثاً .

يرقب البحار أن تطغى على اليابسة ، إذ لو طغت عليها لأصبحت الكرة الأرضية كلها بحراً يعج عجاجه ، وتصطخب أمواجه .

يرقب الفلك فى دورته فترى الشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ، وبفضل رقابته على الفلك المدار تأتى فصول العام فى مواقيتها التى حددها لها ، لا يتأخر شىء منها عن موعده ، ساعة ، ولا بعض ساعة ، ولا يتقدم دقيقة ولا بعض دقيقة ، ولا يطول ليل ولا نهار فوق ما قدر لكل منهما ، ولا يقصران دون ما كتب لهما .

يرقب الأجنة فى بطون أمهاتها وتطورها فى خلقها ، ونموها ، وتغذيتها وتمامها وخروجها من ظلمات الأرحام .

يرقب القلوب فى نبضاتها ، وتوزيعها الدم فى دورته فى الأجسام ، وتحول الدم إلى أنسجة وخلايا وقوى مختلفة .

يرقب خطرات الأفكار ، وخلجات الأنفس ، وهجسات الضمائر لا يغيب عن رقابته من كل ذلك شىء .

يرقب كل كبد وإفرازها ، وقيامها بما أقامها فيه من تنقية الدم وتخليصه من السموم واختزان العناصر الصالحة الزائدة على حاجة البدن ، وإمداد المعدة بالصفراء لهضم الأطعمة الدهنية ، ويرقب كل معدة وإفرازها العصائر والخمائر اللازمة لهضم الأغذية وتمثيلها حتى تغذوا الجسم وتعوض ما فقده من الأنسجة فى حركاتها المتنوعة .

يرقب الطير فى خفوق أجنحتها ، وفى طيرانها فى جو السماء ، وتحليقها فى الفضاء وفى غدوها ورواحها ، وفى احتضان بيضها ، وزق فراخها . وحمايتها من عدوها يرقب كل نبتة فى نموها ، وامتصاص غذائها ، وسريان الغذاء فى مختلف أجزائها ، وتكون جذورها ، وسوقها ولحائها وفروعها وأزهارها وثمارها .

يرقب الغدد الحارسة للجسم ، وفتكها بجراثيم المرض التى تهاجمه ، والغدد الصماء وإفرازها للعصائر التى تترك فى البدن آثارها المتنوعة .

يرقب أجهزة الجسم المختلفة فى أداء وظائفها ، والمشاعر فى شعورها ، والحواس فى إحساسها ، والعيون وانسكاب الضوء فى أحداقها بقدر معلوم ، والأسماع وتدفق الأصوات فى أصمختها ، وما تحدثه المرئيات والمسموعات فى النفس من شتى الآثار ، ومختلف الانفعالات .

لولى رقابة الحافظ الرقيب سبحانه على كل ما تقدم وعلى غيره مما لم أذكر ما قامت السموات والأرض ، وما قام شىء فى الوجود ، وما بقى فى هذا الكون شىء مما يستمتع به الإنسان والحيوان ، ولو تخلت رقابة الله عن هذا العالم طرفة عين لغرق فى طوفان من الظلام . وأصبح عدما من الأعدام .

وإذ قد ثبت أن الله تعالى يرقب كل شىء فى الوجود ، فهو كذلك يرقب أعمال المكلفين وأقوالهم وخائنة أعينهم وما تخفى صدورهم ثم يجزيهم إياها الجزاء الأوفى .

وثمرة معرفتنا لهذا الإسم الجليل من أسمائه تعالى الحسنى تربية الحياء منه تعالى فى نفوسنا وبلوغنا منزلة الإحسان وتجريد التوحيد ، لأن الذى يعتقد اعتقاداً صحيحاً أن الله رقيب على أقواله وأفعاله وأفكاره لا يفكر فى شر ، ولا ينطق بشىء من القول ، ولا يلوث نفسه باقتراف فاحشة ولا يقصر فى خير ، ولا يقعد عن صالحة يستطيعها .

ودوام استحضار هذه العقيدة يسمى (بالمراقبة) فمراقبة الله تعالى ـ أى دوام استحضار أنه الرقيب — وقاية من اقتراف السيئات، وحصن من الخطايا والموبقات. « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كريم » والذى يعتقد أن ربه الذى يربيه بفضله ورحمته رقيب عليه حافظ له لا يولى وجهه شطر مخلوق يلتمس منه خيراً أو يستدفع به شراً ليقينه إن الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

وقد أجمل القرآن الكريم جميع ما فَصَّلْتُ فى بلاغة إيجازه، وروعة إعجازه بقوله تعالى: (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا).

٦٩ — العلى ٧٠ — الأعلى ٧١ — المتعال

اشتقاق هذه الأسماء الحسنى جميعاً من العلو، ومعناه لغة بالإضافة إلى المخلوقين الصعود والارتفاع والرقى. وهذه معان حسية محالة على رب العزة سبحانه ليس كمثله شىء. ويطلق العلو على التكبر والتجبر، وهما معنيان ذهنيان إذا أطلقا على البشر كانا من النقائص المذمومة كما قال تعالى: « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم، ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ».

وكما قال تعالى: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً. والعاقبة للمتقين.

وقد سمى رب العزة نفسه الجبار والمتكبر من الجبروت والكبرياء اللائقين بجلاله تعالى وعظمته وتنزهه عن مشابهة المخلوقين. ويطلق العلو كذلك على القهر والغلبة. ويصح إطلاق هذا المعنى على المخلوق فتقول: علا جيش العرب جيوش الصهيونيين أى قهرها غلبها. وقد وصف الله تعالى به موسى فقال: « قلنا لا تخف إنك الأعلى » ووصف به المؤمنين فقال تعالى: « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ووصف

به القرآن الكريم فقال تعالى : « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » ويصح إطلاق هذا المعنى على رب العزة بصفة أتم وأكمل مع اعتقاد التنزيه عن مشابهة الخلق . فقد قال تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) وقال تعالى : (والله غالب على أمره) فاطلاق العلو بهذين المعنيين سائغ غير محظور .

وقد سمى رب العزة نفسه بالعلى فى مواضع من القرآن الكريم فقال تعالى فى آخر آية الكرسى : « وهو العلى العظيم » وقال تعالى فى سورة الزخرف : إنه على حكيم . وفى سورة سبأ « وهو العلي الكبير وسمى نفسه الأعلى فى قوله تعالى . « سبح اسم ربك الأعلى » وسمى نفسه المتعال كما فى قوله تعالى فى سورة الرعد : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » .

فالعلى فعيل بمعنى فاعل أى الرفيع القدر الذى يعلو أن يحيط به وصف الواصفين بله علم العارفين الذى ليس فوقه سماء فى الرتبة ولا فى الحكم .

والأعلى الأفضل والأشرف بالإضافة إلى كل ماهو فاضل وشريف فى هذا العالم ، فهو أعلى أن يقاس به : أو يعتبر بغيره ، أو يشبهه أحد من خلقه أو يتحكم فى إرادته ومشيئته غيره .

والمتعال الذى جل عن إفك الأفاكين وافتراء المفترين ، وتنزه عن جميع شوائب النقص ، وتعالى عما يقول المبطلون ، « فتعالى الله الملك الحق عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » .

علو مطلق

وقد وصف رب العزة نفسه بالعلو المطلق فليس فوقه شىء ، ولا تعلو إرادته إرادة . فكيف يزعم الغافلون أن أحداً — مهما يكن — يتحكم فى إرادته تعالى ، أو يصرفه عن مشيئته أو يحمله على أن يفعل مالا يريد أن يفعل ، أو على أن يترك مالا يريد أن يترك .

لو جاز أن يتحكم فى إرادة الله أحد لبطل علوه تعالى . واستحال علمه جهلا وحكمته سفهاً . وقدرته عجزاً . سبحان ربنا وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

إذاً فمن سفه النفس وغبن الرأى والإلحاد فى أسماء الله أن تطلب الحاجات من غيره تعالى ، أو يفزع فى الملمات لسواه . وأعرق من ذلك فى السفه أن يعمد إنسان حى إلى حدث هامد يلتمس مما فيه من العظم الرميم والرفات السحيق أن يجلب له خيراً ، أو يكشف عنه ضراً على غير مراد رب العالمين سبحانه .

فمن لوازم علوه تعالى أن ينفرد سبحانه بتدبير الأمر فلا يملك غيره من الأمر شيئاً . ولا يقدر سواه على نفع أو ضر . قال تعالى فى سورة يونس (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله . يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) .

وقال العلى الأعلى سبحانه فى سورة فاطر : (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) . وقال الكبير المتعال جل من قائل فى سورة الزمر (قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضرة أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) .

لقد جعل ربنا سبحانه من آيات وحدانيته وتفرده بالملك أنه العلى الأعلى الذى لايعلو عليه غيره فقال تعالى فى سورة المؤمنون : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذاً لذهب كل إله بما خلق . ولعلا بعضهم على بعض سبحانه وتعالى عما يصفون ٩١) عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ٩٢) .

دوافع من البينـــات

سبق فى علمه تعالى أن يمس فلاناً بضر لحكمة يعلمها جل شأنه . وتنفيذاً لسننه الحكيمة فى نظام الأسباب والمسببات . أفتستطيع قوة فى الأرض أو فى السموات أن

تحول دون تنفيذ إرادته . أو تقف فى سبيل مشيئته ؟ وهو العلى العظيم العليم الحكيم الذى لايشاء إلا ماتقتضيه الحكمة ، لامعقب لحكمه ، ولا تبديل لكلماته .

هل استطاعت الملائكة أن يحولوا بينه تعالى وبين خلق آدم وجعله خليفة فى الأرض بقولهم (أتجعل فيهامن يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ كلا . بل نفذت مشيئة الله لأنه العلى الأعلى والكبير المتعال ، وقال لهم إنى أعلم مالا تعلمون .

هل استطاع نوح أن ينقذ ولده وفلذة كبده من الغرق الذى استوجبه بفساد عقيدته وسوء عمله . حين أراد الله أن يغرقه وقد ضرع إلى الله بحنو الوالد العطوف . وشفقة الأب الحميم ؟ كلا بل نفذت مشيئة الله . ومضت إرادته . . وقال له يانوح (إنه عمل غير صالح . فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) . ذلك بأن الله هو العلى الأعلى والكبير المتعال الذى لايبدل القول لديه وماهو بظلام للعبيد .

هل استطاع إبراهيم أن ينقذ أباه آزر وقد دعا الله بقلب الولد البار والنبى الصالح قائلا (أغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون) كلا . لأن الله هو العلى الأعلى الذى يحكم لامعقب لحكمه ولا يرد قضاءه شىء .

هل استطاع أفضل الخلق خاتم النبيين وإمام المرسلين أن يهدى عمه أبا طالب الذى احتضنه ورباه وكفله وكان له أبر الأعمام ، وأحنى الأقربين ، ولم يأل جهداً فى حمايته والذود عنه حين لم يشأ الله أن يمنحه التوفيق إلى الإيمان لحكمة تدق عن الافهام ، وتخفى على أثقب الأذهان ؟ كلا لأن الله هو العلى الأعلى والكبير المتعال الذى لايقع فى ملكه إلا مايشاء (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

ألا فقل لهؤلاء الذين يتوسلون إلى الله بذوات المخلوقين ويقسمون على جلاله بأسمائهم : لقد ضل سعيكم فى طلب حاجاتكم وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعاً .

قل لهؤلاء الذين يدعون غير الله : أدعوا الذين زعمتم من دون الله . فلا يملكون

كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، لأنهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير .

تعالى ربنا العلى الأعلى والكبير المتعال أن يفعل إلا مامضت به إرادته ، وسبقت به مشيئته وقضت به حكمته . وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

إن فى ذكر هذه الأسماء الحسنى لطباً للقلوب المريضة والنفوس الضعيفة التى ينفخ الشيطان فى أنوف أصحابها فيتعالون ويتعاظمون ويستكبرون ويتنفجون ، ويحتقرون من دونهم من خلق الله ، ويستطيلون عليهم ، ويعاملونهم بمنجهية وكبرياء . فلو ذكروا أن الله تعالى قاهر فوقهم وأنه العلى الأعلى الذى يأخذ بنواصيهم لتواضعوا لله ، وعنت له وجوههم ، وخشعت له أصواتهم وانتظروا برحمتهم من فى الأرض رحمة من فى السماء .

٧٢ — العلى الأعلى . المتعال

العلو والاستواء على العرش

يطيب لى فى هذا المقام أن أعالج مسألة شغلت الأذهان ، وخاض فى حديثها الناس بالحق والباطل . ورمى بعضهم بعضاً بالعظائم ، ونسب بعضهم إلى بعض الزيغ والإلحاد ، بل إلى الفسوق والكفر . وما كانت بحاجة إلى كل هذا المراء لولا غلبة العجمة وتحكم الجهل ، وبعد الناس لذلك عن الإحاطة بأسرار الكتاب الكريم . وتذوق اللسان العربى ، والتضلع من الفصحى . والتمرس بأساليبها الرائعة ، والنهل من سلسبيل مواردها العذبة السائغة .

ومن أعجب العجب : أن أكثر الخائضين فى هذه المسألة من العامة وأشباههم ، ممن لا يلمون بشىء من العلوم اللسانية ، ولا يعرفون نحو اللغة ولا صرفها ، ولا استعارتها وكنايتها . وحقيقتها ومجازها . ولا يأخذون أنفسهم بشىء من مناحى بلاغتها ، ومرامى

عباراتها . ثم هم مع هذا يخوضون فى مسألة كان ينبغى أن تكون فوق الخوض ، ويتمارون فى أمر كان خليقاً أن يكون أبعد الأشياء الجدل والمراء . لأنها تتصل بالإعجاز البيانى ، وتلتصق بالذوق العربى من جهة ، ثم هى تدور حول صفات ربنا الخالق العظيم سبحانه من جهة أخرى .

هذه المسألة هى مسألة : علو الله تعالى : أو الفوقية ، أو الاستواء على العرش .

مقدمات البحث : المقدمة الأولى

ليس المخلوق بأعلم بخالقه من نفسه ، فهو سبحانه أعلم بنفسه من جميع خلقه ، أعلم بنفسه من الجن والإنس والملائكة . وهو أرحم بعباده من أمهاتهم ، لم يخاطبهم بما تعيا به عقولهم ، أو تعجز عنه مداركهم ، بل خاطبهم بما يدركون وأمر رسله أن يخاطبوهم بما يفهمون ، وأنزل إليهم كتاباً مبيناً معجزاً ببيانه ووضوحه ، ميسراً للذكر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

المقدمة الثانية

وصف رب العزة نفسه فى كتابه المبين بصفات كمال ، وأسند إلى نفسه أفعالا فوجب علينا أن نسند إليه تعالى ما أسند إلى نفسه من أفعال ، وأن نؤمن بما وصف به نفسه من صفات ، وأن نوقن بأنه موصوف بتلك الصفات كما أخبر ، مع اليقين بأنه سبحانه متعال عن مشابهة المخلوقين ، وأنه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) .

المقدمة الثالثة

ليس من شك فى أن فى اللسان العربى كما فى اللغات الحية حقيقة ومجاز[1] واستعارة

---

(١) ليس المراد بالحقيقة هنا الحق القابل للباطل . بل الحقيقة هنا اصطلاح بلاغى يراد به ماقابل المجاز والاستعارة الخ .

وكناية ، وليس من شك فى أن المجاز والكناية من الروعة والحسن والبلاغة والتأثير فى النفس ، والأخذ بمجامع القلب ماليس للحقيقة .

ولولا ذلك ماعدل عن الحقيقة إليها . وقد حفلت آيات الكتاب العزيز بالاستعارات البليغة ، والمجازات الرائعة المعبرة أصدق تعبير عن المعانى التى قصد أداؤها بها . ومن ذلك قوله تعالى : (سنفرغ لكم أيها الثقلان) وقوله تعالى : (وأفئدتهم هواء) وقوله تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟) وقوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك) وقوله تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب) وقوله تعالى : (فمحونا آية الليل) وقوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) . إلى غير ذلك من الاستعارات البليغة التى تفعل فى نفس السامع مالا تفعل الحقيقة ، والتى تمتاز بشرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه وتأكيده ، والمبالغة فيه ، والإشارة إليه بالقليل من اللفظ .

وما أكثر مافى القرآن الكريم من استعارات ومجازات لو حاولت استقصاءها لخرج بى القول عن نطاق هذا البحث .

ثم ماذا ؟

كان الله ولاشىء معه . كان الله ولم يكن معه أرض ولاسماء . ثم خلق الله السموات والأرض ، فكان العالم ، وكانت المملكة ، وكان الملك ، وكان الملكوت ، وللمملكة ملك يستوى على عرشها ، ويدبر أمرها ، وينظم شئونها ويتولاها بالعناية والرعاية .

وربنا سبحانه مالك الملك ، استوى على عرشه يدبر أمره ، ويتصرف فى شئونه وحده لا شريك له ، يحكم لا معقب لحكمه ، وقد أخبر عباده بذلك فى كل شريعة من شرائعه المنزلة ، فآمن به الموفقون فى كل ملة ، وصدق به المهتدون فى كل عصر . ثم بعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق على فترة من الرسل وضلال من الأمم ، وحيرة من الناس ، وفساد فى العقائد ، وتشبيه الله تعالى بخلقه ، وثنية طغت ، وشرك تحكم ، وأنزل عليه كتابه العزيز ، فيه هدى ونور ، ليحق ببيانه الشرك الذى أفسد الأمم ،

وقوض دعائم مجدها ، ويقيم به صرح التوحيد الذى ينهض بالشعوب ، ويقوى شوكتها . ولم يدع إلى التوحيد تلقينا وإكراهاً وإرغاماً ، بل تبصيراً وتنبيها وإقناعاً . فاستدل بخلق السموات والأرض على أنه رب هذا العالم ومليكه ، خلقه وحده ، واستوى على عرشه يدبر أمره وينظم شأنه ، لا يملك غيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وماله فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له .

وإليك ما جاء فى هذا المعنى من الآيات البينات ، والحجج الدامغات والبراهين الساطعات .

١ — قال تعالى فى سورة الأعراف : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا . والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين : ٥٤) .

٢ — « قال تعالى فى سورة يونس : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر . مامن شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون : ٣) .

٣ — وقال تعالى فى سورة الرعد : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون : ٢)

٤ — وقال تعالى فى سورة طه : (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى : ٤ الرحمن على العرش استوى : ٥ له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى : ٦) .

٥ — وقال تعالى فى سورة الفرقان : الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا : ٥٩) .

٦ — وقال تعالى فى سورة السجدة : (الله الذى خلق السموات والأرض، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ، أفلا تذكرون : ٤ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون : ٥)

٧ — وقال تعالى فى سورة الحديد : (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير : ٤)

فإذا تدبرت هذه الآيات البينات بعقل طليق من أسر التقليد ، مطهر من رواسب الماضى ، برىء من حمى التعصب لآراء الرجال ، وكنت قد أوتيت حظاً من الذوق الأدبى وتمرست بألوان البلاغة وضروب التعبير ، وتذوقت أساليب القرآن الكريم ، ووقفت على بعض أسراره ، وأشربت روح الدعوة الإسلامية فهمت هذه الآيات الكريمة ، وأدركت مراد الله تعالى منها ، ولم تحتج إلى السؤال عنها . كما أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموها ، وأدركوا مراد الله منها ، ولم يحتاجوا إلى السؤال عنها ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلين ظهرانيهم ، ولم يكن يضمن عليهم ببيان ما نزل إليهم .

لم تدر بخلد أحد منهم شبهة فى معنى استواء الله تعالى على العرش مع يقينهم . أنه منزه عن مشابهة المخلوقين .

أدركوا أن الله تعالى استوى على العرش كما أخبر ، استواء يليق بجلاله ، يدبر ملك السموات والأرض أتم تدبير ويتصرف فيه أحكم تصرف ويمضى إرادته فى المخلوقين وينفذ مشيئته ، وينفرد بالملك والسلطان ، وذلك هو المعنى الواضح المستقيم الذى لاعوج فيه ولا التواء والذى هو محور الدعـــوة الإسلامية التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتى سداها ولحمتها التوحيد الخالص لله رب العالمين .

وماذا فى اللغة ؟

يطلق الاستواء فى اللغة حقيقـة على التساوى ، واستقامة الشىء واعتداله ، والتماثل ، وبلوغ الأشد . ومجازاً على عدة معان . إذ يقال : استوى على الدابة ، وعلى السرير وعلى الفراش . واستوى على البلد ، ويقال : استوى على عرشه إذا ملك ، وثل عرشه إذا هلك (أنظر الأساس) .

وفى المصباح : استوى على سرير الملك ، كناية عن التملك وإن لم يجلس عليه ، كما قيل : مبسوط اليد . مقبوض اليد ، كناية عن الجود والبخل .

أثر الفتح الإسلامى

كان الصحابة الكرام عليهم الرضوان . إذا سمعوا هذه الآيات البينات التى سقيتك من نميرها ، وأرويتك من نبعها الفياض ، فهموا منها ما يدل عليه أسلوبها السهل اليسير البين ، كما أوضحت لك ، فلما فتحت الفتوح ودخل فى الإسلام طوائف من الأعاجم الذين أسلموا ، وفى عقولهم رواسب من العقائد الباطلة ، وركام من لغاتهم التى لا تمت إلى الفصحى بصلة ، أخذوا يسألون عن معانى هذه الآيات ، وعن معنى الاستواء على العرش بمعنى خاص . كانوا يسألون صحابة رسول الله ، ويسألون التابعين لهم بإحسان من بعدهم ، لأنهم وقد بدءوا يعرفون العربية لم يتروا منها ترويا يطوع لهم فهم أسرارها ، والوقوف على دقائق مجازاتها واستعاراتها ، كما أنهم لم يتحرروا كل التحرر مما وقر فى أنفسهم من العقائد السابقة .

روى أن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها سئلت عن معنى قول الله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فقالت: الكيف غير معقول ، الاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان . والجحود به كفر . فإن صحت هذه الرواية كان سببها كما أسلفت القول: أن أحد التابعين الذين اشتبهوا فى معنى هذه الآية لغلبة العجمة عليهم، وضعف الملكات اللسانية عندهم، وعدم سلامة عقائدهم من لوثة التشبيه — سألها ليقف على حقيقة المعنى .

وروى أن ربيعة شيخ الإمام مالك سئل عن قوله تعالى (استوى على العرش) فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول . ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . وقيل : إن ما لكا رضى الله عنه وجه إليه هذا السؤال فوجد وجداً شديداً ، وأخذته الرحضاء ، ولما سرى عنه قال للسائل : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإنى أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج . وروى عنه أنه قال : (الرحمن على العرش استوى) كما وصف نفسه ولا يقال : كيف ؟ وكيف عنه مرفوع . وأنت رجل سوء صاحب بدعة (انظر تفسير المنار) .

وكأنه رضى الله عنه توسم فى السائل أنه ليس طالب علم ، وإنما هو مفتون مثير للشكوك .

وأخـــيراً .

وأخيراً أدرك هؤلاء العلماء علماء السلف رضى الله عنهم أن نصوصاً جاءت فى القرآن الكريم تفيد أن لله تعالى عرشاً تحمله الملائكة ، ويحفون من حوله ، وأن نصوصاً أخرى تفيد أن الله استوى على العرش فأرشدوا السائلين إلى أنه يجب أن نؤمن بما تدل عليه هذه النصوص من معنى الكمال المطلق الذى يليق بجلاله سبحانه من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل .

وحسبهم أن يستفيدوا من استواء الله تعـــالى على عرشه :أن الملك والتدبير له وحده ، فلا يعبد غيره ولا يستعان سواه .

أمثل الطرق

والطريقة المثلى فى فهم هذه الآيات : هى إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل لأن الظاهر الذى يتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن رب العزة سبحانه ليس كمثله شىء .

ومن شبه الله بشىء من خلقه كفر ، ومن جحد ما وصف به نفسه كفر ، ومن أثبت ما وردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجـــه الذى يليق بجلال الله تعالى وينفى عنه النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى ، وهدى إلى صراط مستقيم) .

ولم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله تعالى صفة العلو اللائق بعظمته وجلاله . المنزه عن المشابهة لعلو المخلوقين ، حتى نفتها المعتزلة ومن اقتدى بقولهم من متأخرى الأشعرية . وظواهر الشرع كلها تقتضى إثبات العلو لله تعـالى كقوله جل شأنه (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وقوله جلت قدرته : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقوله

تبارك اسمه : (تعرج الملائكة والروح إليه) إلى غير ذلك من الآيات التى إن سلط عليها التأويل عاد الشرع كله مؤولا ، وإن قلنا إنها من المتشابه عاد الشرع كله متشابهاً .

فسبحانه من إله علىٍّ عظيم تفرد بالكمال وتعالى عن مشابهة الحوادث ، وهو كما وصف كماله وجلاله . وكما أخبر عن نفسه ، وهيهات أن تحيط العقول الفانية العاجزة المحدودة بالخلاق العظيم القادر الذى لا نهاية لكماله وجلاله (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) .

٧٥ — العظيم

أصل العظيم فى اللغة ما كثر عظمه من الإنسان والحيوان ثم استعير لكل كبير محسا كان أو معقولا ، عينا كان أو معنى . يقال : عرش عظيم . ونبأ عظيم ، وعذاب عظيم ، ويوم عظيم ، وفضل عظيم ، وإذا استعمل فى الأعيان فأصله أن يقال فى متصل الأجزاء كالطود العظيم ، والقصر العظيم ، ولكنه قد يستعمل فى متفرقها كالجيش العظيم .

وإذا وصف به الإنسان فمعناه الغنى ذو السطوة والنفوذ والجاه قال تعالى : (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .) أى رجل من ذوى الثراء والمكانة.

ولعلك إذا تدبرت هذه المعانى فى المخلوقات آنست بصيصا من النور يكشف لك شيئاً من معنى هذه الكلمة إذا أطلقت على رب العزة سبحانه ، هو المنزه عن شبه المخلوقين ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

إذا أطلق لفظ « العظيم » على رب العزة سبحانه فمعناه : الذى جل عن إدراك العقول فلا تحيط بكنه ذاته وتدرك حقائق صفاته ، ولا تقف على أسرار أفعاله .

فمن آيات عظمته سبحانه أن الإحاطة بحقيقة ذاته ليست فى متناول عقول البشر ومن أجل ذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التفكير فيها رفقاً بهذه الأمة أن تعصف بها الفتنة ، وتتفرق بها الظنون فقال صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى آلاء الله ،

ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا وفى رواية : فإنكم لن تقدروا قدره » .

ومن آيات عظمته جل شأنه أن صفاته العلا وراء مطارح الأفكار ، ومطامح العقول ، فكيف تدرك العقول حقائق الوجود الذاتى ؛ والبقاء السرمدى ، وغير ذلك من صفاته التى لو طمحت العقول إلى تصورها ، أو رمت الأفكار إدراكها لرددت خاسئة تتعثر فى أذيال الحيرة .

ومن آيات عظمته تبارك اسمه أنك ترى أفعاله فى نفسك وفى الآفاق ثم تحار فى الإحاطة بأسرارها ، فلا تدرى كيف أودع عينك البصر ، وأذنك السمع ، ولسانك الذوق ، ولا تعلم كيف أمدك بالإدراك والفهم والذكر والحفظ والتخيل والتصور وغيرها من القوى والمشاعر التى تدركها فى نفسك ، وتجد آثارها فى حسك ، ولكنك لا تدرى كيف أمدك بها خالقك العظيم ذو الجلال والإكرام جلت قدرته وسمت حكمته .

لا تدرى كيف أودع العناصر خواصها ، ولا الكائنات استعداداتها ولا كيف منح الكواكب والنجوم حركاتها الدائمة المنظمة ، وألزمها مداراتها المرسومة ، وأفلاكها المعلومة .

ورد هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع وكلها تشير إلى ما أسلفنا لك ، فإذا تدبرتها أشرقت عليك من آفاقها شموس العرفان ، ولاحت لك آيات العظمة من كل مكان .

أولها آية الكرسى (٢٥٥) فى سورة البقرة . وهى قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السموات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) .

فإذا تدبرت هذه الآية الكريمة التى ختمت بهذا الاسم الجليل ليكون اختصاراً يجمع معانيها جميعاً ، وجدتها تعداداً لمظاهر عظمته تعالى ، فالتفرد بالملك والملكوت ، والحياة التى لا أول لها ولا نهاية ، والوجود الذاتى الذى يفيض الوجود على كل موجود

سواء ، والقيام بالذات والغنى عن كل كائن فى الوجود ، والقدرة التى لا تلحقها أية شائبة من شوائب العجز ، ولا تعطلها سنة ولا نوم ، والملك الواسع الشامل لما فى السموت وما فى الأرض ، والعلم المحيط بكل شىء فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وعجز الأنام عن الإحاطة بشىء منه إلا بما شاء العليم الحكيم سبحانه ، وتهيب المقربين أن يشفعوا عنده إلا بإذنه ، والسلطان الكامل الشامل لجميع العوالم العلوية والسفلية ، وحفظها بقدرة غيبية لا يعلم حقيقتها إلا هو ، كل أولئك من آيات عظمة الخالق العظيم سبحانه .

فإذا تدبرت هذه الآية حق تدبرها لا يسعك إلا أن تهتف من أعماق صدرك .

ما أعظمك يارب العالمين !

إن ربى لعلى عظيم !

ثانيها : قوله تعالى فى سورة الشورى : له مافى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم : ٤) والكلام فيها كبعض الكلام فى آية الكرسى فلا موجب لاعادته .

ثالثها : قوله تعالى فى سورة الواقعة : (أفرأيتم ماتمنون ٥٨ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ٥٩ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ٦٠ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ٦١ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ٦٢ أفرأيتم ماتحرثون ٦٣ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ٦٤ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكرون ٦٥ أنا لمغرمون ٦٦ بل نحن محرومون ٦٧ أفرأيتم الماء الذى تشربون ٦٨ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ٦٩ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ٧٠ أفرأيتم النار التى تورون ٧١ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ٧٢ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ٧٣ فسبح باسم ربك العظيم ٧٤) .

فانظر كيف ساق لك أدلة عظمته فى هذه الآيات البينات بهذا الأسلوب المعجز ، والبيان الرائع .

بدأ سبحانه فنبهك إلى خلق الإنسان ومادة خلقه وما يعتريه من الموت وفقدان الحياة وأشار إلى إمكان النشأة الأخرى مستدلا عليها بالنشأة الأولى . وكل هذه ظواهر لا يمكن

أن يدرك العقل كنهها ولا أن يقف على حقيقتها . ولا يدرى أعزز الناس علما بالجسم البشرى وتشريحه وتكوينه ووظائف أعضائه — كيف تدب الحياة فى الأجسام ، فتمنحها القوى والمشاعر ، وكيف تفارقها فتعود جمادا أمواتاً لا أثر فيها لحس ولا حركة ولا شعور .

أليس فى ذلك كله آية على عظمة الخالق العظيم ؟ .

ثم أشار سبحانه إلى النبات وكيف أنبته من الأرض فأحال ترابها الأغبر نباتاً أخضر وزهراً أحمر وأصفر ، وثمرا حلوا ، وفاكهة طيبة .

فهل تدرك العقول سر هذا التحويل ؟ وهل تحيط الأفهام بمدى هذا العجب العجاب من دلائل عظمة البارىء العظيم ؟ .

ثم أشار سبحانه إلى الماء وإنزاله من المزن عذباً فراتا سائغاً للشاربين ، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجا لا تستسيغه الحلوق ، ولا تستطيبه الأفواه . وإلى النار وأمرها عجب . كيف اشتعلت ؟ من أين استمدت حرارتها ؟ كيف اتصلت بمواد الحريق ؟ كيف تكون الأوكسجين الذى يشب ضرامها ؟

كل هذه أسرار يعجز العقل البشرى عن إدراكها ، ويقصر البيان دون التعبير عنها ، وتقف المدارك حسرى دون الإحاطة بها . وكلها آيات ناطقة بعظمة الله سبحانه .

ألست جديراً بعد أن تتلوا هذه الآيات أن تملأ قلبك يقيناً بعظمة الله ، فتخشع له وتخر ساجداً لعظمته .

فلا تعجب إذا رأيت هذه الآيات البينات قد ختمت بهذه الآية الكريمة ، فسبح باسم ربك العظيم .

رابعها : قوله تعالى فى سورة الواقعة أيضاً (فلولا إذا بلغت الحلقوم ٨٣ وأنتم حينئذ تنظرون ٨٤ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ٨٥ فلولا إن كنتم غير مدينين ٨٦ ترجعونها إن كنتم صادقين ٨٧ فأما إن كان من المقربين ٨٨ فروح وريحان وجنة نعيم ٨٩ واما إن كان من أصحاب اليمين ٩٠ فسلام لك من أصحاب اليمين ٩١ واما إن كان من

المكذبين الضالين فنزل من حميم ٩٣ وتصلية جحيم ٩٤ ان هذا لهو حق اليقين ٩٥ فسبح باسم ربك العظيم ٩٦) بعد أن أنكر على الناس تكذيبهم بالقرآن وكفرانهم النعمة أخذ يورد عليهم دلائل قدرته المتمثلة فى سلب الحياة من الإنسان وأحياؤه من حوله ينظرون قد قعد بهم العجز عن إعادتها أو إمساكها ، فتفلت من بين أيديهم وهم صاغرون .

فالقدرة على منح الحياة وسلبها ثم إعادتها ، وإبراز الأحياء بعد البعث فى أبدان لاتخضع لنظام الفناء ، وإثابة المطيعين وعقوبة الكافرين آية العظمة الكاملة التى هى أخص صفات الخالق العظيم .

خامسها : قوله تعالى فى سورة الحاقة : (فلا أقسم بما تبصرون ٣٨ وما لاتبصرون ٣٩ إنه لقول رسول كريم ٤٠ وما هو بقول شاعر ، قليلا ماتؤمنون ٤١ ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون ٤٢ تنزيل من رب العالمين ٤٣ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ٤٤ لأخذنا منه باليمين ٤٥ ثم لقطعنا منه الوتين ٤٦ فما منكم من أحد عنه حاجزين ٤٧ وإنه لتذكرة للمتقين ٤٧ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ٤٩ وإنه لحسرة على الكافرين ٥٠ وإنه لحق اليقين ٥١ فسبح باسم ربك العظيم ٥٢) .

فبعد أن أقسم سبحانه بدلائل العظمة من خلقه ، مما يبصر الناس ومالا يبصرون ، وأكد أن القرآن الكريم نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنه ليس بشعر ولا كهانة ، وإنه تنزيل من رب العالمين ، وأن النبي لايتقول على الله تعالى لأنه لو تقول عليه أى تقول لناله بأشد ألوان العقاب ولم يستطع أحد من البشر أن يدفع عنه . واتخذ له من ذلك كله آية تشهد بعظمته ولذلك ختمت هذه الآيات البينات بقوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) .

ومن ذا الذى لايسبح باسم ربه العظيم إذا لاحت له هذه الآيات وأشرقت فى أفق عقله أنوارها . وتفتحت عين بصيرته على غوامض أسرارها ؟

وبعد فالعظيم حقاً هو لجدير بأن تعظم شعائره ، ويطاع أمره ونهيه ، ويرجى فضله ورحمته ، ويخشى بطشه وانتقامه .

لأنه وحده الذى يملك القوة الغيبية التى لايدرك كنهها والتى تحار فى تصورها العقول ، وتعجز عن إدراكها الأفكار . والتى يكون بها النفع والضر والتصرف فى الملك والملكوت .

أما المخلوقون العاجزون فأبعد شيء عن العظمة وعما يستحق العظيم الحق من العبادة والخضوع والخشوع والاخبات والخشية والخوف ، وعما يملك العظيم الحق من عون وغوث وفضل وإنعام فإن صرف العبد أمراً من الأمور التى يستحقها العظيم لعظمته إلى غير العظيم فقد ألحد فى أسماء الله تعالى ، وأشرك به ، وخلع صفاته العلا على الضعفاء العاجزين الذين لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

وقد صولت لك بهذا القلم الكليل بعض نواحى العظمة الإلهية فهل تجد شيئاً منها فى المخلوقين ؟

أليس كل عظيم فى هذه الحياة حقيراً بالإضافة إليه سبحانه ؟ ومن ثمرات ذكر هذا الاسم العظيم أن يشعر المرء نفسه التواضع لعظمته تعالى ، والاخبات له والخشوع بين يديه فيلزم نفسه كلمة التقوى ويكون أحق بها وأهلها . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب . ومن تواضع لله رفعه وما أطيبها من ثمرات !

توجيه : إذا أردت أن تتحدث عن عظيم من الناس فصفه بالعظامة ولاتصفه بالعظمة فإن العظمة لله وحده ، وإذا وصفت بها إنساناً كانت له صفة دم ونقص لأن معناها بالقياس إلى الناس الكبر والزهو والإعجاب والاختيال .

فسبحان من تفرد بالعظمة والجلال وهو العلى العظيم .

العظـــــيم

أعيد هنا ما سلف أن كتبته فى أكثر من موضع من هذا البحث وهو أن اللغة حين وضعت إنما وضعت للتعبير عن ذوات المخلوقين وصفاتهم وأعمالهم ، فلما أريد منها أن تعبر عن صفات الخالق سبحانه وهى أجل من أن تحيط بها العقول استعيرت الألفاظ التى تقرب المعنى إلى الأذهان للتعبير بها عن صفات الله تعالى مع اليقين بأنها لا تعبر عن حقائق هذه

الصفات فى سموها وكالها وجلالة معناها وإنما تقرب معناها إلى العقول المحدودة القاصرة .

فإذا أردنا أن نقرب إلى الأذهان معنى اسمه تعالى « العظيم » رجعنا إلى المعاجم اللغوية لنقف منها على اشتقاقه وعلى ما يدل عليه أصله .

جاء فى القاموس المحيط للفيروز أبادى : العظم بكسر العين خلاف الصغر ، عظم كصغر عظما ، وعظامة فهو عظيم ، وعظم الرجل تكبر ، والعظامة محركة الكبر والنخوة والزهو . وأما عظمة الله فلا توصف بهذا . ومتى وصف عبد بالعظمة فهو ذم ... اه

وقال الراغب : عظم الشىء أصله كبر عظمه ثم استعير لكل كبير فأجرى مجراه محساً كان أو معقولا ، عينا كان أو معنى .

وقال ابن الأثير : العظيم من أسمائه تعالى هو الذى جاوز قدره ، وجل عن حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته . والعظيم فى صفات الأجسام كبر الطول والعمق . والله تعالى جل عن ذلك .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا كلمة « العظيم » كما جاءت وصفاً لرب العزة سبحانه جاءت وصفاً لغيره تعالى : فجاءت وصفاً ليوم القيامة فى قوله تعالى « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » وعظمة ذلك اليوم تتمثل فى شدة ما يقع فيه من الأهوال والعظائم .

ووصف به العذاب فى قوله تعالى (ولهم عذاب عظيم) وعظمة العذاب فرط إيلامه، وشدة إهانته للكافرين ، وإمعانه فى إلحاق الخزى البالغ بهم .

ووصف به الفوز فى قوله تعالى (وذلك الفوز العظيم) وعظمة الفوز كثرة ما يلقى المؤمنون من ألوان النعيم واللذة وقرة العين مما لم تكن تتصوره عقولهم ، ولا يخطر على قلوبهم .

ووصف به الأجر الذى يمنحه الله المؤمنين يوم القيامة فى قوله تعالى (فسوف نؤتيه أجراً عظيما) وعظم الأجر كثرته وسمو نوعه فوق ما يعرف الناس فى الدنيا وما يدخله على قلوب الظافرين به من مسرة وهناءة وفرحة وسعادة .

ووصف به الظلم فى قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وعظم الظلم فى قبحه وشره وإسراف مقترفه فى إهدار حرمة الحق وكرامة العدل .

ووصف به الحنث فى قوله تعالى (وكانوا يصرون على الحنث العظيم) وعظم الحنث وهو الخطء والإثم سوء ما يترتب على اقترافه من الضرر فى الدنيا والآخرة وقبح مايترك فى النفس من آثار تدسيها وعلى القلب من رين يطمس نوره .

ووصف به الميل فى قوله تعالى (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) وعظم الميل قبح التنكب لسبيل الحق والخير والاستقامة واعتساف طريق الباطل والشر والشهوات المردية الموبقة .

ووصف به البهتان فى قوله تعالى (وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) وعظم البهتان شناعة ما طعنوا به على العذراء البتول الطاهرة وقبح ما بهتوها به من نسبة الحنا إليها ووصف به الجبل فى قوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم) وعظم الطود فى شموخه ورسوخه، وضخامته ، وكبر جرمه ، وامتداد حجمه ، ووصف به النبأ فى قوله تعالى (عن النبأ العظيم) وقوله تعالى (بل هو نبأ عظيم) وعظم النبأ فى روعته وغرابته وإدهاشه لمن لم يكن يتوقعه .

ووصف به عرش ملكة سبأ فى قوله تعالى (ولها عرش عظيم) وعظم هذا العرش تتمثل فى ضخامته ونفاسته وإتقان صنعه ، وبديع نقشه ، وقيمة مادته .

ووصف به عرش الله تعالى فى قوله سبحانه (رب العرش العظيم) وعظمته فى أنه فوق متناول عقول البشر ، وأن البشر لا يعرفونه على الحقيقة ، وفى إضافتـــه إلى رب العزة سبحانه .

ووصف به الإنسان فى قوله تعالى (على رجل من القريتين عظيم) وعظامة الإنسان فى غناه وعلمه وجاهه ونفوذه وخضوع العامة له وائتمارهم بأمره ونزولهم على حكمه .

ووصف به القرآن الكريم فى قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) وعظمة القرآن فى إعجازه وسمو عبارته ، وروعة أسلوبه ، وإخباره بالغيوب الماضية والمستقبلة وما فيه من تشريع حكيم ودين قويم .

وأخيراً وصف به رب العزة نفسه فى قوله تعالى (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم)

وفى قوله تعالى: (فسبح باسم ربك العظيم)

فما معنى عظمته تعالى؟

لولا أن عبارة ابن الأثير فيها بعض المآخذ لكانت خير تفسير لهذا الاسم العظيم من أسمائه تعالى الحسنى.

ولكن ابن الأثير يقول: هو الذى جاوز قدره. وهذه العبارة تشعر بأن لله تعالى قدرا وقد جاوزه، وحاش لله! فهذه سقطة قلم على ما اعتقد، فإن الله تعالى فوق كل قدر. ولعله كان يريد أن يقول: هو الذى جاوز قدره كل قدر، ولكن فاته الصواب. وجل ربنا سبحانه عن حدود العقول فتقاصرت عن إدراك كنهه، وعجزت عن الإحاطة بحقيقته. سبحانه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير. وربنا سبحانه عظيم فى ذاته، عظيم فى صفاته عظيم فى أفعاله.

عظيم فى ذاته لتنزهه عن مشابهة الحوادث وعجز العقول عن إدراك حقيقته، وتقاصر الأفهام عن الدنو من حظيرة قدسه، ولذلك أوصانا نبينا الرءوف الرحيم بأن نقدع عقولنا عن الحومان حول هذه الأنوار، ونصد أفكارنا عن الدنو من هاتيك الأستار. فقال صلى الله عليه وسلم: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا، وفى رواية: فإنكم لن تقدروا قدره».

عظيم فى صفاته، فلو أتيح لك أن تجمع ما تفرق فى صنوف الخلق منذ برأهم البارىء سبحانه إلى أن يرث الأرض ومن عليها — من صفات القدرة والحكمة والعلم والحلم، والرحمة واللطف والسمع والبصر، وغيرها من الصفات، ثم ضاعفتها آلاف الآلاف الأضعاف، لكانت بعد هذا كله هباء فى جانب قدرته تعالى وحكمته وعلمه وحلمه، ورحمته ولطفه وسمعه وبصره، وغيرها من صفاته العلا. فسبحانه من إله عظيم له المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. صفاته ذاتية وهو واهب الصفات لكل موصوف.

عظيم فى أفعاله، فلو اجتمع من فى السموات والأرض على أن يخلقوا نملة أو ذرة مما خلق الله، لباءوا بالفشل، وردوا بالخيبة، وتبين فيهم ضعف المخلوق الشاهد بعظمة

الخلائق العليم (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدر الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) .

(هذا خلق الله ، فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ !) .

(قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) .

وللرسول صلى الله عليه وسلم كلمات من جوامع الكلم وبوالغ الحكم ، تقرب إلى الأذهان بعض نواحى العظمة الإلهية ، كقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وكقوله صلى الله عليه وسلم « يد الله ملأى لا تغيضها النفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض ؟ فإنه لم يغض ما فى يده » .

وكقوله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز شأنه « يا عبادى أنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر . .

ومن أروع ما جاء فى وصف العظمة الإلهية قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم) .

فمن كانت له هذه الصفات العلا فهو العظيم حقاً ، وختام هذه الآية الكريمة بهذا الإسم الجليل يشير إلى أنه يجمع كل ما تقدم فيها من صفات

فمن دلائل عظمته تعالى التي جاءت في هذه الآية الكريمة : تفرده تعالى بالألوهية وحياته الذاتية التي لا أول لها ولا آخر على حين كل حي سواه منقوص الحياة وقيامه بنفسه بحفظ وتدبير كل شيء على حين يقوم كل شيء في الوجود بحفظه سبحانه ورعايته .

كل شيء في الوجود في قبضته ، وهو المسيطر عليه والمتصرف فيه ، ليس لاحد معه تصرف ، لا الأولياء الصالحون ، ولا الأنبياء المرسلون ، ولا الملائكة المقربون ، له الخلق والأمر ، أحاط بكل شيء علماً ، ووسع كل شيء رحمة وفضلا .

لو قدر الناس عظمة خالقهم لم يصرفوا وجوههم إلى غيره ، ولم يلتمسوا شيئاً من أحد سواه ، ولم يطلبوا العون من الضعفاء العاجزين ، ولا الرزق من الفقراء المعوزين ، ولا الشفاء من المرضى المدنفين ، أو الموتى المقبورين . فسبحانه وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم .

انتهى بحمد الله وتوفيقه ؟

رقم إيداع دار الكتب
٥٥٢٥ لسنة ١٩٧٠